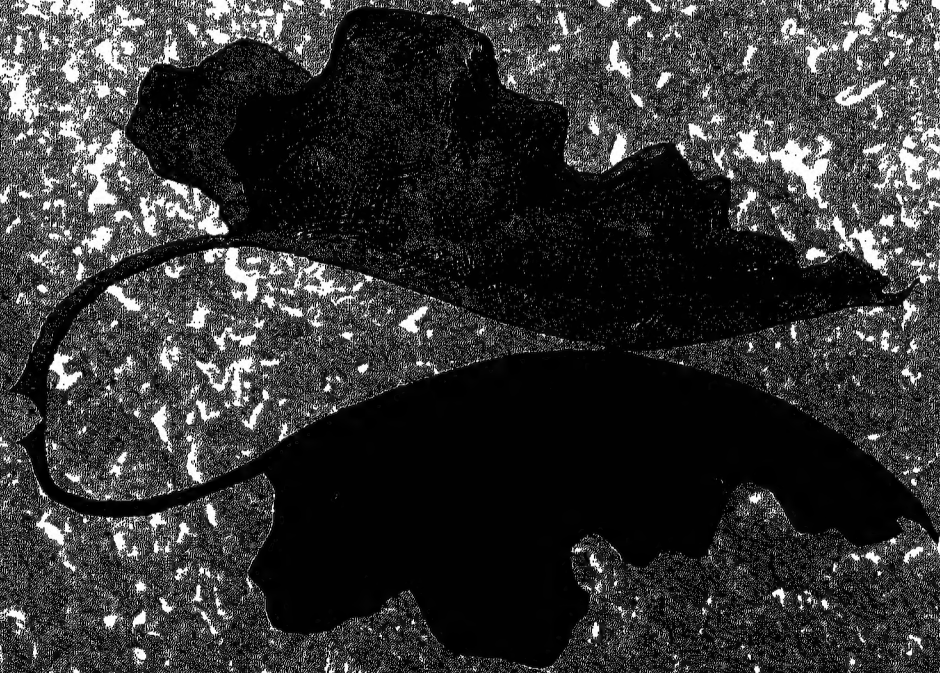


# لا تلوّموا الخريفة

د. يوسف عز الدين



دار الشروق



لا تلوؤموا الخريف

الطبعة الأولى  
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حراد حس - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤  
بروكينا شروق - تلخس 93091 SHROK UN  
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣  
بروكينا داشروق - تلخس . SHOROK 20175 L.E



د. يُوسُفُ عَزَّ الدِّين

# لاتلوموا الخريف

رواية

دار الشروق



ينبتُ الزهُرُ في الربيع ويُلقَى عند باب الخريفِ بعضَ ظلاله  
لا تسلوموا الخريفَ لو عشق الزهُرَ وتاقت عيونه الجماله

دكتور يوسف عز الدين عيسى

- ١ -

كانت أسراب العصفير ترتفع ثم تهبط على الأشجار وكأنها ألعابٌ ناريةٌ . والأحبة يتهادون ويتهايمسون في نشوة وقد تشابكت أيديهم ، والأشجار التي جردها الخريف من أوراقها بدأت تدب فيها الحياة كان كل شيء في حديقة الأندلس على شاطئ النيل في ذلك اليوم من عام ١٩٣٨ يحتفل بمقدم الربيع ، وانطلق طفل يعدو في إحدى يديه قوس وفي الأخرى سهم .

في مهرجان الربيع هنا بدأ مختار بدر الدين الطالب بكلية العلوم وكأنه نعمة نشار . فهو جالس بمفرده منزويا في ركن منزل من أركان الحديقة على مقعد خشبي تظله شجرة عجوز محفور على جذعها قلب يخترقه سهم وقد أدار ظهره للربيع كما أدارت له ظهرها زهرة كبيرة صفراء وانجهدت نحو قرص الشمس ، وفي يده كتاب « علم الحيوان » يحاول أن ينقل إلى مخزن ذاكرته كل ما هو مدون في صفحاته ، فهو لم يحضر للحديقة للترهة وطلب المتعة كغيره من خلق الله ، ولكنه اعتاد زيارتها من آن لآخر ليذاكر دروسه ، كان هو الإنسان الوحيد في الحديقة الذي لا يشعر بمتعة الربيع ، الحياة في نظره معمل ومحاضرة وكتاب .

وبينا هو مستغرق في قراءة كيفية تكوين جنين الدجاجة ونموه من خلية واحدة ملقحة حتى يصبح كتكوتا مكونا من ملايين الخلايا انتفض بغتة على أثر شيء اصطدم بصدره . نظر فإذا ذلك الشيء الذي أفرعه سهم خشبي صغير انطلق من القوس الذي يلهو به الطفل . أقبل الطفل والتقط السهم الذي سقط أمام مختار وجرى مبتعدا عنه .

اعتبر مختار ذلك السهم تنبيها له ليطوى الكتاب ويستريح قليلا ليرى ما حوله ، فإذا على مقعد قريب منه تجلس فتاة رائعة الجمال . شعر كأن قلبه كان متوقفا وبدأ يدق ، كما تدق الساعة عندما تُهزّه عيفة بعد أن كانت عقاربها متوقفة عن الدوران .

أمرت هذه الفتاة الطفل أن يذهب إلى مختار ويعتذر له عن السهم الذي أصابه . فذهب الطفل ووقف أمام مختار صامتا . ثم جرى يلهو بقوسه وسهمه . فأومأت الفتاة برأسها إلى مختار مبتسمة وقالت :  
- أنا متأسفة بالإجابة عنه . لم يكن أخي يقصد أن يصيبك بالسهم .

نظر إليها مختار وقد احمر وجهه وقال :

- لم يحدث ما يدعو للأسف . إنه طفل صغير يلهو . عندما رأيته وهو يعدو بالقوس والسهم ظننته « كيويد » ! .

ضحكت الفتاة وقالت :

- كيوييد؟ ! أرجو ألا يكون قد أزعجك هذا الكيوييد .

قال مختار :

- إنه أول سهم يصيبى .

قالت الفتاة مبتسمة :

- أتعشم أن يكون آخر سهم .

قامت وعينا مختار تتابعها . وسارت نحو أخيها فسحبته من ذراعه واتجها معا نحو الباب الخارجى للحديقة واختفت بين ملايين البشر الذين يعيشون فى مدينة القاهرة . ولكن صورتها لم تغب عن عينيه بوجهها الناصع البياض وعينها الخضراوين المبتسمتين وشعرها الكستنائى المنهدل . ظل مطرقا للأرض يفكر فى هذا الجمال العابر الذى يخفى له القلب ثم تبتلعه أمواج البشر فلا تراه العين بعد ذلك . إنه النوع من الجمال الذى يستويه .

استولى عليه شعور عجيب لم يشعر به من قبل . شعر كأنه كان يبحث عن شىء مجهول لا يعرفه ثم وجد هذا الشىء عندما رأت عيناه تلك الفتاة . واستبد به إحساس غير مريح . إذ اعتقد انه أضاع فرصة كان من الواجب أن ينتهزها ولا يتركها تفلت من يده لماذا أتركها تتعد غنى وتغيب عن بصرى دون أن أحاول تتبعها لمعرفة مسكنها أو سؤاها لمعرفة أى شىء عنها؟ .

وكان على استعداد للاسترسال فى هذه الأفكار إلى ما لا نهاية لولا أن حانت منه التفاتة فوجد كتاب علم الحيوان ملق بجواره وكأنه يعاتبه على انشغاله عنه بشىء آخر . فأخذ الكتاب ووضع تحت إبطه وغادر الحديقة عائدا لمنزله .

هذا الربيع الذى يملأ الدنيا لا يعرف طريقه إلى حارة البحرى المتفرعة من شارع جزيرة بدران بشبرا . يعيش مختار فى هذه الحارة ويعيش معه اثنان من زملائه بكلية العلوم هما شريف المنصورى ورشاد زهدى . ورجل ثالث فى نحو الخمسين هو عبد الحميد غريب . وهو شاعر موهوب عاطفى رقيق المشاعر . كان مدرسا فى إحدى المدارس الابتدائية وفصل من عمله عندما أساء استعمال الكراسى فى أثناء مشادة نشبت بينه وبين ناظر المدرسة عندما أصر عبد الحميد على تدريس التاريخ بطريقته الخاصة ضاربا بمقرر وزارة المعارف العمومية عرض الحائط ! .

- أجل ، التاريخ لا بد أن يدرّس بهذه الطريقة . يجب الاهتمام بتدريس تاريخ الذين خدموا الحضارة وخففوا آلام البشر . تاريخ باستير فى رأى أحق بالدراسة من تاريخ شخص مجرم مثل نابليون الذى سفك الدماء وعذب الناس .

- أنت يا أستاذ مقيد بمقرر وضعته الوزارة وسيمتحن فيه التلاميذ .

- ( ناثرا ) المقررات يجب أن تتغير . دراسة التاريخ ينبغى أن تتطور . ماذا استفادت البشرية من نابليون وجنكزخان وهولاكو التتارى وأمثالهم ؟ لماذا يحشون أدمغة التلاميذ بتاريخ أمثال هؤلاء السفاحين الذين يئموا الأطفال ودمروا المدن وأبادوا القرى وأشاعوا الرعب والتعاسة ؟ لماذا لا ندرس بدلا من هذا تاريخ

العلماء الذين خففوا آلام البشر وكفكفوا دموعهم . والأدباء والفنانين الذين جملوا الحياة بأفكارهم وفنونهم ؟

- أنت يا أفندي مجنون ويجب وضعك في مستشفى المجانين .
- أنت المجنون . أنا أعقل شخص في المدرسة .
- اخرس يا مجرم .
- أنت المجرم . أنا لا أقبل الإهانة من أحد ، أنا لى كرامة .
- هل بلغ بك الإحرام أن تضربنى بالكرمى ؟ اخرج يا مجرم . أنت مرفوت . لن تقبلك أية مدرسة للتدريس فيها بعد اليوم . سأدخلك السجن . سأجعلك متشردا في الشوارع .
- عطف مختار على هذا الرجل ، فلقد كان مختار تلميذه في يوم من الأيام ، فطلب منه أن يشاركه المسكن ولا يشترك في دفع النفقات . بل كان يعطيه بعض النقود لمصروفه الخاص ، فهو لا يملك من حطام الدنيا سوى حصيرة ينام عليها في أحد أركان الغرفة .

ركب مختار الترام عائدا لمنزله . كانت عجلات الترام تحدث ضجة في أثناء دورانها على القضبان ، وخواار مختار جلس رجلان يتناقشان بصوت مرتفع وكأنها يتعاركان ، والكسارى يصرخ في وجه بعض الأطفال الذين ركبوا على سلم الترام من الجهة اليسرى بدون تذاكر ، ولكن مختارا لم يكن يسمع شيئا من هذه الضجة ولا يرى ما يدور حوله من أحداث . لم يكن يسمع سوى صوت تلك الفتاة التي رآها في حديقة الأندلس وهي تقول : « كيوبيد » ؟ . ولم يكن يرى سوى وجهها .

وصل إلى شارع جزيرة بدران ، وكان يتحتم عليه أن يجتاز حارة البحرى حيث يقع منزله قرب نهايتها . وجد الحارة ، كماداتها ، غارقة في بحر من محتويات الجارى التي تفور وتثور من آن لآخر كما يثور البركان ، واتخذ طريقه في حذر شديد لكي يتفادى السقوط في البالوعة المكشوف عنها الحجاب دائما . كان السائر الغرب الذى يجتاز هذا الطريق لأول مرة في حاجة شديدة إلى مرشد تفاديا للأخطار كما يحدث للسفن عند دخولها الميناء أو عند اجتيازها قناة السويس .

وقف مختار أمام باب شقته بالدور الرابع وأخرج مفتاحه وفتح الباب ودخل ، كان شريف جالسا على الكنبه البلدى التي في البهو مرتديا جلبابا يقرأ في أحد كتب علم النبات . قال :

- أين كنت يا مختار؟ لقد تأخرت كثيرا .
- قال مختار وهو شارد الذهن :
- كنت في الجنة !
- الجنة ؟ ! أية جنة هذه ؟
- كنت في حديقة الأندلس إذاكر كالعادة . أين عبد الحميد ورشاد ؟
- رشاد نائم وعبد الحميد جالس في الشرفة التي تجرى من تحتها الجارى ينظم قصيدة جديدة .
- قال مختار ساخرا :
- باللوحى الرائع !

ونادى على عبد الحميد فأقبل على مضض وفى يده الورقة والقلم وقال :

— الله يجازيك يا مختار . قطعت سلسلة أفكارى . ماذا تريد ؟

— أريد أن أأكل .

— كل يوم أكل ؟ ! ألا نرتاح من الأكل يوما واحدا ؟

ضحك مختار وقال .

— ماذا أعددت لنا اليوم يا عبد الحميد ؟

— دمنعةً وفاصوليا وأرزًا بلسان العصفور وسلطة خضراء وسلطة طحينة . والفاكهة موز

قال شريف :

— هل تَبَيَّ شىء من الخمسة قروش ؟ .

قال عبد الحميد :

— تبقت نكلة .

قال شريف :

— ليتك اشتريت بها ليمونا .

فى هذه اللحظة انبعث من غرفة رشاد صوت كزثير الأسد . فعلم الثلاثة أنه صحا من نومه وأنه عب . صاح رشاد قائلا :

— ماهذه الضجة ؟ ألا تستطيعون التحدث بهدوء ؟ أيقظتمونى من أحلى نومة ، من أحلى حلم .

وقام من فراشه وجلس معهم فى البهو وهو لا يزال يتأهب ويفرك عينيه . فقال له شريف بسخرية :

— وماذا حلمت هذه المرة يا ترى ؟ اللهم اجعله حيرا .

قال رشاد مبتسما :

— لا ، هذه أسرار لا أروح بها .

قال شريف :

— أعرف أحلامك جيدا ، حتى أحلامك قليلة الأدب .

قال رشاد :

— لا والله ، ليست قليلة الأدب جدا فى هذه المرة . حلمت أنى جالس مع بنت حُلوة على شط النيل فى

عزيرة .

قال شريف :

— وماذا كنت تعمل ؟ .

— كنت آكل ترمسا .

كان عبد الحميد قد انتهى من إعداد المائدة . فصاح قائلا :

— تعالوا كلوا .

فأسرعوا بالجلوس حول مائدة الطعام وبدأوا يملأون معداتهم . وسادت فترة صمت قطعها مختار عندما

ل :

- ألن تنتقل من هذا البيت المقرف؟

قال عبد الحميد .

- وأين نذهب؟

قال مختار :

- ننتقل إلى الشقة الخالية التي في المنزل المقابل لمنزلنا

قال شريف :

- لا داعي للانتقال . إنه لا يتميز عن منزلنا .

قال مختار :

- إنه آمن وأرخص . إيجاره ينقص عشرين قرشا عن إيجار منزلنا .

توقف عبد الحميد عن الطعام ونظر إليهم قائلا :

- ما هذا الكلام؟ الشقة التي أمامنا سكنت .

قال شريف :

- في ستين داهية ، لكن متى سكنت؟ كانت خالية حتى أمس .

قال عبد الحميد :

- سكنت صباح اليوم . أنا لا أجلس في الشقة عبثا .

قال رشاد :

- ومن سكنها؟

قال عبد الحميد :

- سكن فيها قر . قر سبعة عشر ! .

قال مختار :

- قر سبعة عشر؟! ما معنى هذا؟ .

قال عبد الحميد :

- سنها لا يزيد على سبعة عشر عاما .

قال رشاد :

- علام تتحدثون؟ .

قال عبد الحميد :

- لم أر أجمل منها في حياتي ولم تر مثلها حارة البحرى ولا حتى الزمالك أو جاردن سيتي ! ولكن المؤلم

في الموضوع أنها لا تحب الشعر والغناء ! .

قال رشاد :

- وكيف عرفت أنها لا تحب الشعر والغناء؟

قال عبد الحميد :



- عندما لمحتها وهي تطل من النافذة أصبحت نخالة انهار وظننتها تمثالا من النور . ولما هذا انهارى وعدت إلى حالتى الطبيعية أسرع وتظمت قصيدة أصف فيها محاسنها ثم أخذت أدنك ملحنا القصيدة . فإذا بها تقفل النافذة فى وجهى . فانسجبت وأتمت تلحين القصيدة  
قال شريف :

- يبدو أن مهمتك الوحيدة الآن هى تطفيش جميع الحيران  
لم يسمع مختار شيئا من هذا الحوار . فلقد كان شارد الذهن يفكر فى العتاة التى رآها فى حديقة الأندلس . ولاحظ رشاد أن مختارا صامت على غير عادته . فسأله :

- مابك يا مختار؟ لماذا لا تأكل؟ فم تفكر؟

أجاب مختار متلعنا :

- أفكر؟ لا شىء . أنا لا أفكر فى شىء .

قال رشاد :

- أقسم برحمة خالى حسن أن فكرك مشغول فم تفكر؟

قال مختار :

- سرحت قليلا فى الكلام الذى يقوله عبد الحميد .

قال رشاد :

- فى قر سبعة عشر الذى أقلل النافذة فى وجهه؟.

قال عبد الحميد :

- إنها أجمل بنت فى الدنيا

فقال مختار على الفور وكأنه يصحح خطأ جسيما :

- كلا . بل يوجد أجمل منها بكثير .

قال عبد الحميد متعجبا :

- وهل رأيتها لتحكمم إذا كان يوجد أجمل منها؟.

قال مختار :

- رأيت اليوم أجمل بنت خلقها ربنا . لا يمكننى تصور وجود من هى أجمل منها .

قال رشاد :

- وفى أية داهية كنت أنا فى هذه الأثناء؟.

قال شريف ضاحكا :

- كنت نائما .

قال رشاد :

- هل يحدث كل هذا فى الساعة التى نمتها؟

قال عبد الحميد :

- لم يضع نومك سدى . ألم تكن تحلم أنك مع بنت حلوة ؟ .

قال رشاد :

- وأين رأيت ملكة الجمال هذه يا مختار ؟

- في حديقة الأندلس تحفة جميلة لم يخلق ربنا أجمل منها . النوع من الجمال الذى يعجبني . منذ

رأيتها وصورتها لم تغب عن عيني .

قال شريف :

- ماذا جرى لك يا مختار ؟ كنت عاقلا

- لو رأيتها لعذرتني

- أنا لا أريد أن أراها ولا أرى أمثالها . سأقوم لأصلي العصر .

قال مختار :

- التأمل في الجمال الذى خلقه الله نوع من العبادة .

صاح رشاد قائلا :

- صحح . مضبوط التأمل في الجمال نوع من العبادة .

قال شريف بسخرية :

- التأمل في الجمال ؟ ! تأمل كما تريد .

انسحب عبد الحميد إلى الشرفة وأخذ يترنم بأغنية «كلنا نحب القمر والقمر يحب مين ؟» .

قال شريف وهو يبسط سجادة الصلاة :

- يبدو أن عبد الحميد ذهب هو أيضا ليتأمل في الشرفة .

أطرق مختار نحو الأرض برهة ثم قال :

- لن يبدأ لى بال حتى أعلم كل شيء عن هذه الفتاة . سأبحث عنها في كل مكان ا

قال رشاد :

- ماذا تقول ؟ كانت في يدك سمكة نادرة المثل تركتها تتزلق منك في مياه المحيط وتريد أن تبحث عنها في

البحار السبعة . هل تعلم كم عدد سكان القاهرة يا أستاذ ؟ .

- لا أعلم عدد سكان القاهرة . ولكن لا بد أن أرى هذه الفتاة مرة أخرى .

قال رشاد :

- عندى فكرة تنسيك هذا التفكير الذى لا فائدة منه .

قال مختار وهو شارد الذهن :

- ماهى ؟ .

- سينا حديقة الأزيكية تعرض فيلما لجريتا جاريو . ما رأيك لو نذهب لنشاهده معا ؟ .

- لم تعد معى فلوس تكفى للفسحة ومشاهدة الأفلام .

- المسألة لن تكلفك أكثر من خمسة قروش . خمسة مليات ذهبا في الأوتوبيس وخمسة مليات رجوع بالأوتوبيس . وأربعة قروش ثمن تذكرة السيينا بما فيها طاجن خشاف فيلمان وطاجن خشاف بأربعة قروش

- ادفع لي ثمن تذكرة السيينا وأدفع أنا أجر تذاكر الأوتوبيس . أنت غني يارشاد .

- لا مانع

- قد أجدها في السيينا !

- تجدها في السيينا ؟ ! هذا ما لا أضمنه . الذي أنا متأكد منه هو أنك ستأكل طاجن خشاف وترى جريتا جارو في فيلم « الملكة كرسيتينا » .

- الفتاة التي رأيتها اليوم في حديقة الأندلس أجمل من جريتا جارو وأجمل من جميع كواكب السيينا .

كان شريف قد انتهى من الصلاة . وفي أثناء عودته التقطت أذناه الجملة الأخيرة من هذا الحديث . فقال لمختار :

- ألا تزال تهلوس بهذا الكلام الفارغ ؟ قم ذاكر كلمتين يفيدانك .

في هذه اللحظة أقبل عبد الحميد حزينا منكمس الرأس وقال :

- أفتلت النافذة في وجهي مرة أخرى .

فصاح شريف قائلا بانفعال :

- لا . الحياة معكم أصبحت لا تطاق . سأبحث عن مسكن آخر . كني فضائح يا عبد الحميد قال رشاد :

- ياخان العيش والملح يا عبد الحميد لماذا لم تنتهي لأراها قبل أن تقفل الشباك ؟

ظل عبد الحميد ناظرا نحو النافذة المغلقة مترنما بأغنية : « اللي يجب الحال يسمع بروحه وماله . قلبه إلى الحسن مال . مال العوازل وماله ؟ » . بينما التفت رشاد لمختار وقال :

- هل تعلم يا مختار أنك شخص متقلب ؟ .

فقال مختار بدهشة :

- متقلب ؟ لماذا ؟ .

- حتى أمس . أمس فقط . كانت نبيلة هي المثل الأعلى في نظرك .

- نبيلة جميلة ولا عيب فيها . أنا معترف بذلك . ولكن البنبت التي رأيتها في حديقة الأندلس لم أرى في حياتي أجمل منها .

- ألهذه الدرجة ؟ .

وهنا صاح شريف قائلا :

- ومن أوصلكما أنتا لنبيلة ؟ .

- قال رشاد :
- ماذا جرى لك يا شريف ؟ لماذا كل هذا الخماس لنيلة ؟ لماذا تدافع عنها ؟
- أنا ادافع عن بنت ممتازة .
- قال رشاد ساخرا .
- وماذا تعرف عنها ؟
- نيلة تحترم نفسها وتجبر أى إنسان على احترامها
- لا احترام ولا غيره . البركة فى سيارتها . السيارة هى التى تحيطها بهالة من الاحترام .
- أقبل عبد الحميد مهرولا نحو رفاقه وقال :
- اسمع أنت وهو . كل إنسان فى الحياة له وجهة نظر . أنت مثلا يا شريف . ما هى أوصاف البنت التى تحب أن تتزوجها ؟
- أن تكون متوسطة الحال وطيبة وثقمة تعرف ربنا
- قال عبد الحميد :
- وأنت يا رشاد . ماهى أوصاف البنت التى تحب أن تتزوجها ؟
- ضحك رشاد وقال :
- ومن قال لك إنتى سأتزوج ؟
- هل ستعيش طوال حياتك بدون زواج ؟
- وهل يوحد ما هو أجمل من الحرية ؟
- تم صياح معنيا :
- « احب عيشة الحرية زى الطيور بين الأغصان » .
- قال عبد الحميد :
- عدم زواجك فى مصلحة البنات لو تزوجت فستكون هذه الزوجة المسكينة أتعس امرأة فى الوجود
- وأنت يا مختار . ماهى أوصاف الفتاة التى تحب أن تتزوجها ؟
- أحب أن تكون بالضببط مثل الفتاة التى رأيتها اليوم بحديقة الأندلس .
- ثم غشم قائلا وكأنه يحدث نفسه :
- أتمنى أن أراها مرة أخرى
- قال رشاد :
- وأنا أيضا . أتمنى أن أراها .
- قال مختار :
- ولماذا تريد أن تراها أنت ؟
- من باب حب الاستطلاع يا أخى .
- قال مختار غاضبا :

- لو قُدِّر لي أن أتزوج من هذه البنت فلن تراها .

قال رشاد :

- وأنا لو رأيتها لن تتزوجها .

انتفض مختار واقفا وصاح منفلا :

- أنا لا أسمع لك بالتحدث عنها .

وهجم مختار على رشاد وأمسكه من ذراعه وكادت تشب بينهما معركة لولا تدخل عبد الحميد الذي

أسرع بفض الاشتباك قائلا :

- لا داعي للغضب . لن يراها أحد منكما . لا أنت ولا هو .

كان شريف في هذه الأثناء جالسا في هدوء ينظر إليهما وكأنه يشاهد فيلما سينمائيا . ثم قال :

- هل هذا وقت تفكير في الزواج . أليست المناكرة أجدي من هذا العبث ؟ .

ساد الصمت . وسار عبد الحميد نحو الشرفة ثم عاد وقد بدا على وجهه الاكتئاب وقال :

- أنا الذي ينبغي أن أتزوج . أريد قلبا يعطف عليّ تفكيركم في الزواج سابق لأوانه . أما أنا فلقد

بلغت التاسعة والأربعين .

اغرورقت عيناه بالدموع وهو ينطق هذه الكلمات ، فضحك رشاد ونظر إليه قائلا :

- تتزوج ؟ ! ومن تقبل الزواج من عاطل ؟ .

صاح عبد الحميد قائلا :

- احرص . أنا عاطل غضباً عني يامغفل وليس بإرادتي .

ثم تهدج صوته وهو يقول :

- أنا إنسان مسكين . ضائع في الدنيا . لم يعد لي أمل في أى شيء .

فتأثر مختار وقال :

- ماذا جرى يا عبد الحميد ؟ أنت شاعر عظيم وستنال حقلك من التقدير في يوم من الأيام .

قال عبد الحميد :

- البنات لا يهمهم الشعر ، تههم الفلوس .

قال مختار :

- ستجد عملا قريبا إن شاء الله ، لن نظل عاطلا للأبد .

قال عبد الحميد بصوت مرتجف :

- أنا إنسان منحوس ، مسكين . لا أمل لي في الحياة . كل أملى أن أحصل على وظيفة بخمسة جنيئات

في الشهر . لا أطمح في أكثر من ذلك أنا إنسان من دم ولحم ولى إحساس وشعور . أنا لا أطلب الكثير

خمسة جنيئات فقط ياربى . خمسة جنيئات

وانزوى في ركن البهو وأجهش بالبكاء .

- ٢ -

بدأ ضوء النهار يتسلل من خلال النوافذ . ودبّت الحياة في حارة البحري . وتصاعدت أصوات أبواب الدكاكين وهي تفتح . واستيقظ شريف وصلّى . وفتح كتاب علم الحيوان . وماكاد ينتهي من قراءة بعض صفحاته حتى سمع عبد الحميد يترنم بصوته الأجش .

خرج عبد الحميد ليشتري الفول . وعندما عاد كان مختار ورشاد قد استيقظا . فتناول الجميع فطورهم . ثم غادر مختار وشريف ورشاد المنزل متوجهين نحو كلية العلوم بالعباسية . وبينما هم يهيمون بالدخول من باب الكلية سمعوا صوت بوق سيارة جعل مختارا ينتفض . وأسرعوا بإفساح الطريق ، وإذا بها سيارة نبيلة . الطالبة الوحيدة التي معهم بالسنة النهائية . انطلقت نبيلة بسيارتها دون أن تلتفت يمينا أو يسارا .

قال مختار :

- كانت ستقتلني بسيارتها .

قال رشاد :

- ليبتا تصدمني أنا . ستكون ألد ميتة مرت عليّ في حياتي . شرف عظيم أن تصدمني سيارة أجمل بنت في الكلية . قل لي بالصراحة يا مختار . هل البنت التي رأيتها في حديقة الأندلس أجمل من نبيلة ؟ - طبعاً أجمل ، جمال لم أر له مثيلاً في حياتي .

انتفض رشاد وكأنه تذكر شيئاً هاماً وقال :

- نسيت أن أخبركم بأهم خبر في تاريخ الكلية . رأيت نبيلة أمس تأخذ كراسية من حسين صالح . قال شريف :

- كلام فارغ . هذا غير معقول . نبيلة لا تكلم أحداً ولا تسمح لنفسها أن تأخذ كراسية من أحد الطلبة . قال مختار :

- كل شيء جائز . حسين صالح يحسن كتابة المحاضرات . ونبيلة لا مانع لديها من استغلال شخص مثله لتستكمل محاضراتها

قال رشاد :

- حسين يا جماعة مغرم صباية بنبيلة .

قال شريف :

- حسين يجب جميع البنات . يجب الجنس الآخر بأجمعه .

قال رشاد :

- لكن نبيلة في نظره متميزة عن كل البنات .

قال مختار :

- هناك شخص لا يخطر على البال ينافس حسين في حب نبيلة

قال رشاد بلهفة :

- من هو؟ من؟

قال مختار :

- سعيد عزّت .

قال شريف :

- غير معقول . سعيد شخص منطوٍ على نفسه ولا يبدو عليه مطلقا أى اهتمام بأية طالبة .

قال مختار :

- هل من الممكن أن يتصور أحد منكم أنى رأيتَه فى العام الماضى واقفا فى معمل الكيمياء منهمكا فى إجراء التجربة وقد وضع أمامه مرآة حلّاقة أحضرها من منزله ليرى نبيلة وهى واقفة خلفه دون أن يشعر أحد؟! .

قال شريف :

- ألهذه الدرجة؟ .

وصاح رشاد قائلا :

- غير معقول :

فقال مختار :

- رأيتَه بعينى ، مع أنه لم يحاول مطلقا التحدث مع نبيلة أو مجرد الاقتراب منها طوال هذه السنين . فرق كبير بين سعيد وحسين ، حسين يتكلم كثيرا ، ولكن سعيد كئوم .

قال رشاد :

- فكرة جهنمية فكرة المرأة هذه لم تخطر على بالى ، ورحمة خالى حسن لأحضرن معى مرآة غدا . لكن حسين وسعيد مساكين جدا ، نبيلة من الممكن أن تأخذهم إلى النهر وترجعهم عطاشى .

قال شريف محاولا إنهاء هذا الحديث :

- كفى خوصا فى سيرة الناس وهيا بنا إلى المعمل .

جلس الثلاثة ، مختار وشريف ورشاد متجاورين فى معمل علم النبات كعادتهم ، وبالقرب منهم فى أقصى اليمين كان يجلس سعيد عزت ، أما نبيلة فكانت تجلس خلف سعيد عزت ولم يكن يجرؤ أحد من الطلبة على الجلوس بجوارها .

دخل الأستاذ أحمد بدوى المعيد الذى اتجه مباشرة نحو السبورة وبدأ درس اليوم ، وكاد كعادته يتكلم ونظرة ينتقل ما بين السبورة ووجه نبيلة وكأنه لا يرى غيرها فى المعمل ، وكلما انتهى من شرح فقرة ينظر إلى نبيلة قائلا « مفهوم؟ » فتجيبه بالإيجاب بأخفاة خفيفة من رأسها .

كان عدد الطلبة فى ذلك اليوم لا يزيد على العشرين ، وكانت عواطفهم جميعا تتجمع حول زميلتهم نبيلة كما يتجمع الضوء عند قاع العين بعد نفاذه من العدسة ، وكان بعضهم يقاوم تلك العاطفة بالابتعاد عن نبيلة وتجاهشى التحدث معها ، وكانت تتعالى على زملائها الطلبة ولا تعبرهم اهتماما ولا يجرؤون على التحدث

معها إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة قصوى . عند ذلك يكون الحديث موجزا ومقتضيا ، إذ أن طريقتهما في الرد على من يكلمها لم تكن تشجع على الاستمرار في التحدث معها لمدة طويلة .

كان زملاؤها الطلبة يشعرون بحسد وغيره من المعيين الذين يحكم مناصبهم بملكون حرية التحدث مع نبيلة كلما أرادوا ذلك وقف الأستاذ بدوى جنب نبيلة وتصفح كراسها ، ثم جلس بجوارها يرشدها إلى مواضع الخطأ في رسمها . همس رشاد في أذن شريف قائلا :

- هاهو ذا المعيد قد التصق بجوارها وكأنها الوحيدة في المعمل .  
فأجاب شريف قائلا :

- لو كنت أنت مكانه لفعلت أكثر من ذلك .

فضحك رشاد وقال :

- يا ولد أنت يافاهنى .

لم يشعر مختار بتلك الغيرة الخفيفة التي كان يشعر بها في مثل تلك الأحوال ، ولكنه شعر بمقت شديد للمعيد الذي يولى نبيلة كل هذا الاهتمام مجرد أنها أنثى جميلة ، وقفزت في خياله صورة الفتاة المجهولة التي رآها في حديقة الأندلس وأخذ يقارن بين جمالها وجمال نبيلة ، واكتشف لأول مرة عيوبها في وجه نبيلة لم يكن يدركها من قبل ، وانحنى على الميكروسكوب الذي أمامه مركزا كل انتباهه لفحص الشريحة الرقيقة التي قطعها بالموسى من ساق النبات الذي وُزِعَ عليهم لدراسته .

انتهى المعيد من إرشاد نبيلة فتركها وأخذ يموت في أنحاء المعمل ، وساد السكون ، وانهمك معظم الطلبة في قطع شرائح رقيقة بالموسى ثم فحصها تحت الميكروسكوب .

وبغنة دوت في المعمل صرخة حادة ، فانتفض الجميع وانجبت أبصارهم إلى مصدر تلك الصرخة ، فإذا بالدم يسيل من أحد أصابع نبيلة ، فقد توغل الموسى في إصبعها في أثناء محاولتها قطع شريحة النبات . ترك الطلبة كراساتهم وأمواسهم وميكروسكوباتهم والتفت أنظارهم جميعا نحو نبيلة وهم جالسون في أماكنهم وانتفض سعيد عزت واقفا بحركة شبه انعكاسية لا سيطرة للإرادة عليها وكأنه يريد أن يسعفها وقد شحب لونه ولكنه لا يمرؤ على التقدم نحوها ، فجلس متوتر العضلات والأعصاب ، وهرع المعيد إليها وطلب منها أن تفتح صنبور الماء فوق أصبعها ، ثم أمسك به وضغط على الجرح ، وطلب منها أن تظلم ضاغطة على الجرح ، وخرج مسرعا من المعمل وعاد ومعه شاش وقطنة مشربة بصبغة اليود وضميد جرحها وقام بعمل الشريحة التي كانت تحاول قطعها من ساق النبات ، ووضع لها الشريحة تحت الميكروسكوب وبدأت ترسم في كراسها ماتراه تحت عدسات الميكروسكوب .

نظر مختار إلى سعيد عزت فوجده لا يزال شاحب الوجه مضطربا غير قادر على التركيز فقال له مهدئا :

- لا تقلق ياسعيد ، إنه جرح بسيط .

فشعر سعيد بالحجل وخشى أن تكون عاطفته نحوها التي يعين في إخفائها قد افترض أمرها ، فانتابه شعور غير مريح ، وانحنى على الميكروسكوب قائلا وكأنه يتحدث نفسه :

- شيء مؤلم أن يتزف من إصبعها كل هذا الدم .



## - ٣ -

لم يكن الأوتوييس مزدحما عند عودة مختار ورشاد بعد انتهاء اليوم الدراسي فجلسا متجاورين صامتين حتى وصل الأوتوييس إلى تقاطع شارعى الملك والملكة نازلى . كان رشاد يفكر فى شىء فارتسمت على شفثيه ابتسامة عريضة والتفت نحو مختار قائلا :

- أرايت كيف اصفرّ واخضرّ وجه سعيد عزت عندما رأى الدم يسيل من أصبع نبيلة؟ .
- ولكن مختارا كان يفكر فى شىء آخر فتجاهل حديث رشاد وقال :
- أنا متألم من أجل عبد الحميد الشاعر ، إننا نتركه بمفرده فى المنزل طوال النهار .
- وهل هو طفل صغير؟ إنه رجل طويل عريض .
- ليس عريضا ، إنه طويل فقط .
- تجده الآن جالسا فى الشرفة يدندن بصوته الذى يشبه نقيق الضفدع .
- هذا الرجل فنان ، فنان أصيل ، لا يوجد واحد فى المليون ينظم أشعارا فى مثل جمال أشعاره .
- فليبئها ويشرب ماءها .

عندما وصلا إلى البيت لم يكن شريف قد وصل ، ولم يكن عبد الحميد جالسا فى الشرفة ينظم قصيدة شعر ، بل كان جالسا مكتوبا مطرقا للأرض فى أحد أركان البهو ، فسأله مختار :

- ماهى الأخبار يا عبد الحميد؟ قصدى أقول كيف أحوالك؟
- قال عبد الحميد دون أن يرفع بصره عن الأرض :
- أحوالى زفت وقطران . الدنيا بالنسبة لى يوم مكرر . شممت هذه العيشة المهيبة . أنا طوال النهار جالس هذه الجلسة المؤلة .
- ولماذا لم تخرج؟ .
- أخرج؟ وإلى أين أذهب؟ .
- ماذا جرى لك؟ هل حدث ما كدرّك؟
- هأنذا ذعيش كالكلب ، عيشة مقرقة خالية من الأمل قد يكون الكلب أسعد منى حالا . هل تصدقا أن بنتا نافهة كهذه تبصق فى وجهى؟ .
- أطلق رشاد ضحكة مدوية واقترب من عبد الحميد وقال :
- من هى البنت التى بصقت فى وجهك يا عبد الحميد؟ .
- البنت التى سكنت أمامنا .
- وما الذى جعلها تبصق فى وجهك؟ .
- وهنا دخل شريف فوجد عبد الحميد جالسا ورشادا ومختارا واقفين أمامه فقال :
- ماذا حدث؟ .

قال رشاد :

- بنت الجيران الذين سكنوا أماننا . بصقت في وجه عبد الحميد .

قال شريف بدهشة :

- أبهذه السرعة ؟ ولماذا بصقت في وجهك يا عبد الحميد ؟ لا بد أنك عملت عملة سوداء .

قال عبد الحميد وكأنه مائل أمام أحد رجال النيابة :

- لم أعمل شيئا كنت جالسا في الشرفة في أمان الله . وكنت أدندن .

صاح شريف قائلا :

- ألن تتوب عن هذه الدندنة ؟

قال عبد الحميد بانفعال :

- أنا حر يأخى . هل يوجد قانون يمنع الدندنة ؟

قال مختار محاولا تهدئة الموقف :

- أنت حر طبعاً . لا يوجد قانون يمنع الدندنة . وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال عبد الحميد :

- بيني وبينك صدرت مني كلمة .

قال مختار :

- ماهي ؟

- البنت جميلة جدا ، وعن غير قصد وبدون وعي وجددتى أقول لها « متى الوصال يا قمر ؟ » ، فبصقت

في وجهي وأغلقت النافذة .

ضحك رشاد وقال :

- خيرا فَعَلْتَ . تعيش وتأخذ غيرها .

التفت عبد الحميد نحو نافذة المحبوبة وقال في همس كأنه يخشى أن تسمعه :

- على أية حال ، لقد عرفتُ اسمها .

فقال رشاد بلهفة :

- ما اسمها ؟

قال عبد الحميد وكأنه يتذوق كل حرف من حروف اسمها كما يتذوق قضمة تفاحة شهية :

- اسمها روحية .

صاح رشاد قائلا :

- ياروحى . وكيف عرفت اسمها ؟

- سمعت أمها تناديا .

صاح شريف قائلا :

- أنا لا تعجبني هذه الفضائح .

- أنا لم أفعل شيئا معييا ولم أتسبب في أية فضائح لا سمح الله ولا قدر .  
قال مختار محاولا تغيير مجرى الحديث :  
- هل نظمت قصائد جديدة يا عبد الحميد ؟  
قال عبد الحميد باقتضاب :  
- كلا .

في هذه اللحظة فتحت النافذة . أحسن عبد الحميد بهذه الحركة فانتفض واقفا وقد تلاشى الاكتاب الذى كان يكسو وجهه وحلت محله ابتسامة مشرقة . كانت روحية مرتدية قيص نوم أصفر وممسكة بصينية للقلل بها قلتان يتوج كلا منهما غطاء نحاسى لامع . وضعت الصينية على حافة النافذة ، فطار لب عبد الحميد وأخذ يترنم بصوت منخفض قائلا :

- عطشان يا صبايا دلونى على السيليل .  
والثقت الجميع نحو النافذة لرؤية هذه المخلوقة الجميلة التى سبق أن بصقت في وجه عبد الحميد ، ولكن الابتسامة التى ارتسمت على شفتي عبد الحميد لم تدم طويلا ، فلقد أسرع روحية بإغلاق النافذة وانبعث من إغلاقها صوت سمعه عبد الحميد وكأنه دوى المدافع .  
فصاح رشاد قائلا :

- خسارة ، لولاك يا عبد الحميد لما أغلقت النافذة .  
ففرس عبد الحميد في الوجوه الثلاثة الناظرة إليه وقال :  
- ما رأيكم فيها ؟  
لم يتلق أية إجابة عن سؤاله ، فعاد يقول :  
- ما رأيك فيها يا مختار ؟ ألا تلتمس لى العذر إذا خفق لها قلبي ؟  
قال مختار :

- أنا شخصيا لا أرى فيها أى جمال .  
فصاح عبد الحميد قائلا :  
- أعمى ! وأنت يارشاد ، ما رأيك فيها ؟  
- ليست قبيحة .  
قال عبد الحميد :

- على أية حال ، أنا غرضى شريف ، قررت أن أخطبها وأتزوجها .  
قهقه رشاد طويلا وقال بسخرية مريرة :  
- تتزوجها ؟ أنت تتزوج ؟ اشرح لى كيف ستزوجها يا عبد الحميد يا شاعر .  
فصاح عبد الحميد فى غضب :

- هل تريد أن أشرح لك كيف سأتزوجها ؟ شىء بارد . هذه مسائل خصوصية ، أتزوجها كما يتزوج الناس ، ألسنتُ إنسانا كباقي البشر ؟ أليس من حقى أن تهفو نفسى للزواج ؟ .

قال شريف :

- المسألة مسألة إمكانات . الإنسان لا يفكر في الزواج إلا إذا توافرت لديه إمكاناته تزوج عندما تجد عملا .

- سأجد عملا . هل سأظل عاطلا للأبد؟ أنا مدرس ممتاز . ومسألة الزواج من روحية فرصة لا ينبغي أن أتركها تفلت من يدي فرصة لن تتكرر .

قال رشاد :

- من حيث كونها فرصة . هي فرصة حقيقة . ليس من السهل أن تصادف فتاة غيرها تبصق في وجهك .

انفض عبد الحميد وقال :

- لقد أسعدتني هذه البصقة فهي دليل على نقائها وطهرها . ولهذا السبب قررت الزواج منها .  
قال رشاد :

- إذا كانت البصقة أسعدتك فإنني أتمنى لك مزيدا من السعادة . لكن قل لي ، أريد أن أسألك سؤالا لا أحب أن يغضبك .

- مادمت خائفا أن يغضبي فلا بد أنه سيغضبي ، تفضل اسأل .

- كم سنك الآن؟

ثار عبد الحميد قائلا :

- أكلما رأيت خلقتي تسألني عن سني؟ أنا في عز شبابي ، تسع وأربعون سنة هي عز الشباب .

قال رشاد :

- وهي . كم سنها؟

قال عبد الحميد :

- حوالي سبع عشرة سنة ، عز الطلب .

قال رشاد :

- وهل من المعقول أن تكون في التاسعة والأربعين وتفكر في الزواج من بنت في السابعة عشرة؟ أليس هذا حراما يارجل؟

أطرق عبد الحميد للأرض في حزن وقال :

- ليس هذا ذنبي ، لم تسنح لي فرصة الزواج قبل ذلك .

قال مختار :

- وما ذنبا هي ياعبد الحميد؟

فصاح عبد الحميد قائلا :

- وماذا أصنع؟ هل أقتل نفسي؟ كلكم تحاكموني كأنني مجرم ، حتى أنت يا مختار؟

قال مختار :

- أنا لم أقصد ذلك .

قال رشاد :

- أنت حر في نفسك . تقتل نفسك أو لا تقتلها هذا شيء يخصك أنت ، ولكن حرام أن تفكر في إتعاس فتاة صغيرة بريئة وأنت عاطل وفي هذه السن . هذا لو افترضنا موافقتها على هذا الزواج المطلق . انتفض عبد الحميد غاضبا وقال :

- ولماذا لا توافق ؟ أنا قوى كالحصان وما زلت بخيرى . لم أعرف في حياتي أية فتاة ، والعبرة ليست بما مضى من العمر بل بما تبقى منه . أليس من المحتمل أن أعمر إلى التسعين أو المائة ويموت شاب في الخامسة والعشرين أو الثلاثين ؟.

قال شريف :

- أنت حر . أعمل ما يحلو لك ، ولكنني أعتقد أنه من الأفضل تأجيل مثل هذا الحديث وتقوم لتعشى .

## - ٤ -

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة بعد الظهر في ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد جلس رشاد في البهو مسترخيا ممسكا في يده كراسة علم الحيوان وعيناه تراقبان شبك روحية منتظرا اللحظة السعيدة التي سيفتح فيها وتطل منه . ولكنه ظل مغلقا . كان شريف معتكفا في غرفته منهمكا في مذاكرة علم النبات ، ولما طال انتظار رشاد ويش من فتح الشباك وضع الكراسة على منضدة بجواره وتناوب وتغطى ، ثم قام واقتحم غرفة شريف الذي لم يعره انتباها وظل مشغولا بالمذاكرة .

جلس رشاد على حافة سرير شريف وقال :

- هل نويت الاشتراك في رحلة برج العرب ؟.

قال شريف دون أن ينظر إليه :

- المفروض أن نذهب جميعا في هذه الرحلة ، الدكتور أوليفر قال إنه سيضع سؤالا في الامتحان عن نباتات هذه المنطقة .

فقال رشاد مبتسما ابتسامة خبيثة :

- ونبيلة ، هل ستأتي معنا في هذه الرحلة ؟.

قال شريف وهو لا يزال ناظرا للكتاب الذي أمامه :

- يحتمل إلى ذلك .

- ولكن كيف تشترك بنت في رحلة بها ثلاثة وعشرون طالبا وتمضى معهم أكثر من أسبوعين في استراحة برج العرب؟ هل هذا معقول؟
- وما المانع؟ طبعا ستيتت بمفردها في غرفة مستقلة وسيكون معنا مشرفون على الرحلة من الأساتذة.
- يبدو أنها ستكون رحلة رائعة.
- أجل ، ستكون رحلة مفيدة . سنرى مجموعة من النباتات لم نرها من قبل .  
ضحك رشاد وقال :
- أنا لا أقصد ذلك .  
- وماذا تقصد؟
- أقصد أن الدكتور منير سيكون ضمن المشرفين على الرحلة .  
- وما الشيء الغريب في ذلك؟ ما به الدكتور منير؟  
- الدكتور منير يستلطف نييلة .  
التفت شريف نحو رشاد وصاح بعصبية قائلا :  
- ياناس حرام عليكم ، كنى أفكارا حقيرة .  
نظر شريف إلى ساعته فوجدها قد توقفت . فمز يده هزة عنيفة لكي تستأنف عقارب الساعة الدوران  
وقال لرشاد :
- كم الساعة الآن؟  
- ثلاثة ونصف وخمس دقائق .  
- ولماذا لم يرجع شفتار حتى الآن؟  
- تجده جالسا في حديقة الأندلس متمنيا رؤية الحبيبة المجهولة .  
- ولماذا لا يكون جالسا يذاكر؟ أفكارك دائما حقيرة .
- قام شريف ليصلى العصر ثم خرج إلى البهو فوجد رشادا جالسا وعيناه متجهتان نحو شباك روحية . في هذه اللحظة دخل عبد الحميد مبتسما على غير العادة . فابتدراه شريف قائلا :
- أين كنت يا عبد الحميد؟ لماذا تأخرت؟ كنت أخشى أن تكون مت .  
فقال عبد الحميد والفرحة تكسو وجهه :
- كلا ، لم أمت ، وعندى لكم مفاجأة لا نخطر على البال .  
عندما سمع رشاد هذه الجملة قام واقترب من عبد الحميد وقال بلهفة :  
- ماهى هذه المفاجأة يا عبد الحميد؟  
قال عبد الحميد :
- أنا أدعوكم الليلة للعشاء في أفخم مطعم في البلد .  
نظر إليه رشاد بدهشة وقد انفرجت شفتاه وقال :  
- غير معقول . أخشى أن تكون نشتل محفظة في الترام .

- اكفهر وجه عبد الحميد وتلاشت ابتسامته وقال :
- أنا أنشل محفظة ؟ وهو كذلك . لن أقول لكم شيئا . لستم أهلا للنعمة . فلتعشوا هنا فولا وطعمية .  
استاء شريف من تلك الإهانة التي وجهها رشاد لعبد الحميد الشاعر وقال محاولا ترضيته :
- حقك على أنا يا عبد الحميد . أنت تعلم أن رشادا لا يقصد إهانتك . قل لي ، ماذا حدث ؟  
عادت الابتسامة إلى وجه عبد الحميد ولعت الفرحة في عينيه من جديد كطفل صغير وقال :
- أنا معي ثلاثة جنينيات ا .  
قال شريف بدهشة :
- ثلاثة جنينيات ؟ ! تعال اجلس ، قصّ علينا كيف هبطت عليك تلك الثروة .  
جلس عبد الحميد عند منضدة الطعام التي في البهو وتحت إبطه لفاقة لم يشأ أن يضعها أمامه على المنضدة بل ظل محتفظا بها ضاغطا عليها وكأنه يخشى أن تهرب منه ، وجلس شريف ورشاد في الجهة المقابلة له بأذان صاغية لمعرفة تفاصيل هذه القصة العجيبة ، قال شريف :
- ماذا حدث يا عبد الحميد ؟ قصي علينا .  
قال عبد الحميد :
- أنا تجرأت ودخلت جروبي « ا .  
شهق رشاد شهقة هائلة وقال :
- غير معقول ا جروبي ؟ ا أنت تدخل جروبي ا ؟ .  
وقال شريف :
- كيف حدث هذا ؟ .  
- رأيت عبد الرازق باشا يدخل فرقت خلفه .  
قال رشاد بلهفة :
- ثم ماذا ؟ .  
في هذه اللحظة فتح الباب ودخل مختار ، فابتدره شريف قائلا :
- تعال يا مختار اسمع ، أخبار عجيبة جدا .  
قال مختار :
- أخبار ؟ ما هي هذه الأخبار ؟ .  
قال رشاد :
- حدثت معجزة ، عبد الحميد الشاعر مع ثلاثة جنينيات .  
قال مختار :
- ثلاثة جنينيات حقيقية ؟ .  
قال عبد الحميد :
- طبعا حقيقية ، أنظنها مزيفة ؟ .

- قال رشاد بلهقة :
- أكمل يا عبد الحميد ، ماذا حدث بعد ذلك ؟.
- قال عبد الحميد :
- كنت أقول إنني رأيت عبد الرازق باشا داخلا جروبي فتسللت ودخلت خلفه .
- قال مختار بدهوة :
- جروبي ؟ ! ألم تخف ؟.
- قال عبد الحميد :
- كلا ، لم أخف لأنني كنت أحتفظ في جيبى بتعويذة .
- قال مختار :
- تعويذة ؟ كيف ؟.
- قال عبد الحميد :
- كانت في جيبى قصيدة من أجمل الأشعار التي نظمها في حياتي .
- نظر رشاد إليه بدهوة وقال ساخرا :
- هل يدخلون جروبي في هذه الأيام بالأشعار ؟.
- قال عبد الحميد :
- القصيدة مدح في عبد الرازق باشا وفي حزب الأحرار الدستوريين .
- قال رشاد :
- ولكنني أعلم أنك متحمس لحزب الوفد .
- قال عبد الحميد :
- في جيبى قصيدة أخرى أمدح فيها حزب الوفد ، أحتفظ بها في جيبى الآخر ، جيبى الأيسر .
- قال شريف :
- ثم ماذا حدث ؟.
- قال عبد الحميد :
- صافحت عبد الرازق باشا ، فدعاني للجلوس معه .
- قال رشاد فاغرا فمه دهشة :
- وجلست ؟.
- قال عبد الحميد :
- طبعاً ، جلست في الحال ، ومددت يدي في جيبى فأخرجت القصيدة وجدتها قصيدة الوفد فأسرعت بدسها في جيبى الأيسر ومددت يدي في جيبى الأيمن فأخرجت قصيدة الأحرار الدستوريين وقرأتها لعبد الرازق باشا .
- قال مختار :



- وهل أعجبتك القصيدة ؟ .
- قال عبد الحميد وقد شعر بأنه يمتلك شيئا يمكنه أن يفخر به :
- كيف لا تعجبه ؟ لولا وجود الناس الأكابر الذين كانوا جالسين حولنا لقام وحضننى وقبلنى إعجابا .
- قال مختار :
- ألهذه الدرجة ؟ اقرأها ، اقرأ لنا القصيدة .
- قال رشاد متحكما :
- اقرأ القصيدة ؟ وهل هنا وقت قراءة قصائد ؟ أكمل يا عبد الحميد ، ماذا حدث بعد ذلك ؟ .
- قال عبد الحميد :
- بعد ذلك وضع عبد الرازق باشا يده في جيبه وأخرج المحفظة ، محفظة (متخنتخة) مثل البطة (المتزغطة) ، وأخرج منها ثلاثة جنبيات أعطاهم لى مكافأة على القصيدة .
- قال مختار مبديا إعجاباه :
- شىء رائع .
- قال عبد الحميد :
- وهل تظن أن الأمر اقتصر على ذلك ؟ .
- قال رشاد بلهفة :
- ماذا حدث ؟ .
- قال عبد الحميد :
- طلب منى أن أحضر إلى جروبي لأجلس معه ، تصوروا ، أنا أجلس مع عبد الرازق باشا في جروبي !
- قال مختار :
- غير معقول . اسمع يا عبد الحميد ، يجيل إلى أن مسألة الجلوس معه في جروبي من اختراعك .
- صاح عبد الحميد قائلا بانفعال :
- كل شىء غير معقول ، غير معقول ؟ ألسن إنسانا مثله ؟ .
- قال رشاد :
- إنسان ، ولكنك لست مثله . هل يجلس مع الباشوات كل من هب ودب من الناس ؟ .
- قال عبد الحميد وقد سحقتة الإهانة محاولا السيطرة على أعصابه :
- وهل أنا في نظرك كباقي الناس ؟ مثلك لا يستطيع أن يفهم أو يقدر قيم الناس . أنا شاعر . شاعر موهوب ، عبد الرازق باشا أقر بذلك ، قال لى « أنت موهوب » ، وإذا قال عبد الرازق باشا عنى إني موهوب فلايد أن أكون موهوبا ، هل تفهم أكثر من الباشوات ؟ .
- قال مختار :
- طبعا موهوب . ثم ماذا ؟ ماذا حدث بعد ذلك ؟ .
- قال عبد الحميد :

- وقال لى إن بدلتى هذه غير لائقة ، ولكى أدخل جروبي وأجلس معه لابد أن يكون مظهرى لائقا ، فأخرج المحفظة ...

صاح رشاد مقاطعا :

- أخرج المحفظة (المتخخة) مرة أخرى ؟

قال عبد الحميد :

- نعم ، أخرج المحفظة مرة أخرى وأعطاني جنيهاين .

قال مختار :

- جنيهان غير الثلاثة جنيهات ؟

قال عبد الحميد :

- أجل ، ألا تفهمون ؟ ألم أقل لكم إنه أخرج المحفظة مرة أخرى ؟

قال مختار :

- ولماذا أعطاك هذين الجنيهاين ؟

قال عبد الحميد ويده تضغط بقوة على اللقافة التى تحت إبطه :

- طلب منى أن اشترى بها قطعة قماش صوف انجلىزى وأفصلها بدلة ، ليكون مظهرى لائقا عندما أجلس معه .

قال رشاد :

- أهىّ الملفوفة فى تلك الورقة التى تحت إبطك ؟

قال عبد الحميد :

- نعم هى .

قال رشاد :

- أرنى ، أريد أن أعرف ذوقك فى الاختيار .

وضع عبد الحميد اللقافة على المنضدة وأخرج منها قطعة القماش وقال :

- هاهى ذى ، ما رأيكم فى ذوقى ؟

قال رشاد :

- هائل ، لم أكن أتصور أن ذوقك رفيع المستوى لهذه الدرجة . هل تعلم أن هذا اللون بالذات كنت أبحث عنه منذ زمن بعيد ؟

قال عبد الحميد على الفور بلهجة جادة :

- خذها إذا كنت تريدها .

قال رشاد :

- هذا غير معقول .

قال عبد الحميد :

- قسما بالله العظيم لتأخذنها .

قال شريف :

- ما هذا الذى تقوله يا عبد الحميد ؟ إنها قطعة قماشك التى اشتريتها لللبسها فى جروبي . كيف تتنازل عنها بهذه السهولة ؟ .

قال عبد الحميد :

- ما دامت اعجبته فليأخذها ، أليس من واجب الإنسان أن يساعد أصدقاءه ؟ .

قال شريف :

- أجل ، يساعد أصدقاءه عندما يكون قادرا على المساعدة ، أما أنت ففى أشد الحاجة إليها .

قال عبد الحميد :

- ولكننى أقسمت أن يأخذها .

قال مختار :

- هذا كلام غير معقول .

قال رشاد :

- يقول لك إنه أقسم ، هل تطلب منه أن يحنث بيمينته ؟ هل تحرضه على دخول النار ؟ .

قال مختار :

- أنت الذى ستدخل جهنم . هل يسمح ضميرك بالاستيلاء عليها ؟ هل تستطيع قبول هدية من إنسان محتاج ؟ .

قال عبد الحميد :

- مبروك عليه . أنا مصمم على إهدائها له .

قال رشاد :

- الله يبارك فيك ، ولو أنى غير مرتاح لتصميمك هذا .

قال مختار وكأنه يحدث نفسه :

- عجائب .

وقال شريف :

- شىء غير معقول .

فقال عبد الحميد :

- هذا شأنى أنا . أنا حر فى ممتلكاتى .

قال شريف :

- يا عبد الحميد أنت لا تملك سوى حصيرة قديمة ، فكيف تفرط فى شىء ثمين كهذا ؟ .

قال عبد الحميد :

- إنها نعمة كبرى أن يكون لدى ما يمكننى إهدائه لأحد الأصدقاء ، خذها يارشاد ، خذها .

أعاد رشاد لف قطعة القماش فى ورقتها بعناية ووضعها تحت ذراعه وقال لعبد الحميد :

- كنت تتحدث عن الطعام في أفخم مطعم .

قال عبد الحميد :

- نعم ، أنا أدعوكم الليلة للعشاء في أفخم مطعم تختارونه

قال مختار متمللا :

- لا داعى لهذا العشاء يا عبد الحميد ، أنت في أشد الحاجة لهذه الفلوس . فصاح عبد الحميد قائلا

بجاس شديد :

- قسما بالله العظيم لأبد من العشاء الليلة في « شبرد » .

قال مختار :

- ولماذا لا نتعشى في مكان متواضع مثل ... مثل مطعم « الوردة البيضاء » مثلا ؟ .

قال عبد الحميد ساخرا :

- مطعم الوردة البيضاء ؟ ! لا بيضاء ولا حمراء . لماذا لا نذوق طعم النعمة ليلة في العمر ؟ لا أحد

يضمن عمره ، لن نأخذ من الدنيا شيئا .

قال رشاد :

- هل أنت مصمم ؟ .

قال عبد الحميد :

- طبعا مصمم ، ألا ينبغي أن يُكْرِمَ الإنسانُ أصحابه ؟ منذ أربعين عاما وأنا في انتظار فرصة كهذه .

قال رشاد :

- يا جماعة أليست في قلوبكم رحمة ؟ لا تضيعوا هذه الفرصة منه .

قال عبد الحميد :

- أنتم أفضلكم على .

قال مختار :

- عيب يا عبد الحميد ، لا تقل هذا الكلام .

قال عبد الحميد :

- هيا بنا إلى شبرد .

قال مختار مترددا :

- أنا لم أدخل شبرد في حياتي .

وقال شريف :

- ولا أنا .

وقال رشاد :

- ولا أنا .

فقال عبد الحميد :

- وهل دخلته أنا ؟ لا داعى للخوف فهو لا يخيف .

في نحو السابعة مساءً وصل الأربعة إلى فندق شبرد ووقفوا عند الباب فترة قصيرة مترددين في الدخول . ولكن عبد الحميد تقدم واقتحم المكان ، وبحركة لا إرادية تحسس القود التي في جيبه ، وسار الثلاثة خلفه . جلس الجميع حول منضدة في أحد أركان المطعم ومد عبد الحميد يده فتناول قائمة الطعام وحاول أن يفهم ما فيها فلم يستطع ، فناولها لمختار قائلاً :

- خذ يا مختار فك لنا هذه الطلاسم ، إنها تشبه جداول اللوغاريتمات .  
بعد مداوات أمكنهم التعرف على أنواع الطعام التي بالقائمة ، واستقر رأيهم على أن يطلبوا شوربة ودجاج ومكرونه ، وأخذوا يتناولون طعامهم في صمت رهيب وكأنهم في معبد ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام قال عبد الحميد :

- هل شعبتم أم تريدون مزيداً من الطعام ؟ أنتم ضيوفى الليلة .  
قال مختار :

- لا يا عبد الحميد ، نشكرك على هذا العشاء اللذيذ .  
فقال رشاد :

- أنا شخصياً كنت أفضل العشاء عند الحاق ، أحب الكباب .  
فصاح شريف قائلاً :

- ماهذا الكلام يارشاد ؟  
قال عبد الحميد :

- غدا نتعشى كباباً عند الحاق ، أنتم ضيوفى غدا .  
قال مختار :

- لا يا عبد الحميد ، لا داعى لذلك ، شكراً لك .  
قال عبد الحميد :

- أنا مصمم على دعوتكم غدا للعشاء عند الحاق ، لن نأخذ معنا شيئاً إلى القبر ، إنه خير جاء من عند الله يجب أن نتمتع به جميعاً .

تصرف عبد الحميد وكأنه مليونير ، فدفع الحساب وترك للمجسوس منحة ضخمة ، وغادروا الفندق .  
لمح عبد الحميد إحدى سيارات الأجرة فلوح بيده صاحماً :

- تاكسى ، تاكسى .

ولكن السيارة لم تتوقف . قال مختار بانفعال :

- ماذا جرى يا عبد الحميد ؟ هل سركب تاكسيا ؟

قال عبد الحميد :

- وهل يليق أن نخرج من شبرد ونركب الترام أو الأتوبيس ؟ هل هذا معقول ؟ إنها ليلة مفتحة .

- أقبلت سيارة أجرة أخرى فصاح عبد الحميد بأعلى صوته قائلاً :
- تاكسى ، تاكسى .
- لم تتوقف السيارة في هذه المرة أيضا فقال عبد الحميد مندهشا :
- التاكسى لا يريد أن يقف ، كأنه يعرفنى ! .
- حانت منه التفاتة نحو مختار فوجده مضطربا زائغ النظرات فسأله بلهفة :
- مابك يا مختار ؟ هل تشعر بتعب ؟ .
- قال رشاد :
- من اعتاد الغداء في مطعم الوردية البيضاء يمرض لو أكل في شبرد .
- صاح مختار قائلاً :
- هاهى ، هاهى ! .
- لم يفهم عبد الحميد شيئا وظل عملاقا في وجه مختار وسأله رشاد :
- من هى ؟ .
- البنت التى رأيتها في حديقة الأندلس .
- قال عبد الحميد :
- ولماذا انزعجت هكذا ؟ هل رؤيتها تسبب لك كل هذا الفزع ؟ .
- قال مختار وكأنه لم يسمع شيئا :
- لم أكن أتصور أننى سأراها مرة أخرى .
- شعر رشاد برغبة قوية في رؤية هذه الفتاة فقال بلهفة :
- أين هى ؟ أين هى ؟ .
- أشار نحوها مختار قائلاً :
- هاهى ذى ، المرطدية الثوب الأزرق . لقد خرجت لتوها من المحل ، لابد أنها كانت تشتري شيئا .
- قال رشاد :
- هل هى الواقعة عند محطة الأوتوبيس ؟ .
- نعم ، هى .
- قال رشاد :
- ولماذا تضيق الوقت في الكلام معنا ، لماذا لاتذهب وتكلمها هى ؟ .
- لا أظن أنها تذكرنى ، لا يمكننى التحدث مع فتاة لا تعرفنى .
- قال رشاد وهو يُهم بالاندفاع نحوها :
- إن لم تكلمها فسأكلمها أنا .
- أقبلت في هذه اللحظة سيارة أوتوبيس فأسرعت إليها الفتاة واختفت بداخلها ، فصاح رشاد قائلاً وكأنه هو الذى فقدها :

- خسارة . اركب الأوتوبيس معها ، هيا أسرع وإلا فسأذهب أنا وأتعرّف بها .  
تحرك الأوتوبيس فهمّ رشاد بالجري ليلحق به ولكن مختاراً جذبته من يده قائلاً :  
- تعال هنا . هل جنتت ؟ .

قال عبد الحميد :

- هل تحب يا مختار أن نستقل تاكسيا ونجربى خلف الأوتوبيس ؟ .

قال شريف غاضباً :

- ماذا جرى لك يا عبد الحميد ؟ ماهذا الكلام الذى تقوله أنت أيضاً ؟ .

قال رشاد :

- أنا متأكد أن مختاراً لن ينام فى ليلته . لكنك على حق يا مختار . البنت حلوة جداً . أجمل بنت رأيتها

فى حياتى .

ثم التفت إلى عبد الحميد قائلاً فى سخرية :

- ما رأيك يا عبد الحميد ؟ أيها أجمل . هى أم روحية ؟ .

قال عبد الحميد :

- روحية على قدر حالى . مثل هذا الجمال كثير على . رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

قال رشاد :

- نسيت أن أقول لك يا عبد الحميد إن الشباك الذى كان مغلقاً فُتح اليوم

قال عبد الحميد وقد انتابه شعور غير مريح :

- شباك ماذا ؟ .

- شباك روحية .

- غير معقول ، ومن الذى فتحه ؟

- هى التى فتحتة .

- هل رأيتها وهى تفتحه ؟ .

- نعم رأيتها . كانت تطل من النافذة وقد شبكت يديها وركنت عليها بلقنها .

- ذقتها ؟ يا حللوة ، وفى أية داهية كنت أنا فى هذه اللحظة ؟ .

قال رشاد بسخرية مريرة :

- كنت مع عبد الرازق باشا تقرأ له القصيدة .

وضحك ضحكة عالية وقال :

- أنا متأكد أنها لم تفتح النافذة إلا بعد أن تأكّدت من عدم وجودك فى البيت .

قال عبد الحميد وقد اعتصر الحزن قلبه :

- هكلدا حظى . أنا أدري الناس بحظى .

نظر شريف إلى مختار فوجد نظراته الشاردة وحركاته المضطربة تم عن انتقاله بفكره إلى دنيا غير الدنيا ،  
فسأله :

- ما بك يا مختار؟
- لست أدري ما الذى جرى لى ، منذ رأيت هذه البنت الليلة وأنا لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها .  
فى هذه اللحظة رأى عبد الحميد تاكسيا مقبلا . فرفع صوته بكل قوته مناديا :
- تاكسى ، تاكسى .
- وقف التاكسى بالقرب منهم . فهرولوا واستقلوه وانطلق بهم نحو حارة البحرى .

## - ٦ -

بعيدا عن الشرفة . احتل رشاد مكانا استراتيجياً يسمح له برؤية شباك روحية دون أن يثير الانتباه ،  
وأصبح هذا مكانه المفضل يقضى فيه الساعات الطوال متظاهرا بقراءة إحدى الكراسات أو أحد الكتب  
مختلساً النظر من آن لآخر إلى الشباك الذى لم يعد يفتح إلا نادرا . بعد نحو أسبوعين من ولجة شبرد كان جالسا  
فى هذا المكان عندما خرج شريف من غرفته مرتديا ملابس الخروج . لم يلاحظ نظرات رشاد المصوّبه نحو  
نافذة روحية وظنه مندجحا فى المناكرة . قال له :

- ألم تلاحظ التغيير الذى طرأ على عبد الحميد الشاعر؟
- لا ، لم ألاحظ شيئا .
- يبدو أنه أقلع عن الدندنة والجلوس فى الشرفة المقابلة لنافذة روحية .
- هذا شئ ، طبيعى ، فلقد اكتفى ببصقة واحدة ولا يرغب فى المزيد .
- ربنا يهديه ويعقله ويبعد عنا الفضائح .
- آمين يارب .
- ألا تعلم أين ذهب ؟
- لم يخبرنى .
- وأين ذهب مختار؟
- خرج وأنت نائم ، لا بد أنه ذهب إلى حديقة الأندلس .
- سأذهب لشراء ورق وكراسات ، هل تحب أن تأتى معى ؟
- أشعر اليوم بتعب وأفضل الاعتكاف فى البيت .
- وبينا بهم شريف بالخروج قاله رشاد :
- خذ هذين القرشين وأحضر لى معك كشكولا كبيرا للمحاضرات واحتفظ لنفسك بالخمسة مليات  
الباقية .



خرج شريف وأقفل الباب وانبعث من راديو في مكان قريب صوت محمد عبد الوهاب يغنى أغنية « مريت على بيت الحبايب » ، وبينما ينصت رشاد للأغنية سمع جرس الباب فصاح قائلاً :  
- من ؟ من بالباب ؟

لم يسمع رداً قام وفتح الباب ففوجئ برؤية رجل تذكر أنه رآه ذات مرة من خلال نافذة روحية .  
قال :

- من حضرتك ؟

- أنا جاركم ، هل تسمح لي بالدخول ؟ أريد التحدث معك في أمر هام .  
لا بد أنه والد روحية ، ولكن ماذا يريد مني ؟ هل جاء ليؤنّبني على النظر إلى روحية عندما تفتح النافذة ؟ اللهم اجعله خيراً .

- حضرتك والد ....

قبل أن يكمل جملته قال الرجل :

- أجل ، أنا والد روحية .

بذل رشاد أقصى ما يمكنه من ترحيب قائلاً :

- أهلاً وسهلاً ، أهلاً وسهلاً ، تفضل

دخل الرجل . إنه في نحو الخمسين طويل أحمر الوجه ذو شارب كث معتنى به يرتدى بدلة زرقاء أنيقة جلس على طرف الكنبه البلدى التي في السهو وأطرق للأرض ملتزماً الصمت بجهدا ذهنه في كيفية بدء الحديث وصياغته في أقل عدد من الكلمات .

قال رشاد وقد اشتاق لمعرفة سبب قدوم الضيف :

- خطوة عزيزة ، أهلاً وسهلاً .

- أهلاً بك يا ابني .

- قهوة حضرتك ...

قاطعه الضيف قائلاً :

- لا يا ابني ، لا داعي للقهوة فلن أمكث طويلاً . جئت للاستفسار عن بعض الأمور وسأقوم على الفور .

- خبير .

- خبير إن شاء الله . أعلم أن مدرسا يسكن معكم هنا اسمه عبد الحميد غريب .

- أجل ، هل حدث له مكروه ؟

- لا يا ابني ، لا قدر الله . رأيت من نافذة منزلي عندما خرج من بيتكم ونجّيل إلى أنه لم يرجع حتى الآن ، أليس كذلك ؟

- لا ، لم يرجع بعد .

بعد فترة صمت قصيرة قال والد روحية وعيناه متجهتان نحو أرض الغرفة .

- الأستاذ عبد الحميد تحدث معي بشأن روحية؟  
قال رشاد بدهشة :
- هل حضر الأستاذ عبد الحميد لزيارتكم في بيتكم وطلب يد روحية؟  
- أجل ، ألم يذكر لكم شيئا عن هذا الموضوع؟  
- لا ، لم يذكر شيئا .
- الأستاذ عبد الحميد يقول إنه مدرس ويتقاضى مرتبا كبيرا ، وروحية عزيزة على ، وهى ابنتى الوحيدة ، ولا نعرف شيئا عن الأستاذ عبد الحميد . يقول إنه من عائلة كبيرة .  
ضحك رشاد ضحكة مكتومة ولكنه حاول أن تكون واضحة . قال والد روحية :
- علام تضحك يابنى ؟ إنها مسألة على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لنا وأكون شاكرا لك فضلك لو زودتني بكل ما تعلمه عن الأستاذ عبد الحميد .  
- كان مدرّسا .  
- كان مدرسا ؟ وماذا يعمل الآن ؟  
- لا يعمل شيئا ، فهو عاطل .  
بدت الدهشة المزوجة بالألم فى ملامح وجه الضيف وقال :
- عاطل ؟ وكيف يعيش ؟  
- يعيش معنا .  
- هل يمت بصلة القرابة لأحد منكم ؟  
- لا يمت بصلة لأى منا ولا نعرف له أقارب ، ولكن زميلنا مختار يعطف عليه لأنه كان معلمه فى يوم من الأيام .
- وبأية صفة يعيش معكم ؟  
- رجل مسكين يعطف عليه وتؤويه بالمجان ، وفى مقابل ذلك يؤدى لنا بعض الخدمات ، يطبخ وينظف المتزل ويحضر لنا الطلبات من الخارج .  
- أى أنه يعيش معكم كخادم .  
- ليس بالضبط ، إنه نوع من التعاون .  
- وكان يريد الزواج من روحية لتخدمكم هى أيضا .  
صاح رشاد قائلا :
- لا ، هذا غير معقول ، إنه غير قادر على الزواج ولا أدرى كيف تجرأ وزاركم ليطلب يد روحية ،  
وعلاوة على ذلك ...
- وهل يوجد ما هو علاوة على ذلك ؟  
- أجل ، إنه فى الخمسين وروحية يجيل إلى أن سنها ...  
- سبع عشرة سنة .

- وحتى لو كان يتقاضى مرتبا ضخما فليس من المعقول وهو في الخمسين أن يتزوج فتاة في السابعة عشرة .  
قال والد روحية وهو يستعد للقيام :  
- شكرا لك يابني على هذه المعلومات ، وأرجو أن تخبره أن بصرف النظر عن هذا الموضوع ، عن  
إذتك .

وقف استعدادا للخروج فقال رشاد :  
- سعادتك لم تسترح من السلم ولم تشرب قهوتنا .  
- أشكرك ، السلام عليكم .  
انتهت أغنية « مريت على بيت الحباب » المنبئة من راديو أحد الجيران وبدأت أغنية « أذكريني » لأم  
كلثوم . قام رشاد ودخل غرفته . شعر بالباب يُفتح ويفلق ، فصاح قائلا :

- من الذى دخل ؟ .

- أنا شريف .

- لقد عدت سريعا .

تناول رشاد الكراسية التى طلب من شريف شراءها ، ثم قال شريف :

- ألم يرجع مختار وعبد الحميد حتى الآن ؟ .

- لا ، لم يرجعا ، ولكن شخصا آخر زارنا .

- شخص آخر ؟ من ؟ .

- شخص لا يُحظر على بالك .

فُتح الباب ودخل مختار وعبد الحميد . قال رشاد بسخرية :

- حمد الله على السلامة ، أين كنتما ؟ أين كنت يا مختار ؟ .

- كنت أينما كنت ، وما شأنك أنت ؟ .

ثم التفت إلى عبد الحميد وقال مبتسما :

- وأنت يا عبد الحميد ، أين كنت ؟ .

أوحت لهجة رشاد لعبد الحميد بخوف يشبه ذلك الذى يشعر به شخص بالقرب من قبلة على وشك  
الانفجار ، قال :

- هل من المفروض أن أقدم لك تقريرا عن خط سيرى ؟ هل هو تحقيق ؟ .

قال مختار :

- وجدته سائرا كاللذبول بالقرب من البيت فأحضرته معى .

قال رشاد وكأنه يجد لذة فى إطالة فترة الغموض القاتل كما يلعب القط بالفأر قبل أن يفتسه :

- لا بد أنه كان ينظم قصيدة ، أسمعا القصيدة الجديدة يا عبد الحميد أسمعا .

قال عبد الحميد غاضبا :

- ماذا تقصد ؟ هل تسخر منى ؟ .

- قال شريف :
- قلتَ إن زائرا جاء ونحن في الخارج ؟.
- قال رشاد ناظرا لعبد الحميد بطرف عينه :
- أجل . زارنا شخص عزيز جدا . لم يخرج إلا منذ دقائق .
- قال عبد الحميد بلهفة :
- من هو؟ رجل أم سيدة ؟.
- قال رشاد :
- في هذه المرة ، رجل .
- قال مختار وقد نفذ صبره :
- من هو؟.
- شخص لا يخطر على بال أحد منكم .
- قال عبد الحميد وقد بدأ يشعر بالاطمئنان :
- لا يبني ما دام رجلا .
- قال رشاد ناظرا إلى عبد الحميد تلك النظرة غير المريحة :
- لا ، إنه يهلك جدا .
- قال عبد الحميد بانفعال :
- من هو؟ تكلم . فقأت مرارتي
- قال رشاد وكأنه يلوك كل كلمة في فمه :
- حماك العزيز .
- انهار عبد الحميد . كان هو الوحيد الذي ظل واقفا طوال هذه المدة فأسرع بالجلوس على أحد الكراسي مغمضا :

- حماي ؟.
- قال مختار بدهشة :
- من هو حماك هذا يا عبد الحميد؟ هل لك حما ونحن لانعرف ؟.
- بدأ شريف يفقد أعصابه فصاح قائلا :
- هل تقصد تعذيبنا ؟ إذا لم نخبرنا بلا لفت ولا دوران فلا تريد أن نعرف .
- قال رشاد يهدوه استفزازي :
- قلت لكم إنه الحما المنتظر ، والد روحية .
- انتفض عبد الحميد واقفا وقال بصوت ضعيف :
- والد روحية جاء هنا ؟.
- وخرج قبل أن يشرب القهوة .

- قال شريف :
- قهوة ؟ وهل عندنا بن ؟
- قال عبد الحميد بصوت مرتعش :
- ولماذا جاء ؟.
- قال رشاد :
- عبد الحميد ياجاعة ذهب إلى بيت روحية وقابل أباهما وخطبها منه .
- شعر عبد الحميد كأن كل كلمة من كلمات رشاد رصاصة اخترقت جسده ، ودهش شريف ومختار لهذه المفاجأة العجيبة . قال شريف :
- هل هذا صحيح يا عبد الحميد ؟.
- قال عبد الحميد وهو مطرق للأرض :
- أجل ، صحيح . وهل ارتكبتُ عملا فاضحا لا يبيح الله ؟ أليس لي الحق في الزواج مثل جميع خلق الله ؟.
- قال شريف :
- وكيف تعمل هذه العملة السوداء دون أن تأخذ رأينا ؟ هل جنت ؟.
- قال عبد الحميد وما زال مطرقا للأرض :
- وهل جاء أبوها لزيارتي ؟.
- قال رشاد :
- لا ، جاء لزيارتي أنا ، ويبدو أنه لم يثنى إلا بعد أن تأكد من عدم وجودك في البيت .
- ولماذا يزورك أنت ؟.
- ليستفسر عنك ، أليس من واجب الأب أن يعرف كل شيء عن عريس ابنته ؟.
- شعر عبد الحميد بيأس مدمر وحزن عميق وخجل شديد لم يشعر بمثله في حياته ، وبذل مجهودا ليقول :
- وماذا قلت له عنى ؟.
- قلت الحقيقة .
- انتاب عبد الحميد دوار خفيف ولكنه تمالك نفسه وقال بصوت خافت :
- قلت له الحقيقة ؟ ماذا قلت ؟ تكلم ، ماذا قلت له يارشاد ؟.
- قلت له إنك كنت مدرسا ؟.
- قال عبد الحميد وكأنه يحدث نفسه :
- كنت مدرسا ؟
- أليست هذه هي الحقيقة ؟.
- أجل ، هي الحقيقة ، وماذا قلت أيضا ؟.
- قلت إنك عاطل ولا تمتلك مليا واحدا .

- وماذا قال ؟ .
- طلب مني إبلاغك أن تنسى هذا الموضوع
- أشكرك . فمت بالواجب .
- ثم أردف قائلاً بصوت متهدج :
- لم يعد لي بقاء هنا . سأخذ حصيرتي وأترك هذا المكان . الأرزاق على الله . لا أحد يموت من الجوع . الكلاب الضالة في الشوارع تحصل على رزقها . لا تموت من الجوع . كل جرمي أنني ظننت نفسي إنساناً كباقي البشر شكراً لك يا رشاد أشكركم جميعاً .
- انسحب منكس الرأس دامع العينين ودخل إحدى الحجرات لإحضار حصيرته . شعر مختار بضغط الدم في رأسه ، قال لرشاد :
- ولماذا قلت هذا الكلام لوالد روحية ؟ .
- وماذا كنت تريدني أن أقول ؟ هل من المعقول أن أغش الرجل وأجعله يزوج ابنته من شخص عاطل لا أمل فيه ؟ .
- قال مختار غاضباً وقد علا صوته :
- عبد الحميد أفضل منك ألف مرة . إنه أرق وأنبيل إنسان رأيته في حياتي . لا تنس أن هذا الشخص الذي لا يمتلك ملياً كما تقول ، أهداك قطعة القماش ، وقبلت أن تأخذها منه وأنت تعلم شدة حاجته إليها .
- وأنتم أيضاً قبلتم دعوته للعشاء في شبرد ، أمرك عجيب يا أخي ، وما دخل هذا في الموضوع ؟ هل أغش الرجل من أجل قطعة قماش ؟ .
- خرج عبد الحميد من الغرفة حاملاً حصيرته على كتفه بعد أن طواها . مسح بكم سترته دموعاً انسابت من عينيه متجهاً نحو باب الشقة قائلاً بصوت مرتجف :
- السلام عليكم .
- صاح مختار في فزع :
- إلى أين أنت ذاهب يا عبد الحميد ؟
- أذهب أينما أذهب . الدنيا واسعة . لا أحد يموت من الجوع .
- تشبث مختار بيد عبد الحميد محاولاً منعه من الخروج قائلاً :
- اعقل يا عبد الحميد ، اركن هذه الحصيرة وتعال ، أريد التحدث معك .
- انتزع عبد الحميد يده من مختار قائلاً :
- لا . لا بقاء لي هنا . أشكركم .
- قال رشاد :
- وإلى أين تذهب ؟
- الدنيا واسعة .

- قال مختار محاولاً ثنى عبد الحميد عن عزمه :  
- أظنني يا عبد الحميد . تعال معي ، تعال  
حاول مختار جذبته مرّة أخرى . ولكن عبد الحميد صاح قائلاً :  
- من المستحيل أن أبقي بعد الآن . أنا شخص فقير مسكين ولكنني ذو كرامة . أنا إنسان ذو شعور  
وإحساس . اتركوني وشأني .  
اندفع بقوة خارج الشقة حاملاً حصيرته ماسحاً دموعه وصفق الباب خلفه . أسرع مختار إليه وهو يهبط  
السلم محاولاً إرجاعه إلى الشقة ، ولكن عبد الحميد أصرّ على مغادرتها . وكادت تنشب بينهما معركة فاضطر  
مختار إلى تركه خوفاً عليه من الاتجار .  
دخل مختار الشقة شاحب الوجه وصاح قائلاً لرشاد :  
- استرحت الآن يا رشاد وارتاح ضميرك . رجل فنان ، شاعر حساس مثل عبد الحميد هل كان من  
اللائق أن تكلمه بهذه القسوة ؟  
- وبأية طريقة كنت تريدني أن أكلمه ؟ والد روحية طلب مني أن أبلغه رسالة فبلغتها ، هل في هذا  
ما يعاب عليّ ؟  
- لم يكن هناك ما يدعوك لذكر ما قلته لوالد روحية . أنا أعرف عبد الحميد جيداً ، إنها نزوة كانت  
ستنتهي من تلقاء نفسها .  
- وهل أسأتُ إليه ؟ أنا لم أقل ما يدعوك لكل هذا الغضب .  
- وماذا كنت تريد أن تقول أكثر مما قلت ؟ إنه إنسان شديد الحساسية ، أقل شيء يجرح مشاعره .  
قال رشاد باستهزاء :  
- يجرح مشاعره ؟ كلام فارغ . وأين سيذهب ، إنه سيرجع كالكلب ، لن يجد مكاناً يؤويه غير هذا  
المكان .  
بلغ غضب مختار ذروته وود لو يطيح برشاد من النافذة وصاح قائلاً :  
- لا يارشاد ، لن يرجع لأنه ليس كلباً كما تقول . أنت غبي لا تعرف عبد الحميد .  
قال شريف :  
- ربنا لن يغفر لك هذا يارشاد .  
صاح رشاد قائلاً :  
- كفى ، أنا غير مستعد لسماع كلام في هذا الموضوع ، فليذهب في ستين داهية ، هل هو طفل  
صغير ؟

## - ٧ -

سار في الشوارع على غير هدى حاملا حصيرته على كتفه وكأنه يحمل جميع هموم البشر ، منكس الرأس ينعير ساقيه بصعوبة ، وحنأؤه المتقرب النمل يحك في الأرض .  
الدنيا ليل . « في الليل لما خلى » أجمل ما كتب أحمد شوقي لمحمد عبد الوهاب . أنغامها ترن في أذني ترى ماذا ستقول روحية عندما تعلم أنني غادرت المكان ؟ إنها لن تشعر بغيابي كما لم تشعر بوجودي . ربما تشعر براحة لغيابي . أين أذهب الآن ؟ لا بد أن روحية احتقرتني سأحكك الله يارشاد . ليتني احتفظت بالثغود التي كانت معي لتتفنى في هذا اليوم الأسود . كل النوافذ مضببة . لكل الناس بيوت . كنت أتمنى أن يكون لي بيت . ترى أين أفضي هذه الليلة والليالي التالية . أفرش حصيرتي في مكان مظلم وأنام . لا أظن أنني سيغمض لي جفن . والطعام . كيف أحصل عليه ؟ كيف يعيش الإنسان الذي لا يجد قرشا واحدا في جيبه ؟ يموت أو يتسول . أنا لا يمكنني أن أمد يدي . أذهب لعبد الرازق باشا فقد يعطف عليّ . لا . لن أذهب إليه . لا أريد أن يحقرني هو أيضا . إنه يحترمني ويقول عني أنني شاعر عظيم . أكتب له قصيدة أخرى . لا . قد يبرح مشاعري ويحجلني . كل البيوت فيها ناس . لكل إنسان مكان ينام فيه . هذا الرجل مقرط البدانة ، سيتعب الناس في حمله عندما يموت . وما شأنى أنا بهم ؟ فليتبخوا . كل ما في الحياة عبث مادامت تنتهي بالموت . الموت هو المساواة الوحيدة في الحياة هاهو ذا مكان لا بأس به ، أفرش حصيرتي هنا وأنام وربنا يفرجها في الصباح .  
ماكاد يضطجع فوق حصيرته بلا غطاء وقد وضع يده تحت رأسه واليد الثانية تحبى عينيه حتى سمع صوتا متحسرجا يصيح قائلا :

.. أنت يا أحنينا النائم .

انتفض عبد الحميد مذعورا ونظر فوجد مصدر الصوت عسكري نحيل تبدو في جسده ووجهه آثار سوء التغذية والإرهاق ، لا يعرف الإنسان أيها أتعس من الآخر ، قال عبد الحميد :

.. هل حضرتك تكلمني يا شاويش ؟ .

.. طبعا أكلمك أنت ، وهل يوجد غيرك ؟ لماذا أنت نائم هنا ، قم ونم في بيتك .

.. هأنذا نائم في بيتي ا .

.. نائم في بيتك ا؟ مامعنى هذا ؟ .

.. معناه أنني انتقلت اليوم إلى هذا البيت .

.. هنا على الرصيف ؟ .

.. أجل ، الطيب نصحى بالنوم في أهواء الطلق .

.. ماهى مهنتك ؟

.. فكر فترة قصيرة ثم قال .

.. مهنتى شاعر .



قال العسكري بسخرية :

- شاعر؟ قم معى إلى قسم البوليس لنعمل لك محضر تشرذ . كل المصائب التى فى البلد سببها الشعراء أمثالك .

- أنا أذهب إلى قسم البوليس ؟ لماذا ؟ هل أنا لص ؟ أنا شاعر .

- قلت لك قم . أين رباتك ؟

- ليست لى رباة ، لى حصيرة

- شىء جميل ، شاعر بحصيرة .

ثم أردف قائلا وقد رفع صوته :

- هيا انجر قدامى ياقليل الأدب . منذ يومين ، شاعر مثلك سرق ذكانا فى هذا المكان . قم . هل تكلمنى وأنت ناظم ؟

انحنى العسكري وجذب عبد الحميد من ذراعه بقوة فشرع بألم شديد بسبب الروماتيزم الذى أصاب كتفه فنذت منه أنه ضعيفة وقال :

- حرام عليك ، خلعت ذراعى .

سارا معا نحو قسم البوليس الذى لايعرف عبد الحميد مكانه . وكان كل مايشغل باله فى هذه اللحظات خوفه من أن تراه روحية فى هذا الموقف المخزى .

لا ، لن تراهى ، إنها الآن تنعم بالنوم . ترى ما شكلها وهى نائمة ؟ لابد أنها جميلة أيضا فى نومها . قال له ضابط البوليس :

- اسمك ؟

- عبد الحميد غريب .

- مهنتك ؟

- شاعر .

نظر إليه الضابط بدهشة وقال :

- تقول إن مهنتك شاعر ؟

- نعم ، شاعر ، أنظم الشعر .

قال الضابط ساخرا :

- تنظم الشعر؟ وهل هذه مهنة ؟ ومن أين سرقت هذه الحصيرة ؟

- لم أسرقها ، إنها حصيرتى .

وضع عبد الحميد يده فى الجيب الداخلى لسترته وأخرج حزمة من الأوراق أخذ يفتش فيها حتى عثر على ورقة سلمها للضابط قائلا :

- تفضل اقرأ ، هاهو نموذج من أشعارى منشور فى جريدة « السياسة » .

قال الضابط باستخفاف :

- أرنى ياسيدى .  
ذهل عندما قرأ الأشعار وقال :  
- غير معقول . هل أنت الأستاذ عبد الحميد غريب الشاعر المعروف ؟  
- أجل .  
- ولماذا ترتدى هذه الملابس غير اللائقة ، هل أنت متنكر ؟  
- لا ، لست متنكرا ، أنا هكذا بصفة مستديمة .  
- وما سبب نومك على الرصيف ؟  
- أحب تغيير مكان نومى من آن لآخر .  
- يبدو أن للشعراء العاقرة أمثالك تصرفات غريبة لانستطيع فهمها ، تفضل اجلس يا استاذ عبد الحميد . هذه فرصة سعيدة لى ، فظالما تمنيت رؤياك ، أنا من المعجبين بك .  
قال عبد الحميد وقد ترقرت الدموع فى عينيه :  
- شكرا ياحضرة الضابط . هذه أول مرة أدخل فيها قسماً للبوليس .  
ثم أردف قائلاً بصوت متهدج :  
- هل من الممكن أن تتصور ياحضرة الضابط أن فى جيوبى أكثر من ألقى بيت من الشعر من أجمل أشعارى ولا أجد بيتا أنام فيه ١٩ .  
دهش الضابط ولم يدر ماذا يفعل . مال على أذن عبد الحميد وهمس قائلاً :  
- هل تلمك فلوس يا أستاذ عبد الحميد ؟  
- كانت معى ، أقصد معى فلوس كثيرة .  
- إذا كنت محتاجا لأية نقود فأنا على أتم استعداد .  
- شكرا لك ياحضرة الضابط ، هل يمكننى أن أنصرف ؟  
- كيا تريد .  
- أشكرك . السلام عليكم .  
خرج عبد الحميد من القسم حاملا حصيرته والعسكري الذى قبض عليه ينظر إليه مدهوشا . لم يشأ أن يعود إلى المكان الذى كان نائما فيه فظل سائرا يبحث عن مكان جديد مناسب . بدت الشوارع مليئة بالكلاب .  
غريبة ، كيف تعيش كل هذه الكلاب المنطلقة فى الشوارع ؟ لابد أنها تجيد ما تأكله ، فلماذا لا أجد أنا طعاما ؟  
لاذ بركن مظلم فى إحدى الحوارى . فرش حصيرته ونام نوما متقطعا مليئا بالكوابيس . صحا فى الفجر شاعرا ببرد شديد ولم يستطع النوم بعد ذلك . وجد ثلاث قطط يشاركونه النوم على الحصيرة عند قدميه فتركها بلا إزعاج وظل منبطحا على ظهره ناظرا للسماء ، ثم قام وركن ظهره على الجدار ومد

ساقية . أخذ يتحسس جيوبه ليطمئن على قصائده خوفا من أن تكون قد سرقت منه في أثناء نومه . فوجدهما كما هي في الحفظ والصون .

بدأت الحركة تدب في المدينة وترامت إلى أذنيه أصوات سير بعض السيارات وعربات الترام والأوتوبيسات والعربات الكارو . طوى حصيرته ووضعها جنب الجدار وقام وأصلح هندامه وسار على غير هدى . مر على دكان للقول والطعمية . كان صاحب الدكان منهمكا في قلى الطعمية التي نفذت رائحتها إلى خياشيم عبد الحميد فسأل لعابه وشعر بجوع شديد لم يستطع مقاومته . وقف أمام الدكان يلاحظ الرجل وهو يصنع الطعمية . طلب نصف رغيف وثلاث طعميات . أجابه الرجل إلى طلبه فوقف يلتمهم الطعام ببطء شديد ولم يشعر بلذته فلقد كان طوال هذه المدة يفكر في كيفية دفع ثمنه فجميع جيوبه خالية من كل أنواع العملة . انتهى من الأكل وظل واقفا ناظرا إلى صاحب الدكان دون أن ينطق . قال له صاحب الدكان .

- هل انتهيت من الأكل أم تريد المزيد؟

- الحمد لله شبعت ، ولكن المشكلة هي عدم وجود فلوس معي  
قال صاحب الدكان بفزع :

- لا فلوس معك ؟!

خطرت لعبد الحميد فكرة اعتقد أن فيها خلاصه ، فقال :

- ولكن معي ما هو أثن من الفلوس .

- ما هو ياترى ؟!

- قصيدة شعر من سبعة وستين بيتا .

وضع يده في جيبه وأخرج القصيدة وناولها لصاحب الدكان قائلا .

- هذه هذه القصيدة ثمننا لشطيرة الطعمية . إنها أجمل قصيدة كتبها في حياتي .

نظر إليه صاحب الدكان باشمئزاز ولم يمد يده ليأخذ القصيدة وقال ساخرا :

- قصيدة ؟! قصيدة ماذا يا أستاذ ؟ اخرج النكلة من جيبيك . الشطيرة ثمنها مليون وأنا لا أتعامل بالقصائد .

- قصيدة من سبعة وستين بيتا من أجود الشعر لاتساوى في نظرك نكلة ؟

قال صاحب الدكان بصبر نافذ :

- يافتاح يا علم يارزاق يا كرم ، اخرج النكلة من جيبيك وإلا جعلته يوما كالزفت على دماغك .

- لا يوجد معي سوى أشعار .

صاح البائع قائلا :

- اذهب في ستين داهية ، إياك أن ترينى خلقتك مرة أخرى .

كان الصمت سائدا في معمل علم النبات وقد انهمك بعض الطلبة في رسم قطاع في ساق أحد النباتات والبعض الآخر مازال يحاول عمل قطاع رقيق بالموسى في النبات لرسمه من خلال عدسات الميكروسكوب ، والمعيد ، بعد أن اطمأن على نبيلة ، يسير بين صفوف الطلبة ناظرا من آن لآخر في أحد الميكروسكوبات ليرى ما إذا كان القطاع الذى صنعه الطالب رقيقا شفافا أم سميكاً لا يصلح للفحص .  
همس مختار في أذن رشاد قائلا :

- انظر يا رشاد لترى بنفسك مايعمله سعيد عزت .

- ماذا يعمل ؟

- هل ترى مرآة الخلاقة الموضوعه على عيني الميكروسكوب ؟.

لقد رأيت عمله يعمل الشيء نفسه في معمل الكيمياء في العام الماضى ، ألم أقل لكم ذلك ؟ إنه بهذه الطريقة يمكنه رؤية نبيلة دون أن تشعر هى ولا يشعر أحد في المعمل .

- مسكين . آه لو يعرف .

- يعرف ماذا ؟.

- شىء لو عرفه سيقع مغمى عليه .

- ماهو هذا الشىء ؟.

- حدث شىء غريب جدا يا أخى ، حسين صالح يذكر مع نبيلة في بيتها !.

- كنى افتراء على الناس ، هل من المعقول أن تسمح نبيلة لأى طالب بالمذاكرة معها في البيت ؟.

- حسين صالح اعترف لى بذلك .

- حسين هو الذى قال لك ذلك ؟

- أجل ، منذ شهرين وهو يذهب للمذاكرة معها في بيتها ، وتعشى عندهم يوم الأثنين الماضى .

- وتعشى عندهم أيضا ؟ لاتصدق هذا الكلام ..

- أقسم بالله العظيم أن هذا حدث ، تعشى عندهم كرنبا محشوا . اتضح أن المسألة لاتقتصر على تبادل

الكراسات ، المسألة فيها مذاكرة وفيها عشاء وفيها كرب محشو .

- وهل وصل هذا الخبر لسعيد عزت ؟.

- لا ، لم يصله خبر هذه المصيبة حتى الآن .

- يخيل إلى أنك ستسرع بنقل الخبر إليه لتستمع برؤيته وهو يتعذب .

- أريد أن أرى تأثير الخبر عليه عندما يسمعه . سيقع مغمى عليه أنه يعتقد أن نبيلة من الملائكة . ينظ اليها

وكانها فوق ، عند القمر .

- على أية حال اعتقد أن نبيلة لم ترتكب جريمة ، أنت تعلم أنها حريصة على تفوقها ، وحسين صالح

من الطلبة الممتازين وترغب في الاستفادة منه ، هذا كل ما فى الأمر .

- أنا لا أدري لماذا تنبرى دائما للدفاع عنها وكأنك محاميها الخاص  
- اسمع يا رشاد - كل إنسان يرى الدنيا من خلال أفكاره . فإذا كانت أفكاره قدرة يخيل إليه أن  
كل الدنيا قدرة ، وإذا كانت أفكاره نظيفة فإنه يرى الدنيا نظيفة .  
- هنيئا لك بأفكارك النظيفة . أنا لن أذهب للغداء في فترة الظهيرة ، سابق هنا بالكلية لأرى تأثير هذا  
الخبر على سعيد عزت

شعر مختار باشمتراز من رشاد . وعند انتهاء فترة العمل تركه مختار وذهب لتناول غدائه بصحبة  
شريف في مطعم « الوردة البيضاء » واطلق رشاد في الكلية يبحث عن سعيد عزت . وجده كعادته جالسا  
بمفرده في أحد أركان نادى الكلية يقرأ إحدى المحاضرات . جلس رشاد جنبه وقال له مبتسما :

- هل وصلتك آخر الأخبار؟.

- أخبار ماذا ؟

- أخبار نبيلة؟.

خفق قلب سعيد عندما سمع اسم نبيلة وشعر بارتباك وقال :

- ما بها ؟ ما بها نبيلة ؟

- ولماذا احمر وجهك واصفر عندما ذكرت اسم نبيلة؟.

قال سعيد بارتباك :

- ماهذا الكلام الذى تقوله ؟ ما الذى يجعل وجهى يحمر أو يصفر؟.

- قسما بالله العظيم لقد احمر وجهك واصفر فى آن واحد وهذا شيء عجيب لم أر له مثيلا من قبل .

وعلى أية حال مادامت أخبار نبيلة تؤلك فلا داعى لذكر أية أخبار عنها .

قال سعيد وقد ازدادت لهفته لمعرفة تلك الأخبار :

- ماذا كنت تريد أن تقول؟.

- لاشيء ، لا داعى للحديث فى هذا الموضوع .

استبد حب الاستطلاع والقلق بسعيد فقال .

- ماذا كنت تريد أن تقول ؟ تكلم ، ما بها نبيلة ؟

- مادمت مصمما على سماع الخبر ، أقوله وأمرى لله .

- تكلم .

- لا فائدة من الكلام لأن ماستسمعه لا يصدقه العقل .

صاح سعيد قائلا وقد نفذ صبره :

- ماذا تريد أن تقول ؟

- هل من الممكن أن تصور أن حسين صالح يذهب للمناكرة مع نبيلة فى بيتها؟.

قال سعيد وقد أسرعت دقات قلبه؟.

- وكيف عرفت ذلك يا شريك هولمز؟.

- المسألة لانتحاج لشرلوك هولمز . أو غيره ، حسين صالح هو الذى اعترف لى بذلك .  
شعر سعيد بجزن عميق بذل مجهودا كبيرا لإخفائه وقال :  
- لانتصدق هذا الكلام ، أى طالب لايجرؤ على مجرد التحدث معها ، فهل من المعقول أن تسمح  
لحسين أو غيره بالذاكرة معها فى بيتها؟ .  
- ما رأيك لو جعلتلك تسمع منه ذلك بنفسك؟ المسألة بسيطة .  
قال سعيد محاولا أن يبدو هادئا :  
- هذا الكلام غير معقول ، لايمكن أن يصدقه أحد .  
- هيا معى نذهب لحسين .  
قال سعيد وفى أعماقه رغبة قوية لمعرفة الحقيقة وقد بدأ يشعر بأن كل شىء جائر :  
- وأين نجد حسينا؟ .  
- لايد أنه الآن فى ملعب كرة السلة يمزّن الطالبات ، فهو شخص (سبور) يعجبك .  
سارا معا نحو ملعب كرة السلة .

هذا غير معقول ، جميع تصرفاتها تثبت كذب هذا الادعاء ، فلقد انسحبت بهدوء عندما لاحظت  
أن أحد الطلبة يستعد لالتقاط صورة تذكارية لطلبة السنة الرابعة حتى لانتظر معهم فى الصورة ، وعندما  
طلب منها عبد المجيد استعارة كراس الكيمياء لاستكمال محاضراته قالت له دون أن تنظر إليه إنها لم تحسن  
كتابة المحاضرة وتركته غارقا فى حجله وعرقه ومضت فى سبيلها . وتجلس فى المدرج أو المعمل بعيدة عن  
الطلبة لاتنطق بكلمة ولا تلتفت يمينا أو يسارا ، ولكن من يدرى ، كل شىء محتمل . كل ما أتمناه أن  
ينكر حسين ما قاله رشاد حتى ولو كان صحيحا . لن أحتمل سماعه من حسين . لايد أن أبدو هادئا . لا  
أحب أن يكتشف أحد حقيقة مشاعرى نحو نبيلة . لو عرف أحد عاطفتى نحوها فن المستحيل بعد ذلك  
أن أرى وجهى لأى مخلوق .

كان حسين مرتديا بدلته كاملة فى حين أن الطالبات اللواتى يدرهن يرتدين ملابس الألباب  
القصيرة . صاح رشاد قائلا :  
- يا حسين .

لم يكن حسين يجب أن يراقبه أحد من الطلبة فى أثناء تدريبه للطالبات . نظر فرأى رشادا وسعيدا  
فقال متظاهرا بانشغاله بالتدريب :

- ماذا تريد يا رشاد؟ .  
- أريد التحدث معك دقيقة واحدة .  
أقبل عليها مسرعا وكأنه يوحى لها بأنه مشغول ولا وقت لديه للحديث ، قال :  
- خيرا ، ماذا تريد يا رشاد؟ .  
- ألم تقل لى إنك تذهب للمذاكرة مع نبيلة فى بيتها؟ .  
قال بدون اكتراث :

- أجل ، أذهب للمذاكرة معها . هل تهمك هذه المسألة لهذا الحد ؟  
- المسألة لاتهمني ، ولكن يبدو أنها تهم أناسا آخرين .  
- مثل من ؟ .  
- مثل سعيد عزت  
انفجر سعيد صائحا بانفعال :  
- من قال إن هذا يهمني ؟ مالى أنا ومال نبيلة ؟ هى حرّة تذاكر مع من تريد المذاكرة معه  
أسرع سعيد الخطى مبتعدا عن الملعب محاولا إخفاء دموع طفرت من عينيه صاح رشاد قائلا :  
- تعال ، إلى أين أنت ذاهب ؟ .  
- إلى المعمل ، أنسيت أن موعد عملي النبات قد حان ؟  
في دقائق كان خبر مذاكرة نبيلة مع حسين في بيتها قد انتشر بين جميع طلبة السنة الرابعة وأنه  
تعشى عندها كرنبا محشوا . كانت نبيلة خالية الذهن ، وكعادتها جلست في المعمل بعيدة عن الطلبة  
وفتحت أمامها كراسة النبات العملي في انتظار حضور المعيد . صاح رشاد قائلا :  
- اسمع يا حسين ، الكرنب من أى عائلة من عائلات النبات ؟  
نظر حسين نحو الأرض واحمر وجهه ولم ينطق . صاح أحد الطلبة قائلا :  
- لا بد أن الكرنب من عائلة راقية .  
قال طالب آخر :  
- هل ستدرس الكرنب في هذه الحصة ؟ .  
قال آخر :  
- لا ، سوف نحشوه .  
قال آخر .  
- نحشوه مرّة أخرى ؟ لقد أكلناه من يومين .  
غمغم حسين قائلا :  
- قلة أدب .  
كان المعمل يضح بالضحك الذى توقف فجأة عندما دخل المعيد . لاحظ أن وجه نبيلة شاحب  
عابس بشكل ملفت للنظر فقال لها :  
- ما بك يا نبيلة ؟ أمریضة أنت ؟ .  
قالت بصوت مختنق بالبكاء :  
- أشعر بتعب ولن أتمكن من حضور حصّة العمل اليوم . هل تسمح لى بالخروج ؟ .  
قال المعيد وقد بدت الدهشة من نظراته :  
- تفضلى .  
خرجت نبيلة فخم الصمت على المعمل . همس رشاد لمختار قائلا :

- هاهى ذى قد غضبت . مؤكّد ستخرب بيت حسين .  
لم يستطع سعيدا استيعاب كلمة واحدة من شرح المعيد وفكر فى الخروج ولكنه رفض هذه الفكرة حتى لايفصح عن عاطفته ويخيل إليه أن قلبه لن يتسع لكىة الحزن التى ملأته . استقلت نبيلة سيارتها وانطلقت بها نحو منزلها .

ماذا يقصدون بمحديهم عن الكرب ؟ الكرب من عائلة راقية ! حقيقة لقد تعشى حسين عندنا كرنبا محشوا . ولكن كيف عرفوا ؟ لابد أنه هو الذى قال للطلبة . هل هذا معقول ؟! هل يقول للطلبة مثل هذه الأشياء ؟ وما غرضه من ذلك ؟ لم أكن أتصور أن يطلع الطلبة على مثل هذه الأمور ، هل يتباهى بذلك أم يريد تشويه صورتي ويقلل من احترامهم لى ماذا يظن نفسه ؟ هل بلغت المهزلة الحد الذى أصبح فيه أضحوكة أمام الطلبة ؟ أنا نبيلة ابنة عبد العزيز باشا سرى أصبح مادة لسخرية الطلبة الذين لم يكن يجرو أحد منهم على التحدث معى ؟ لقد أخطأت عندما سمحت لحسين هذا أن يدخل بيتى . ماذا يظن وماذا يظنون ؟ كل ما فى الأمر أنه يحسن كتابة المحاضرات وكنت أرغب فى الاستفادة منه . كان من الممكن أن أعتد على نفسى ولا أحتاج لملته . ماذا يظن ؟.

أدخلت سيارتها فى الجراج واخترق حديقة فيلتها ، فرأت أباها عادل الطالب بكلية الهندسة فى أحد أركانها يجتسى فنجانا من الشاى . عند اجتيازها الهو متجهة نحو السلم الخشبي المؤدى إلى الدور العلوى رأت صورة أبيها الذى توفى منذ عامين . خيل إليها أن الإبتسامة التى كانت على شفقي والدها اختفت صعدت السلم ودخلت غرفتها وألقت بحقيبتها وكراساتها فوق منضدة وجلست على الكرسي المجاور للأباجورة وطفرت من عينيها الدموع فأخرجت مندبلا من حقيبتها ومسحتها .

فزع أخوها الأصغر سامى عندما أطل من باب غرفتها ورآها تبكى ، قال بلهفة :

- ما بك يانبيلة ؟ لماذا تبكين ؟.

- اتركى وحدى ، لا أريد أن أكلم أحدا .

هرع سامى إلى والدته وأخبرها أن نبيلة تبكى فى غرفتها ، ثم هبط إلى الحديقة وأخبر أخاه عادل .  
أسرعت إليها أمها وسألها بلهفة :

- لماذا تبكين يا نبيلة ؟ ما بك يا حبيبتى ؟.

انفجرت نبيلة باكية بصوت مسموع فأخذت أمها تربت على كتفها محاولة تهدئتها قائلة :

- ماذا حدث يا حبيبتى ؟.

دخلت الغرفة عادل وسامى ووقفا جنب أمها ناظرين إلى نبيلة فى صمت . ثم قال عادل الذى يكبر نبيلة بعامين :

- هل حدث ما أغضبك يانبيلة ؟.

قالت :

- لن أذهب إلى الجامعة بعد اليوم .

قال عادل :



- ماذا حدث في الجامعة ؟  
- حسين صالح الذي كنت أذاكر معه . نشر الخبر في الكلية .  
قالت والدتها :
- وهل في مذاكرته معك ما يدعو للخجل ؟.  
- لم أكن أحب أن يتسرب هذا الخبر إلى الكلية . هؤلاء الناس أفكارهم حقيرة . لن يصدق أحد أنني سمحت له بالمذاكرة معي لأستفيد منه وأكمل محاضراتي . ليس بمستبعد أن يظن بعضهم أنني معجبة بخلقته .
- قال عادل :
- هذا موضوع تافه لا يستحق كل هذا الحزن .  
قالت الأم :
- لانعيرهم أيّ اهتمام : أنت لم ترتكبي أيّ خطأ .  
قالت نبيلة :
- لا بد أنه قال للطلبة كلاما فارغا . ليس بمستبعد أن يكون قد ادعى أنه خطيبي أو بينه وبينى علاقة .
- قالت الأم :
- هذا غير معقول ، هل يجروّ شخص كهذا على الادعاء بأنه خطيب ابنة المرحوم عبد العزيز باشا سرّي ؟.
- قال عادل :
- طبعا غير معقول ، ستهبين غدا إلى الكلية مرفوعة الرأس وكان لم يحدث أي شيء .  
قالت الأم :
- هل يسبب لك هذا الموضوع التافه كل هذا الحزن والانفعال ؟ قومي اغسلي وجهك ولا تفكري في هذا الكلام الفارغ .  
قالت نبيلة :
- حاضر .  
في هذه اللحظة دخلت الخادمة وقالت :
- ستي نبيلة .  
- ماذا تريدين يا بنيتي ؟.  
- واحد افندي بالباب اسمه سعيد عزت يريد مقابلة حضرتك : يقول إنه زميلك في الكلية .  
غمغمت نبيلة قائلة بدهشة :
- سعيد عزت ؟! إني لم أكلمه ولم يكلمني منذ دخولي الكلية . وماذا يريد مني هذا أيضا ؟ ربما أتى ليذاكر معي ، المسألة أصبحت فوضى .

قالت الأم :

- انزلى ياخيته قولى له إن نبيلة غير موجودة

قالت نبيلة فى تحدُّ غاضب :

- لا . ادخليه الصالون . سألقنه درساً لن ينساه طوال حياته .

- ٩ -

دخل سعيد الصالون شاحب الوجه يتعثّر فى خطاه من فرط الحُجل وجلس على أول كرسي صادفه . فى خلال خمس دقائق نظر فى ساعته تسع مرات . كانت عيناه مصويتين نحو باب الغرفة منتظرا دخول نبيلة . ظل قلبه يزداد مع مرور الزمن الذى خيل إليه أنه توقف . أرهق ذهنه فى التفكير فى كيفية بدء الحديث وأخذ يغير ويبدل فى الألفاظ التى سينطق بها فى تلك اللحظة العصبية عندما يلتقى بها ويتحدث معها لأول مرّة فى حياته بعد مضى نحو أربع سنوات من الصمت والنظر إليها خلسة عن طريق المرآة . بعد أن أضناه الانتظار الذى بدأ له وكأنه بلا نهاية دخلت نبيلة الغرفة ، فوقف بحركة لا إرادية وقد شعر برعشة خفيفة وخيل إليه أنه يسمع دقائق قلبه التى أوشكت أن تصبح فى مثل سرعة دقائق قلب العصفور . انتظر منها أن تجلس ولكنها ظلت واقفة فظل هو أيضا واقفا على الرغم من شعوره بإعياء شديد . لم تمد يدها لتصافحه ، بل نظرت إليه نظرة قاسية وقالت :

- أفندم . هل تلزم خدمة ؟

قال متلعبا :

- أنا الحقيقة ، أنا كنت أريد ..

قاطعته قائلة :

- تريد ماذا ؟

- أنا الحقيقة غير مصدق .

- غير مصدق ماذا ؟

- الحكاية التى سمعتها .

- وماهى هذه الحكاية ؟

أطرق للأرض وقد نضحت قطرات العرق من جبهته وفكّر فى الخروج ، ولكنه استجمع كل ماتبقى من شجاعته وقال :

- هل حقيقة كنت تذاكرين مع حسين صالح هنا فى البيت ؟

- هل جئت للتحقيق معى ؟

- كلا . مطلقا .

- ماذا تريد إذن ؟

- أريد أن أطمئن لأدافع عنك وأنتى هذه الإشاعة الكاذبة .
- لست محتاجة لحام يدافع عنى لأننى لم أرتكب جريمة . لقد حضر حسين إلى منزلى ثلاث مرات لأن كراسة علم الحيوان فقدت منى ، وأنا أعلم أنه يكتب كل كلمة ينطق بها الأستاذ . ولما أخذت كراسته لأنقل المحاضرات المفقودة لم أستطع قراءة خطه فسمحت له بالمجيء ليعاوننى على فك رموز كلماته . وانتهت من كتابة المحاضرات والحمد لله ولم أعد فى حاجة إليه أو لأمثاله . هل تحب أن تعرف أى شىء آخر أنت أو غيرك؟
- كلا ، الحمد لله .
- لاحظت شحوب وجهه ورعشة فى يده فقالت :
- تفضل اجلس .
- انهار جسده فوق الكرسي وجلست هى على الكرسي المقابل لكرسيه وقالت :
- تقول الحمد لله على ماذا؟
- أحمد الله على أنك انتهيت من هذه المسألة ولم تعودى فى حاجة إليه ، على أية حال أنا أيضا أكتب المحاضرات بدقة ولا تفوتنى أية كلمة ينطق بها الأستاذ وعلى استعداد لإعطائك كل ماتطلبينه من كراسات أو أكتبهم لك بنفسى لو أردت .
- قالت بسخرية مشوية بالغضب .
- متشكرة جدا ، لاداعى لذلك ، لا أحب أن أتعب أحدا .
- قال بلهفة تدل على الصدق :
- لكننى أحب وأتمنى أن أتعب من أجلك .
- بصبر نافذ قالت :
- هل يوجد شىء آخر تود أن تقوله؟
- قال متلعنا :
- أنا؟ لا ، الحقيقة ، أنا الحقيقة أحبك يانبيلة . أحبك أكثر من نفسى ومستعد للتضحية بنفسى من أجلك . منذ سنوات وأنا كاتم فى صدرى هذا السر لم أبيع به لأى مخلوق إلا فى هذه اللحظة . وأكون أسعد إنسان فى الدنيا لو قبلت طلبى هذا الذى ...
- قاطعته صائحة :
- يابحيته ، ببحيته .
- أسرع ببحيته بالدخول قائلة :
- نعم ياسيدنى؟
- قالت نبيلة مشيرة بطرف إصبعها نحو سعيد :
- خذى هذا الأفندى ودليه على طريق الباب .
- سار سعيد منكس الرأس جنب الخادمة نحو باب البيت وأسرعت نبيلة بصعود السلم مكفهرة الوجهه

دامعة العينين . سألتها أمها بلهفة :

- ما بك يا نبيلة ؟ ماذا حدث ؟

- كما قلت لك ، لم تمض بضع ساعات وهاهوذا واحد منهم يئىء ليخطبني .

- هل وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟

ثم أردفت أمها قائلة :

- لكن افرضي أن جميع شبان البلد جاءوا يطلبون يدك فهل في هذا ما يدعو للحزن ؟ لا تعبري الأمر  
أى اهتمام .

- يا ماما لست معتكفة في البيت في انتظار الخطاب . أنا أتعلم ، والوسط في الكلية لا يسمح بهذا .  
في صباح اليوم التالي ، اقتنحت نبيلة مدخل الكلية بسيارتها بسرعة غير عادية ، كان حسين يسير في  
هذا المر الضيق وكادت تدمه السيارة فقفز نحو السور في فزع .

قال مختار لشريف :

- هل تظن أن هذه الحركة مقصودة ؟ لا أعتقد أن نبيلة تقصد إصابته بسيارتها ، ربما تكون أعصابها  
أفلتت منها عندما رآته فاهترت في يدها عجلة القيادة .

- يجوز ، الله أعلم .

ظل حسين صالح نحو أسبوع يحكى هذه الواقعة لكل من يراه ، حتى بائع الشطائر الذى عند باب  
الكلية حكاها له وهو يقضم شطيرة الكبد التى اشتراها منه بخمسة مليات ، قائلا إن نبيلة تحاول قتله  
والبائع لا يعرف من هى نبيلة هذه ، وفرح رشاد زهدى بالقطيعة التى حدثت بين حسين ونبيلة ، فهو  
يفرح لأى سوء تفاهم يحدث بين اثنين حتى ولو لم يكن في ذلك أية فائدة تعود عليه .

في حصة علم الحيوان العملى قال مختار لشريف :

- ألم تلاحظ أن سعيد عزت متغيب عن الكلية منذ أسبوع ؟

- لا بد أن عدرا قهرها منعه ، من الحضور ، فهو لم يتغيب عن الدراسة يوما واحدا منذ التحاقه  
بالكلية .

- أنا قلق من أجله وأريد الاطمئنان عليه ، وكان قد استعار منى كراسه محاضرات علم الحيوان وأنا في  
حاجة إلى الكراسه .

- زره في منزله ، اطمئن عليه وخذ منه كراستك .

- لا أعرف عنوانه .

- نخذ العنوان من إدارة الكلية ، أنا أعلم أن مسكنه في مصر الجديدة .

- مصر الجديدة ؟! كنت أعتقد أنه يسكن بالقرب من الكلية . أذهب إليه في مصر الجديدة وأمرى

لله .

في صباح اليوم التالي ، وكان يوم الجمعة ، استقل مختار الأتوبيس من ميدان المحطة متجها نحو مصر  
الجديدة لزيارة سعيد عزت . كان مسكنه في شارع اسكندر الأكبر . لم يكن لمختار أية خبرة بهذه الضاحية

ولم يكن قد زارها من قبل سوى مرتين . وصل إلى منزل سعيد بصعوبة واكتشف أنه فيلاً فاخرة من طابقين تحيط بها حديقة واسعة معني بها وفوجئ بوجود لافتة معدنية بجوار الباب تحمل اسم « محمود بك عزت » ضغط على جرس الباب ، وبعد نحو دقيقة فتح الباب وأطل منه خادم يرتدى جلباباً أبيض نظيفاً ، سأله مختار :

- هل هذا منزل سعيد عزت الطالب بكلية العلوم ؟.

- نعم .

- هل هو موجود ؟.

- نعم ، تفضل .

انهر مختار بالأثاث الفاخر المتناثر في الهو والتحف الثينة التي تزين المكان . قاده الخادم إلى غرفة صالون لم ير مختار مثيلاً لها إلا في الأفلام السينمائية . جلس على أحد الكراسي في انتظار صديقه سعيد .

ما هذه الروعة والفضامة ؟ لم أكن أتصور أن سعيد يعيش في دنيا غير الدنيا التي نعيش فيها . فرق شاسع بين الحياة هنا والحياة في حارة البحري . المعيشة هنا تطيل العمر . يا بختك ياسعيد ، أنت حقيقة سعيد ، لم أكن أعلم أن أباه يحمل رتبة البكوية ، لا بد أنه رجل محترم جداً . العجيب أن سعيداً لا يبدو عليه أى أثر من آثار النعمة ، إنه شديد التواضع سريع التحجل . يبدو أن القصة التي سمعتها عنه حقيقية مع أنني لم أصدقها عندما سمعتها ، لم أصدق أنه يحضر إلى الكلية في سيارة فاخرة يهبط منها قبل وصوله إلى الكلية بمسافة طويلة حتى لا يعرف الطلبة أنه يأتي في سيارة . السيارة الضخمة التي رأيتها أمام منزلهم لا بد أنها سيارتهم .

سمع مختار وقع أقدام فظن أن القادم صديقه سعيد ، ولكنه فوجئ بدخول رجل مهيب الطلعة يرتدى ملابس غاية في الأناقة فوقف له مختار احتراماً .

قال الرجل لمختار وهو يصفحه :

- أهلاً وسهلاً .

شعر مختار بجدل شديد وقال :

- أهلاً بسعادتك ، أنا زميل سعيد في الكلية جئت أطمئن عليه لأنه انقطع عن الكلية منذ نحو أسبوع .

قال والد سعيد وفي صوته نبرة حزن :

- سعيد مريض يا ابني ، مريض جداً .

- لا بأس عليه ، ممّ يشكو ؟.

- من حوالي أسبوع دخل البيت في حالة نفسية سيئة جداً . كان جسده يرتعش والدموع في عينيه واتجه مباشرة نحو غرفته ونام في الفراش ، ومنذ تلك اللحظة وحالته النفسية في تدهور مطرد ، زاره حتى الآن أربعة أطباء ولم يعرف أحد منهم حقيقة مرضه . هل جرح مشاعره أو أهانه أحد في الكلية .

- لا أعتقد أن أحداً أهانه أو جرح مشاعره في الكلية .

- هل من المعقول أن يكون هذا المرض بسبب مذاكرة حسين مع نبيلة في بيتها؟ أهذه الدرجة يجب هذه الطالبة في صمت؟.
- سعيد ابني حساس للغاية . أقل شيء يؤلمه ، وهو يحافظ على مشاعر جميع الناس لم يجرح في حياته شعور أى إنسان . هل أهانه أحد الأساتذة؟
- كل الأساتذة يحبونه ، فهو مهذب ومجتهد ، هل شكنا لكم من أى شيء؟.
- لا يريد أن يصارحني أو يصارح والدته ولكنى متأكد من أن شخصا ما أهانه وجرح شعوره . أمس في الفترة القصيرة التي نام فيها . كان يهذى بكلمات غريبة فهمت منها أن شخصا أهانه إهانة بالغة .
- هل من الممكن أن أراه؟.
- بكل تأكيد ، تفضل ، إنه في غرفته . حاول يا ابني أن تعرف منه ما لم نستطع نحن أن نعرفه ، فقد يكون أكثر صراحة معك . سأترككما وحدكما .
- فزع مختار عندما رأى سعيدا ممددا على السرير وقد شحب وجهه وغارت عيناه ، غير حليق اللحية . بدأ وكأنه شخص آخر . نظر إلى مختار بعينين مبتلتين دون أن يحرك رأسه . قال مختار محاولا الابتسام :
- ما بك يا سعيد؟ سلامتك . جئت لأطمئن عليك عندما انقطعت عن الحضور إلى الكلية .
- قال سعيد بصوت ضعيف وكأنه قادم من غرفة أخرى :
- أشكرك يا مختار .
- ماذا حدث؟.
- قال سعيد متلعثما :
- أنا .. أنا .. أنا أستحق .
- تستحق ماذا؟.
- استحق ماجرى لى . كان سوء تصرف منى ، لكننى لم أكن انتظر تلك المعاملة السيئة . لم أكن أتصور أن تهيننى في بيتها .
- بدت كلمات سعيد لمختار وكأنها ألغاز عسيرة الحل . قال :
- علام تتكلم؟ من هى أهانتك في بيتها؟.
- قال سعيد بعد أن بلع ريقه عدة مرات :
- نبيلة .
- كانت مفاجأة مذهلة لمختار . قال بدهشة :
- نبيلة ١٤ وما الذى دفعك للذهاب إلى بيتها؟.
- ازدادت دهشة مختار عندما قال سعيد :
- ذهبت لأخطبها ا .
- ظل مختار ناظرا إلى سعيد فترة فاغرا فه لايدرى ماذا يقول ، ثم قال :
- ذهبت لتخطب نبيلة؟.

قال سعيد متحاشيا النظر إلى مختار :

- أجل ، خفت أن يسبقني حسين ويخطبها لنفسه بعد مسألة المذاكرة معها . لكن أرجوك يا مختار ألا تخبر أى إنسان بذلك . أنت الشخص الوحيد الذى ائتمته على هذا السر . والذى والدنى لا يعرفان شيئا عنه . إذا علمت أن أى إنسان عرف هذا الموضوع فسأقتل نفسى .  
- كن مطمئنا كل الاملتتان . تأكد أن الموضوع سيبقى سرا بيننا . ولكن ماذا حدث عندما زرتها ، هل فاتحتها فى الموضوع ؟.

قص سعيد على مختار الحديث الذى دار بينها منذ دخولها غرفة الصالون حتى خروجه من بيتها دون أن ينسى كلمة واحدة وكأنه يدبر شريط جهاز تسجيل . ظل مختار طوال الحديث مطرقا للأرض صامتا :  
ثم قال :

- لم أكن أتصور أنك تحبها لهذه الدرجة .  
- لا يمكننى الحياة بدونها . كانت أملى فى الحياة . لم يعد عندى أمل فى أى شيء . لم يخطر ببالي أنها سترفض طلبى ، ماذا تظن نفسها ؟ هل تظن أنها أعلى منى قدرا لأن أباهما كان باشا ووكيل وزارة ؟ من الممكن أن يصبح والدى وزيرا .

قال مختار وهو يحتسى الشاي ويمضغ قطعة الكمك الذى أحضره الخادم :  
- ليست المسألة كما تتصور ، يخيل إليّ يا سعيد أنك تسرعت فى ذلك الطلب ولم تخت الوقت المناسب . أنت تعرف أنها خرجت من الكلية فى ذلك اليوم متألة أشد الألم وأعصابها مرهقة ، ألم تر كيف كان وجهها وهى تغادر المعمل ؟.  
- كنت أظن أن زيارتي لها فى هذا الوقت بالذات قد تساعد على تهدئة أعصابها . كنت حزينا من أجلها ، متألما لحزنها .

- على العكس ، إنك بذهابك إلى بيتها فى هذا الوقت بالذات ومفاتحتها فى موضوع الحب والزواج نكأت جرحها وألهمت أعصابها المتوترة .  
- هذا هو سبب حزنى . لم أكن أحب أن أكون سببا فى حزنها . أنا لا أحتمل رؤيتها وهى تعانى من أى حزن أو ضيق .

- كان من الأنسب أن تنتظر حتى ينتهى الامتحان وتطلب من والدتك أن تذهب لزيارتهم والتعرف بهم بدلا من تسرعك وذهابك بمفردك فى ذلك اليوم .  
- لم أستطع التفكير بهذه الطريقة ، وجدت نفسى مدفوعا للذهاب إلى بيتها وكأننى منوم تنويمًا مغناطيسيا .

- على أية حال أنا لا أجد فى الموضوع ما يستحق كل هذا الحزن العميق الذى ترزح تحت وطأته ، وأود أن أقول لك شيئا ، الشخص الذى لا يبادل لك الحب والإعزاز لا يستحق منك أى اهتمام .  
- إنه شيء خارج عن إرادتى لاسيطرة لى عليه . إننى أحبها غصبا عنى .  
- اسمع يا سعيد ، المستقبل مازال أمامك مزدهرا مليئا بالمفاجآت السارة التى لا يمكن التنبؤ بها ،

وسوف ترى العديد من البنات ، والذي خلق نبيلة خلق كثيرين غيرها . لقد مرتت أنا نفسى بهذه التجربة ، كنت أعتقد أن نبيلة هى أجمل بنت فى الدنيا ، ولكنى بعد فترة قصيرة رأيت ماجعلنى أغير اعتقادى هذا . أنت لاتدرى ماذا سيحدث غدا .  
- عيناى لاترى سواها ، شىء لا يد لي فيه .

وأردف قائلا وقد دمعت عيناه :

- أنا لم أسئ إليها لتعاملنى هذه المعاملة القاسية . ليتنى ميتٌ ولم أسمع منها هذه الكلمات ، أنا خجلان من نفسى . لا يمكننى تصور إمكان ذهابى إلى الكلية ورؤيتها لى . أريد الابتعاد بعيدا ، بعيدا جدا ، بعيدا عنها ، بعيدا عن كل الناس ، هذه الدنيا التى نعيش فيها دنيا بشعة ، دنيا ملعونة ، الناس فيها يعذب بعضهم بعضا .

- اطرد هذه الأفكار السوء من دماغك . أنت لم ترتكب جريمة . لاتهم بها ولا بغيرها . اعتبرها غير موجودة .

- لابد أنها أصبحت تحترقنى . أنا شديد الحساسية بدرجة غير معقولة ويهمنى جدا رأى الناس فى وشعورهم نحوى .

- لا توجد بنت فى العالم تحقر شابا مجرد أنه تقدم لخطبتها ، ولكن من الممكن أن تحقره لو فشل فى دراسته أو لعب فى أخلاقه أو سلوكه ، ولو ركزت كل اهتمامك فى دراستك ونجحت بفوق وتمكنت من الوصول إلى مركز مرموق فسوف تنتزع احترام جميع الناس ، وأوهم نبيلة . اسمع ، مارأيك لو نذهب معا الليلة إلى السينما ؟

- أنت يا مختار لايمكنك أن تتصور مقدار تعبى وإرهاقى ، أنا لم يعد فى استطاعتى السير بضع خطوات . لم أتناول طعاما منذ يومين ، ولا أناام سوى ساعة أو ساعتين على الأكثر . إن مجرد الكلام يتعبنى .

- على أية حال أنا لا أريد أن أسبب لك أى تعب وأتمنى أن أراك فى الكلية قريبا فى أحسن صحة .  
- أشكرك يا مختار على هذه الزيارة .

لست أدرى ، هل أطلب منه كراسة علم الحيوان ؟ أخشى أن يظن أننى لم أحضر إلا لهذا الغرض ، ولكن لا بد من أخذ الكراسة فأنا محتاج إليها .

- على فكرة ، هل من الممكن أن آخذ معى كراسة علم الحيوان التى استعرتها منى ؟  
- بلا شك ، تجدها هناك على هذا المكتب .

أخذ مختار كراسته وصافح سعيدا وخرج من الغرفة . وجد والد سعيد جالسا مطرقا للأرض فى بهو المنزل ، وما أن رأى مختارا حتى ابتدره قائلا :

- ألم تستطع معرفة الشىء الذى سبب له كل هذا الألم ؟

- يبدو أن شيئا حدث ، ولكنه لم يشأ أن ييوح به على الرغم من المجهود الذى بذلته لانتزاع هذا السر منه .



قال الأب وقد شعر بجزن وخيبة أمل :

- كنت أظن أنني سأعرف شيئاً . لست أدري ماذا أفعل .

- يخيل إليّ أنه سيجتاز هذه الأزمة بسلام .

قال الأب بصوت حزين :

- ربنا يشفيه .

وقف مختار عند محطة الأوتوبيس الموصل إلى ميدان المحطة . بدا وكأن الخط قد ألغى على الرغم من وجود لافتة المحطة ورقم الأوتوبيس ، فلقد مضى نحو ريع ساعة دون وصول أوتوبيس واحد . ترى إلى متى أظل واقفا منتظرا الأوتوبيس ؟ شيء مقرف . الحمد لله ، هاهوذا قد وصل ، ولكنه مزدحم كالعادة ، لا داعي لركوبه ، انتظر الأوتوبيس التالي ، لا ، يوجد مكان خال بالدرجة الأولى . عندما دخل من باب الأوتوبيس وكل انتباهه موجه نحو الكرسي الشاغر وهمّ بالجلوس لاحظ شيئاً هز كيانه وأصابه بارتباك شديد . رأى فتاة حديقة الأندلس جالسة في الكرسي المجاور له .

لم أكن أتصور أنني سأراها مرة أخرى في يوم من الأيام وأجلس جنبها . لماذا يدق قلبي الأرعن تلك الدقات السريعة ؟ من المؤكد أن وجهي الآن قد اصفرّ لونه . ترى هل تتذكرني ؟ ليس من المعقول أن تتذكرني بعد ذلك اللقاء الخاطف الذي لم يدم أكثر من دقيقة واحدة . ولكن لماذا أتذكرها أنا ولم أنسها لحظة واحدة ؟ شيء عجيب أن يلتقي الإنسان بفتاة لا يعرفها مرة واحدة في حياته ويؤثر فيه هذا اللقاء العابر كل هذا التأثير فتحتمل خياله في البقطة والمنام . لقد حدث مثل ذلك لدانتي عندما رأى بياتريس ، لم يرها سوى مرة واحدة وظل يحبها طوال حياته ، وحدث لروميو وجوليت ، لكن جوليت أحببت روميو ، وهذه الفتاة لا أعتقد أنها تتذكرني ، إنني بالنسبة لها مجرد صورة مرّت في حياتها مع ملايين البشر ثم تلاشت كما يحدث عندما ينطفئ ضوء الجهاز الذي يعرض فيلماً سينمائياً على الشاشة

في هذه اللحظة وصل كمسارى الأوتوبيس مرددا كلمة :

- تذاكر . تذاكر .

لن أتركها هذه المرة دون أن أعرف عنها كل شيء . لن أترك هذه الفرصة تفلت مني كما حدث في المرة السابقة .

وقف الكمسارى بجوار مختار موجها إليه الكلام :

- تذاكر ، تذاكر يا أستاذ .

انتبه مختار وكأنه وكأنه صحاح من حلم . أخرج من جيبه عشرة قروش عملة فضية وقال متلعثماً :

- أجل . اعطني تذكرة .

- إلى أين أنت ذاهب يا أستاذ ؟

- أنا ذاهب إلى .. إلى ..

- نصف المسافة أم مسافة كاملة ؟

- حتى نهاية الخط .

تسلم مختار التذكرة وبقى القروش العشرة .

لا بد في هذه المرة أن أتبعها لأعرف بيتها لا بد أن أعرف كل شيء عنها . لن أترك الأوتوبيس إلا عندما تهبط منه . سعيد عزت مسكين . إني أعذره وأرثي لحاله . حقيقةً يوجد شيء اسمه الحب لا يستطيع الإنسان له رداً إنه كالقضاء والقدر . ترى هل تذكرني ؟ لا يبدو أنها تذكرني . هأنذا بجوارها لا يفصلني عنها سوى خمسة سنتيمترات ، ولكنها في الوقت ذاته بعيدة عني وكأن بيننا ملايين الأميال ، أبعد من الشمس والقمر . هل أكلمها ؟ هذا غير معقول ، فأنا لم أعتد التحدث مع بنت لا أعرفها ، قد توجه لي كلمة احتقار فيحدث لي مثل ماحدث لسعيد عزت ، لا ، لن أكلمها . ولكن ماذا يحدث لو كلمتها ؟ لا ، لا داعي لذلك ، أنا حتى الآن لا أعرف بالضبط ماذا أريد منها ، كل ما أعرفه هو أنني أحبها ، أحبها أكثر من حب سعيد لنييلة . إنها أجمل بكثير من نييلة . هذا هو الجمال الذي يعجبني .  
توقف الأوتوبيس وانطلق صوت الكمساري ينق قائلًا :

- العربة تعطلت ولن تتحرك .

ارتفعت أصوات متداخلة تقول في غضب :

- ماهذا الكلام الفارغ ؟ .

- هذه فوضى .

- ماذا نفعل الآن ونحن في منتصف الطريق ؟ .

- هذا استهتار بالناس .

صاح الكمساري قائلًا :

- قلت لكم إن العربة لن تتحرك ، انزلوا واركبوا عربة أخرى .

أخذ الركاب يهبطون من الأوتوبيس مغمغمين بكلمات غاضبة .

ماهذا الحظ التمس ؟ عندما أتاحت لي الفرصة لأجلس جنبها يتعطل الأوتوبيس ؟ ليس من المعقول

أن تسنح مثل هذه الفرصة مرة أخرى .

وبينما تدور في ذهنه هذه الأفكار غير المريحة سمعها تنادى قائلة :

- تاكسي ، تاكسي .

توقف التاكسي واستقلته وانطلق بها مبتعدا عن مختار الذي وقف يائساً يشيح التاكسي حتى غاب عن

بصره وكأنه يشيح ميتا .

انتهى كل شيء ، غابت عني وضاعت مني في الزحام مرة أخرى ، مثل النسيم لو مرّ وراح .

- ١٠ -

عندما دخل مختار البيت كان شريف جالسا في البهو يقرأ في كراسة علم الحيوان ورشاد في المطبخ يعمل لنفسه فنجانا من الشاي . قال شريف لمختار :

- لماذا تأخرت كل هذا التأخير؟.
- لم يجب مختار عن هذا السؤال وبدأ مكتئبا مرهقا مشغول الفكر . قال شريف :
- ما بك ؟ هل حدث ما كدرك؟.
- كدري ؟ لا ، لم يحدث شيء .
- فم إذن هذا التفكير العميق؟.
- أفكر في أشياء كثيرة .
- مثل ماذا؟.
- سعيد عزت مريض ، أنا حزين من أجله .
- كيف ؟
- في هذه الفترة القصيرة أصبح وكأنه إنسان آخر . لم أعرفه عندما رأيته .
- ما مرضه ؟
- .. أعصابه مرهقة إلى أقصى حد وحالته النفسية في الحضيض .
- وما سبب هذا المرض المفاجئ؟.
- لست أدري .
- تقول إنك تفكر في أشياء كثيرة ، هذا شيء ، فما هي الأشياء الأخرى؟.
- شيء يشغل بالي ، دائم التفكير فيه .
- ماهو؟.
- مشكلة الوجود والعدم .
- كان هذا آخر ما يتوقع شريف سماعه . قال بسخرية :
- مشكلة الوجود والعدم ؟ هل هذه هي المشكلة التي تشغل بالك؟.
- أجل ، تشغل بالي جدا . هذا الوجود كله ، كيف جاء من العدم؟.
- اسمع يا مختار ، أنصحك ألا تفكر في هذه الأمور حتى لا تفقد عقلك .
- لا يمكنني التوقف عن التفكير فيها . صورتها أمامي في كل لحظة .
- قال شريف بدهشة :
- علام تتكلم؟.
- إنها تشغل تفكيري بشكل عجيب . أجد نفسي أفكر فيها غضبا عني .
- قال شريف وقد ازدادت دهشته :

- في مشكلة الوجود والعدم ؟!

قال مختار متلعنا :

- مشكلة الوجود ؟ أجل . مشكلة الوجود والعدم .

- يوجد شيء غير هذا يشغل بالك .

- قلت لك إنني أفكر في أشياء كثيرة .

- مثل ماذا ؟

- الحب . هل تعرف أن الحب شيء عجيب ؟ إنسان يرى إنسانة فيصبح دائم التفكير فيها ولا يمكنه

الحياة بدونها .

التقطت أذنا رشاد هذه الكلمات الأخيرة وهو قادم من المطبخ حاملا فنجان الشاي . جلس على حافة

الكنية البلدي متربعا وقال بسخرية :

- علام تتكلمون ؟

قال شريف مبتسما :

- مختار يتحدث عن الحب .

ضحك رشاد وقال :

- الحب ؟! لا وجود لشيء اسمه الحب .

قال مختار بدهشة :

- لا يوجد شيء اسمه الحب ؟ كيف ؟

رشف رشاد رشفة طويلة من فنجان الشاي وقال :

- أنا شخصا لو رأيت بنتا وأعجبتني ، تجتاحني رغبة في التعرف بها ، ولكنني لا أفكر إطلاقا في أن

أحبها .

قال مختار :

- الحب لا علاقة له بالتفكير . لو دخل عنصر التفكير في الحب لما أصبح حبا . الحب في رأيي

كالقضاء والقدر ، شيء يحدث للإنسان رغم أنفه .

قال رشاد :

- كلام فارغ ، أنا مثلا ، إذا انهزت بجمال بنت من البنات فإنني أحاول بكل الطرق أن أفضي معها

أوقاتا سعيدة ، ولا تهجنى فتاة بالذات ، إذ من الممكن أن تحل محلها أية بنت أخرى ، مثلا ، تلك

البنت التي رأيتها في حديقة الأندلس وأصبحت دائم التفكير فيها وتحلم بها في اليقظة والنام ، لو كنت أنا

الذي رأيتها وأعجبتني لتعرفت بها على الفور وصاحبها وسعدنا معا دون أن تحظر فكرة الزواج على بالي .

أنا يا ابني عندما أرى وردة جميلة ، لا أظل أدور حولها وأتزلزل في راحتها الزكية ، لا وقت لدى لمثل هذا

الكلام الفارغ ، إنني أقطف الوردة وأشمها حتى أشبع منها وأعملها مربي وألثمها . المهم عندي الطعم .

وليس المنظر .

قال شريف باشمئزاز :

- أعوذ بالله ، إذا كان هذا هو تفكيرك فلا ينبغي أن أصافحك أو ألمس يدك ضحك رشاد  
ضحكة مجلجلة ثم قال ساخرا :

- لماذا ؟ هل سأنقض وضوءك ؟ أنا لا أعرف نَظْم الأشعار ولا أحب الشعر . أنا مثلا ، لو كنت في  
مكان عبد الحميد الشاعر وأعجبتني روحية لكنك منذ زمن بعيد أخرج وأتترّه معها ، فلا أسهر الليالي  
أنظم فيها قصائد الغزل ، ثم أتهور وأذهب لخطبتها من أبيها وأنا مُفلس لا أملك سوى حصيرة بالية  
وأتشرد بسبها في الشوارع .

قال مختار وكأنه لم يسمع من حديث رشاد سوى كلمة «عبد الحميد» .

- أنا ضميري غير مرتاح ، لا بد أن أبحث عن عبد الحميد حتى أعرّ عليه بأية وسيلة .

قال رشاد ساخرا :

- وأين ستعثر عليه ؟ لا بد أنه هبط على ناس آخرين ليعيش معهم بجناح كما كان يعيش بيننا .

قال مختار بانفعال :

- عبد الحميد شخص عزيز على ولا ينبغي أن نتركه ولانسأل عنه . ولا أسمح لأحد أن يتكلم عنه  
بهذا الشكل .

- لا تسمح لأحد ؟ ماذا تظن نفسك ؟.

قال مختار :

- أنا لا أفهم لماذا تحمل لعبد الحميد كل هذا العداة ؟ هل آذاك ؟.

قال شريف :

- بل كساه . هذه البدلة التي على جسده هدية منه . هدية من شخص لم يكن يملك غيرها .

قال رشاد :

- ألن تكفّا عن إذلالى بسبب قطعة القماش هذه ؟ هل سرقتها منه ؟ أليس هو الذى صمم على  
إهدائها لى ، يبدو أنكما كنتما ترغبان فى الحصول عليها . من يريد أن يأخذها منكما فليأخذها .

قال شريف :

- لا أحد منا يطمع فيها ، اشبع بها أنت . نحن لانقبل هدايا من إنسان محتاج .

قال رشاد :

- وهل هى هدية ؟ إنها أجر طعامه وشرايه ومسكنه . هل كان يدفع لنا شيئا ؟.

قال مختار محتندا :

- أنت شخص حقير ، أحقر إنسان رأيته فى حياتى .

- هل وصلت المسألة إلى هذا الحد ؟ أنت الحقير وستين حقير .

قال شريف محاولا تهدئة الموقف :

- كفى يا جماعة ، لا داعى لهذا الكلام .

قال رشاد ومازال متفعلا :

- ألم تسمع مايقوله ؟ يقول إنني حقير .
- لاداعي لكل هذا كفى الله الشر حقا على . هيا نذاكر وكفى تضييعا للوقت .
- ثم أردف قائلا لرشاد محاولا تغيير مجرى الحديث :
- هل ستحضر محاضرة الدكتور محمد ولي غدا يارشاد ؟.
- محاضرة عن ماذا ؟.
- محاضرة عامة عن تكاثر الأسماك .

قال رشاد :

- لا أرغب في حضور مثل هذه المحاضرات ، سأذهب إلى السينما .
- أية سينما ؟.
- سينما حديقة الأزبكية . وستكون معي بنت حلوة .
- كانت هذه أول مرة يعترف فيها رشاد بذهابه إلى السينما بصحبة إحدى البنات ، فقال شريف بدهشة :

- غير معقول . من هي هذه البنت ؟.

- ولماذا تريد أن تعرفها ؟ إنها بنت تعرفت بها . هل تظنني مثل عبد الحميد أو مختار أسهر أعد  
النجوم وأنظم الأشعار وعندما أرى البنت التي تعجبني يعقد لساني فلا أنطق ؟ أنا على السينما فورا .

صاح مختار من غرفته قائلا :

- كفى ثرثرة . إلى متى تثرثران ؟.

قال رشاد .

- أمره عجيب هذا الإنسان ، هل يظن نفسه ولي أمرنا ؟.

صاح شريف قائلا لمختار :

- تعال يا مختار اسمع مايقوله رشاد ، يقول إنه سيذهب إلى السينما بصحبة بنت تعرف بها .

قال مختار :

- يذهب في ستين داهية .

في شرفة نادي الكلية المصنوع من الخشب على الطراز الأوربي والمطل على رهوة تتناثر فوقها الأشجار يطلقون عليها اسم « الجبلية » التي كانت جزءا من حديقة سراي الزعفران ، جلس مختار وشريف وحسين ورشاد في فترة الظهيرة يتناولون بعض الشطائر . كان مختار موليا ظهره نحو الجبلية متجها ببحره نحو شجرة ضخمة على بعد بضعة أمتار بالقرب من معمل الرياضة التطبيقية الذي كان يلقي فيه محاضراته الدكتور على مصطفي مشرفة ، بينما اتجهت أنظار باقي المجموعة نحو الجبلية .

قال شريف موجها حديثه إلى حسين صالح :

- هل تظن أن نبيلة ستشترك معنا في رحلة « برج العرب » ؟.

قال حسين :

- وما المانع ؟ أعتقد أنها ستشارك في الرحلة .

قال مختار :

- لا أعتقد أنها ستسافر معنا في هذه الرحلة فتكون هي الطالبة الوحيدة وتقضى عدة أيام هناك .

قال رشاد :

- أعتقد أنها ستشارك في الرحلة .

قال شريف ساخرا :

- وما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟

قال رشاد :

- قلبى يشعر بذلك ، وقلبي لم يخدعنى أبدا ، أنا الذى لن أحضر معكم الرحلة .

قال شريف :

- منذ أسبوع كنت تنتظر موعد الرحلة بفارغ الصبر .

- غيرت رأى . أفضل تمضية هذا الوقت في المذاكرة .

قال مختار :

- ولكنك تعلم أن الدكتور أوليفر أخبرنا أن امتحان النبات سيتضمن سؤالا عن نباتات تلك المنطقة .

- هذا هو السبب الذى جعلنى أتأكد من اشتراك نبيلة في الرحلة ، فهى تهتم بأى شىء ذى علاقة

بالدراسة والامتحان .

قال حسين :

- وكيف ستجيب عن هذا السؤال يارشاد لو لم تذهب في هذه الرحلة ؟

- سأستعير كراستك وأنقل ماكتبته أنت . أم ترى لا تمنح مذكراتك وكراساتك إلا للناس معينين ؟

قال حسين باشمئزاز :

- ماذا تقصد ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

- أقصد نبيلة .

- انقطعت صلتى بنبيلة ، إنها عندما ترائى الآن تشيح بوجهها عنى ، هل استرحت واستراح

ضميرك ؟

- أهله الدرجة ؟

- أجل ، لهذه الدرجة ، والفضل لك في ذلك ، أنت الذى انبريت لإذاعة خبر ذهابي للمذاكرة معها

في بيتها .

- ألسنت أنت الذى أخبرتني بذلك ؟ أنا لم أختلق الخبر

كان فكر مختار مشغولا بشىء آخر ، قال :

- سعيد عزت مريض جدا ياجماعة .

- قال حسين :
- إنه متغيب عن الكلية منذ فترة طويلة ، ما هو مرضه ؟ .
- قال مختار :
- لا أحد يدري ، لم يستطع الأطباء تشخيصه .
- قال شريف :
- مختار زاره في البيت من حوالى عشرة أيام .
- قال حسين :
- كان على مايرام وفي أحسن صحة ، ماذا جرى له ؟ .
- قال مختار :
- الله أعلم ، لا أحد يعرف ظروفه .
- قال رشاد :
- يستاهل ، لكى يتوب عن إحضار المرأة ووضعها أمامه في المعمل ليرى نبيلة خلصة .
- قال مختار :
- أعتقد أن نبيلة لن تحضر معنا رحلة برج العرب .
- قال رشاد متحديا :
- وأنا أقول إنها ستذهب ، تراهن ؟
- ليس هناك مايدعو للرهان ، ماذا يهمنى لو حضرت أولم تحضر؟ من ياترى سيحضر معنا من الأساتذة ؟ .
- قال حسين :
- سأتق معانا الدكتور منير والدكتور عبد الحليم والدكتور شوقى .
- قال رشاد :
- أنا توقعت وجود الدكتور منير في الرحلة .
- قال حسين :
- ولماذا توقعت ذلك ؟ .
- يوجد استلطاف بينه وبين نبيلة .
- قال شريف بامتعاض .
- الزن تقلع عن التشنيع على الناس ؟ لست أدري من أى نوع من البشر أنت .
- أنا لم أشتع ، أقصد أنه ينوى خطبتها .
- قال حسين :
- وكيف عرفت ذلك ؟ هل أطلعك الدكتور منير على أسراره ؟ .
- ستثبت لكم الأيام صحة كلامى .



- ١١ -

في صباح يوم الرحلة ، عندما انتهى شريف من الحلاقة وارتداء ملابسه ، لم يكن باقيا على قيام  
القطار سوى بضع دقائق ، فانطلق يجرى بصحبة مختار متجهين نحو المحطة التي وصلها وهما بلهتان .  
قال مختار بصوت متقطع وهو يصعد القطار :

- أيرضيك يا شريف أن تجربنا على الجرى طوال هذه المسافة لنلتحق القطار في آخر لحظة ؟.

قال شريف بلا اكتراث :

- المهم أننا لحقناه .

كانت عربة الدرجة الثانية المحجوزة لطلبة هذه الرحلة مقسمة إلى دواوين ، في كل ديوان كئبتان  
مقابلتان تتسع كل منهما لأربعة طلبة . قال مختار لشريف :

- تعال هنا في هذا الديوان مع حسين صالح ، توجد أماكن خالية .

جلسا على الكبة المقابلة لحسين وصفر القطار إيدانا بالتحرك . في هذه اللحظة رأى شريف نبيلة  
تجرى محاولة اللحاق بالقطار قبل تحركه . قال شريف لمختار :

- هاهي ذى نبيلة ، كنت تقول إنها لن تُحضر الرحلة .

صاح حسين قائلا وقد شحب وجهه :

- انظروا ، الدكتور منير مد يده لنبيلة وجذبها لتصعد في القطار .

قال شريف :

- وماذا في هذا ؟ إنه يساعدها على الركوب حتى لا تسقط تحت عجلات القطار .

قال حسين وقد اجتاحتته ثورة غضب :

- لا ، هذا لا يصح . يبدو أن الكلام الذي قاله رشاد صحيح .

قال شريف :

- ماذا قال رشاد ؟.

انفض حسين واقفا وقال :

- لا بد أن هناك استلطافا بينها . سأذهب لأعرف من هم الجالسون معها في الديوان احتفظوا لي

بمكاني حتى أعود .

غادر حسين الديوان وقال لمختار لشريف :

- مسكين سعيد عزت ، كان يتوق للاشتراك معنا في هذه الرحلة .

قال شريف :

- ربنا يشفيه .

- هل تعرف أن سعيدا وحيد أبويه ؟.

- لا إخوة له ولا أخوات ؟.

- لا ، لم يتجبا سواه .  
بدأ القطار يتحرك . قال شريف :  
- وما الذى أرهق أعصاب سعيد فجأة بلا مقدمات ؟  
- يبدو أنه شديد الحساسية ، والناس الحساسون يؤذيهم أقل شيء .  
بغته ، وقف مختار صائحا وقد أشار بيده نحو مكان معين فى مبنى المحطة :  
- انظر ، شيء عجيب  
وانجبه نحو باب عربة القطار محاولا النزول قائلا :  
- سأنزل من القطار .  
أسرع إليه شريف وجذبه بقوة قائلا :  
- اعقل ولا تكن مجنوننا ، هل من المعقول أن تقفز من القطار بعد أن تحرك ، ماذا حدث ؟  
ظل شريف ممسكا بمختار حتى أرجعه إلى مكانه فجلس منهارا وغمغم قائلا :  
- عبد الحميد الشاعر .  
قال شريف بلهفة :  
- ما به ؟  
- رأيت أحد العساكر ممسكا به وقد تجمع حوله عدد من الناس . كان من الواجب أن أنزل من القطار لأعرف ماذا حدث له .  
- هل أنت متأكد من أنه عبد الحميد الشاعر .  
- طبعاً متأكد ، هل أنا تائه عنه ؟  
- ولماذا قبض عليه العسكري ؟  
- هذا ما كنت أربغ فى معرفته . مسكين ، لابد أنه فى محنة ويحتاج لمن يساعده ، كان لابد أن أسرع لمساعدته . إننى أبحث عنه فى كل مكان منذ مدة طويلة .  
- مها حدث فليس من المعقول أن تضحى بالرحلة من أجله .  
- ماذا فعل عبد الحميد ليستحق هذه المهانة ؟ أنا لا أتصور أن يفعل مايتعارض مع القانون .  
- ليس من الممكن أن يكون قد سرق شيئاً ؟  
- أنتفض مختار قائلا :  
- عبد الحميد يسرق ؟ هذا شيء غير معقول .  
- عندما يجوع الإنسان قد يفعل أى شيء .  
- ليس عبد الحميد الشاعر الذى يفعل ذلك ، أنا أعرفه جيداً . إنه يفضل الموت جوعاً على أن تمتد يده ليسرق . لن أستطيع الاستمتاع بهذه الرحلة . سأظل مشغول البال على هذا الرجل حتى ألقاه .  
أطل مختار من نافذة القطار وذا ذكرته الحقول بقرته فشر بجنين لأمسيات الصيف التى كان يقضيها مع أصدقائه عند القطرة التى تعبر التربة عند حافة القرية ، وتذكر عندما كان يتجمع فى طفولته هو

وعدد من أطفال القرية في شهر رمضان قبيل الغروب عند تلك القنطرة منصتين لصوت المدفع الذي يصل إلى آذانهم خافتا من المدينة المجاورة فينطلقون بأقصى سرعتهم معلنين حلول موعد الإفطار ويتجه كل واحد منهم إلى منزله . ثم طاف بذهنه منظر عبد الحميد الشاعر والعسكري قابض على ذراعه . ولاح له وجه الفتاة التي رآها في حديقة الأندلس ورنَّ في أذنه صوتها وهي تقول « كيوييد » وعندما جلس جنبها على مقعد بالأوتوبيس بضع دقائق ، وتذكر سعيد عزت فشرع باكتتاب . قال لشريف :

- أنا متألم لعدم وجود سعيد عزت معنا .
- هل مرضه خطير لهذه الدرجة ؟ .
- لو لم يكن في حالة سيئة لما تخلف عن الرحلة . سأزوره بمجرد عودتي .
- إن شاء الله عند عودتنا يكون قد شفى .
- تذكر مختار أن حسين صالح لم يرجع إلى المكان الذي طلب منهم أن يحتفظوا له به فقال :
- أين ذهب حسين صالح ؟ قال إنه راجع ولم يرجع .
- تجده قابعا في الديوان الذي به نبيلة .
- يخيل إليّ أنه مشغول بالمرور على جميع الطلبة يخبرهم أن الدكتور منير أمسك يد نبيلة عند ركوبها القطار .

ظل مختار ناظرا نحو الأفق يتأمل منظر السماء ، ثم قال وكأنه يكلم نفسه :

- تحيرني هذه المشكلة .
- مشكلة سعيد عزت ؟ .
- لا ، بل مشكلة الوجود والعدم . كل هذا الوجود الذي حولنا كيف نشأ من العدم ؟ .
- نظر شريف إلى مختار بدهشة لا يدرى ماذا يقول . أردف مختار قائلا :
- وتحيرني مسألة أخرى .
- قال شريف بسخرية :
- ماهي ياترى ؟ .
- مسألة اللانهاية ، فكري عاجز عن تصور اللانهاية ، أين نهاية هذا الكون ؟ وكيف يكون بلا نهاية ؟ .

- توجد أشياء كثيرة لاستطيع تصورها . أشياء فوق طاقة الذهن البشرى نصحتك كثيرا يا مختار ألا تفكر في هذه الأمور حتى لا ينفجر مخك .

في هذه اللحظة اندفع حسين إلى الديوان متجههم الوجه . قال له شريف :

- أين كنت ؟ .
- ذهبت أحكي للطلبة على المصيبة التي حدثت .
- قال شريف بدهشة :
- مصيبة ؟ أية مصيبة هذه ؟ .

- تلك المصيبة ، عندما أمسك الدكتور منير يد نبيلة وجلبها وهي تركب القطار .  
قال شريف لمختار ضاحكا :  
- ألم أقل لك ؟ لقد توقعت ذلك .  
وأردف قائلا لحسين :  
- ولكن ماشأنك أنت بهذا يا حسين ؟ .  
قال حسين بامتعاض :  
- أعوذ بالله . ألم تحرك هذه العملة السوداء مشاعرك ؟ يبدو أنك من ذوات الدم البارد . هذه مسألة لا يمكن أن نسمح بها ، سنتكّد على طول الرحلة .  
قال مختار محاولا تغيير مجرى الحديث :  
- ماهذه الصحيفة التي معك ؟ .  
- مجلة « البعكوكة » .  
قال مختار :  
- البعكوكة ؟ أرنيها .  
في أثناء تصفح مختار للمجلة قال حسين :  
- هل تعلم لماذا اشترت البعكوكة ؟ .  
قال مختار وهو مستنر في تصفح المجلة :  
- لا ، لا أعلم ، لماذا اشتريتها ؟ .  
- قبيل تحرك القطار نادى نبيلة بائع الصحف واشترت مجلة انجليزية ، فأسرعت أنا بشراء البعكوكة .  
قال مختار ساخرا :  
- منتهى البطولة .  
قال حسين :  
- متى سنصل إلى برج العرب ؟ .  
قال شريف :  
- انتظر حتى نصل إلى الإسكندرية أولا ، ومن الاسكندرية سنستقل قطارا آخر إلى برج العرب .  
قال الدكتور منير للطلبة عند وصولهم إلى برج العرب :  
- توجد هنا أربع استراحات .  
ثم أشار إلى استراحتين متجاورتين قائلا :  
- هاتان الاستراحتان ستيتون فيهما .  
وأردف مشيرا نحو استراحتين أخريين تبعدان عن الاستراحتين الأوليين نحو كيلو متر قائلا :  
- أما هاتان الاستراحتان فأحدهما مخصصة لنبيلة والأخرى للأساتذة .  
قال حسين مرتبكا :

- وهل ستقبل نبيلة المبيت وحدها في الاستراحة؟ أليس من المحتمل أن تخاف من الظلام؟  
قال الدكتور منير:
- من الممكن أن نترك لها الاستراحة مضاءة طوال الليل .  
قالت نبيلة ناظرة لحسين بعينين مفترستين :
- ومن قال لك إنني أخاف من الظلام؟ أنا لا أخاف من شيء .  
ذهب الجميع إلى الاستراحات . شعر بعض الطلبة بإرهاق فتمددوا فوق الأسرة الضيقة التي تشبه أسرة المستشفيات ، وسار البعض يستطلعون المكان .
- قبيل الغروب صحا مختار من إغفائه وبحث عن شريف فوجده جالسا بمفرده تحت شجرة سنط فجلس جنبه . بعد فترة قصيرة أقبل نحوهما حسين مهرولا مقطب الحاجبين وقال وفي صوته رعشة :
- مصيبة ، حدثت مصيبة ؟  
قال مختار بفرح وقد تصور أن كارثة وقعت :
- مصيبة !؟ أية مصيبة ؟  
قال حسين :
- رأيتهما بعيني ، عيني اللتين سيأكلهما الدود .  
قال مختار وهو نصف نائم :
- عينك سيأكلها الدود؟ كيف؟ أين؟  
قال حسين :
- ما هذا؟ هل كنت نائما؟  
- غفت عيناى إغفائه قصيرة ، ماهى حكاية عينيك والدود؟ هل يوجد دود هنا في الاستراحات؟  
قال حسين منفعلا :
- أقول لك إنني رأيتهما بعيني اللتين سيأكلهما الدود .  
قال مختار :
- رأيت من؟  
- الدكتور منير ونبيلة .  
قال مختار :
- أين رأيتهما؟  
- فوق الصخرة .  
قال مختار وهو يفرك عينيه :
- ماذا حدث فوق الصخرة .  
- الدكتور منير ونبيلة كانا جالسين جنباً لجنب فوق الصخرة يتأملان منظر غروب الشمس .  
قال مختار :

- فعلا ، منظر غروب الشمس منظر جميل .  
قال حسين وقد نفرت عروق رقبته غضباً .  
- منظر جميل ؟ هل تجردت من الإحساس ؟ كانا جالسين يتكلمان معا .  
قال شريف :  
- وما هو الحديث الذى دار بينهما ؟ .  
قال حسين :  
- الله أعلم .  
قال شريف :  
- ومن أدراك أنها كانا يتحدثان ، ربما كانا صامتين .  
- لا ، شفاهها كانتا تتحركان .  
قال شريف :  
- وهل يمكنك رؤية حركة الشفاه من بعيد وقت الغروب ؟  
- أنا نظرى قوى .  
في خلال دقائق قليلة كان الخبر قد انتشر بين جميع الطلبة .  
في مساء اليوم التالى بعد العشاء ذهب شريف ومختار إلى استراحتها استعداداً للنوم في سريرين متجاورين . استلقى مختار وبعض الطلبة على أسرتهم وجلس البعض الآخر على الأسرة يتحدثون . اندفع حسين إلى الاستراحة كالعاصفة وقال وهو يلهث :  
- مصيبة ، مصيبة كبيرة .  
انفص مختار جالسا وقال :  
- مصيبة أخرى ؟ مالك ترتعش هكذا ؟ .  
قال حسين :  
- الدكتور منير .  
- ماله ؟  
- لا يمكن السكوت على هذه الكارثة ، لسنأ هنا طرابطرا .  
قال شريف وقد نفذ صبره :  
- ماذا حدث ؟ تكلم .  
- رأيتها بعينى هاتين اللتين سيأكلها الدود .  
قال مختار منفعلا :  
- ألا يوجد هنا شخص سيأكل الدود عينيه سواك ؟ ماذا رأيت ؟ .  
قال حسين :  
- الدكتور منير كان ممسكا الفانوس في الظلام .

قال مختار :

- هذا شيء طبيعي ، من المفروض أن يمك الفانوس فى الظلام . هل تنتظر منه أن يمك الفانوس فى النور؟.

- كان بمسكا الفانوس فى الظلام وسائرا مع نبيلة لتوصيلها إلى استراحتها .

قال شريف :

- هل رأها أحد غيرك؟.

- أجل ، رأها سعد وعبد المجيد عبد الوهاب . كلنا رأيناها .

قال مختار :

- ما رأى سعد الدين فى الموضوع ؟ ماذا قال ؟.

- أحمر وجهه وغلى الدم فى عروقه وصمم على أن تقطع الرحلة ونرجع . وعبد المجيد قال إن هذا شيء لا يمكن أن نلتزم الصمت إزاءه .

قال مختار مخاطبا جميع من فى الاستراحة :

- هيا نذهب إلى سعد الدين وعبد المجيد .

اجتمع الجميع فى الاستراحة الأخرى ، وبعد مناقشات عاصفة اتفقوا على اتخاذ قرار معين وتنفيذه صباح الغد .

## - ١٢ -

كانت التعليقات تقضى بحضور الطلبة لتناول الفطور فى استراحة الأساتذة فى تمام الثامنة صباحا ، وبالأمس كانوا جميعا على موائد الطعام قبيل الثامنة ، ولكن فى صباح اليوم ظل الأساتذة ينتظرونهم إلى مابعد التاسعة ولم يحضر سوى نبيلة . قال الدكتور منير :

- هل من الممكن أن تذهبي إليهم يا نبيلة لمعرفة سبب تأخرهم عن الحضور؟.

- أنا متأسفة ، اعفنى من هذه المهمة .

قال الدكتور عبد الحلیم ؟.

- نذهب نحن إليهم .

ذهب الأساتذة الثلاثة وبقیت نبيلة فى انتظارهم بالاستراحة . عندما وصلوا وجدوا جميع الطلبة مجتمعين بالقرب من الصخرة التى جلس فوقها الدكتور منير ونبيلة فى مساء اليوم الأول من الرحلة . كان حسين واقفا فوق الصخرة يتحدث إلى الطلبة بانفعال ، ولكنه توقف عن الكلام وهبط من فوقها عندما رأى الأساتذة .

قال الدكتور منير :

- لماذا لم تحضروا للفطور حتى الآن ؟ لقد قلقتنا عليكم .

- قال سعد الدين :
- لا تريد أن نفطر .
- قال الدكتور منير :
- ولماذا ؟ ماذا حدث ؟ ألم يعجبكم فطور الأمس ؟ .
- لم ينطق أحد من الطلبة . قال الدكتور عبد الحليم .
- لا بد من وجود أشياء لا تريدون الإفصاح عنها . لماذا لا تتكلمون بصراحة ؟ .
- قال حسين وعيناه ناظرتان نحو الأرض :
- لا تريد استكمال الرحلة .
- قال الدكتور منير :
- وما السبب ؟ .
- قال حسين وهو ما يزال مطرقاً للأرض .
- حضرتك تعرف السبب جيداً .
- قال الدكتور منير بدهشة :
- أنا أعرف السبب جيداً ؟ أنا لا أعرف شيئاً . هل صدر مني ما أغضبكم ؟ .
- قال حسين وقد بدأ يفقد السيطرة على أعصابه :
- لن نتكلم هنا ، عندما نصل إلى القاهرة سنقص على العميد كل ما حدث .
- صاح حسن خالد مخاطباً الأساتذة :
- يجب أن تعتذروا لنا ا .
- قال الدكتور عبد الحليم بانفعال :
- هل تدرك معنى ماتقول ؟ نحن نعتذر لكم ا؟ أهذا الأسلوب يخاطب الطلبة أساتذتهم ؟ .
- وقال الدكتور شوقي :
- يبدو أن خدمتنا لهم لم تعجبهم . إننا نعد لكم الفطور بأنفسنا .
- قال الدكتور منير وهو يستعد لمغادرة المكان :
- من يريد الحضور فليحضر ومن لا يريد فهو حر .
- والتفت نحو زميله وقال :
- هيا بنا .

عاد الأساتذة إلى استراحتهم غاضبين ولم يبق معهم سوى نبيلة التي بدا عليها الوجوم عندما علمت بإضراب الطلبة عن الطعام ورغبتهم في قطع الرحلة . ظل الأساتذة ونبيلة عدة ساعات يجهدون أذهانهم للاهتمام إلى سبب واحد يفسر لهم هذا الغضب المفاجئ الذي اجتاحت الطلبة فلم يهتدوا إلى أى سبب معقول ، وبدأ لهم هذا السلوك العجيب لغزاً عسير الحل .

تجمع الطلبة للتشاور في الخطوة التالية التي ينبغي اتخاذها . قال سعد الدين :



- أرى أن نرسل الآن تلغرافا إلى عميد الكلية نخطره فيه أننا رجعنا من الرحلة لسوء معاملة الأساتذة لنا .

قال شريف :

- وماذا بعد إرسال التلغراف ؟.

قال حسين :

- المسألة في غاية البساطة ، نركب القطار ونعود إلى الإسكندرية . ومن الإسكندرية نعود في القطار إلى القاهرة ، مارأيكم ؟.

ارتفعت عدة أصوات موافقة على العودة إلى القاهرة . اتجهوا نحو المحطة أرسلوا التلغراف للعميد ، ثم ركبوا القطار ووصلوا إلى مدينة الإسكندرية .

عندما هبطوا على رصيف المحطة قال مختار :

- أين نذهب الآن ؟.

قال سعد :

- وهل يحتاج هذا إلى تفكير؟ نستقل القطار المسافر إلى القاهرة .

قال حسين :

- ولكن هناك مسألة لم نفكر فيها .

قال مختار :

- ماهي ؟.

- أنسىتم أننا سنسافر على نفقتنا؟ هل معكم ثمن التذاكر من هنا للقاهرة ؟

أنا شخصيا لا يوجد معي ولا مليم . حتى فلوس الرحلة لم أدفعها .

قال عبد المجيد :

- كل ما معي أربعة قروش .

قال مختار :

- وأنا معي عشرة قروش .

قال شريف :

- أنا لا أملك سوى ستر ربنا .

قال فكرى :

- أنا شخصيا معي فلوس كثيرة .

ارتفعت عدة أصوات تسأل في لهفة :

- كم ؟.

- عشرة قروش وبنكلة .

ضحك معظم الطلبة ، وقال مختار :

- أأ يوجد مع أأء منكم قيمة التذاكر ونرد له المبلغ عندما نصل إلى القاهرة؟  
تعالت أصوات قائلة إنهم لا يملكون شيئاً . قال مختار :  
- كل ما يلزمنا أربعة جنيهات ، أأ نجد هذا المبلغ معك يا كمال؟  
- أأ بالصراحة مفلس . كل ما كان معى دفعته ثمناً للتذكرة من برج العرب للإسكندرية .  
قال سعد :  
- وما العمل الآن؟ كان من اللازم التفكير فى ذلك قبل أن نترك الأساتذة ونعود . لقد تسرعنا  
يا حسين  
قال حسين :  
- لم أكن أتصور أننا لن نستطيع تدبير ثمن التذاكر .  
قال سعد بعصبية :  
- وما العمل الآن؟  
قال حسين :  
- عندى فكرة .  
قال البعض بلهفة :  
- ماهى؟  
- نرسل تليفرافاً للأساتذة فى برج العرب نأبرهم أننا سنتظرهم فى المحطة غدا ، ونبحث عن فندق  
على قدر الحال نقضى فيه هذه الليلة .  
قال مختار :  
- وهذا الفندق الذى على قدر الحال كم سيكلفنا؟  
قال حسين :  
- من الممكن أن نعثر على فندق يؤجر لنا السرير بأخمس قروش فى الليلة .  
قال فكرى :  
- وإذا لم نجد فندقاً بهذا السعر ماذا نفعل؟  
قال حسين :  
- لا تعقّد الأمور يا فكرى ، نبيت فى الهواء الطلق فى حديقة التزهة فالجو رائع .  
قال عبد المجيد :  
- اسمعوا . لاتضيعوا الوقت ، هيا نرسل التليفراف للأساتذة أولاً وبعد ذلك نسرع بالبحث عن  
الفندق .  
قال حسين :  
- وهذا التليفراف ، أأ تلزمه فلوساً؟  
قال سعد :

- سيلكفنا حوالى أربعة قروش .

صاح حسين قائلا :

- أربعة قروش بأكملها ؟.

قال سعد بعصية :

- قلت لكم لاتضيعوا الوقت ، هيا نرسل التلفراف

أرسلوا التلفراف وتطوع سعد بالبحث عن الفندق وجلسوا ينتظرونه عند النافورة التي فى ميدان المحطة .

بعد نحو ساعة أقبل سعد مبتسما . اتجهت جميع الأنظار إليه . قال :

- عثرت على فندق جنب المحطة . السرير فيه بخمسة وعشرين مليا فى الليلة . صاحب الفندق كان مصمما على ثلاثة قروش صاغ . ولكننى ظلمت أساومه حتى قبلَ هذا التخفيض ، وتوصلت إلى ما هو أهم من ذلك ، سمح لنا بأن ينام اثنان على سرير واحد . وفى هذه الحالة يتكلف الشخص اثني عشر مليا وعشرين خردة . فما رأيكم ؟.

قال حسين :

- بالأكل أم بدون أكل ؟.

احمر وجه سعد غضبا وقال :

- عجائب يا أخى ، اثنا عشر مليا وعشرين خردة وتريد أن تأكل أيضا ؟.

قال حسين :

- أنا شخصيا لا أملك عشرين خردة .

قال مختار :

- لاتشغل بالك ، سأدفع لك ونتحاسب عندما نصل إلى القاهرة .

قال حسين :

- وأين نذهب الآن ؟.

قال سعد :

- إلى حديقة الزهة أو حديقة الشلالات ، أيهما تختارون ؟.

قال مختار :

- أنا لا أعرف لا الزهة ولا الشلالات ، لم أر الإسكندرية إلا فى هذه الرحلة ، ولو سرت فيها

بمفردى سأتوه .

حسم شريف الموضوع قائلا :

- نذهب إلى حديقة الشلالات .

قال شريف :

- على بركة الله ، ولكن لابد أولا أن نذهب إلى الفندق لنضع فيه حقائبنا .

كان الفندق في أول شارع محرم بك يطل على المحطة . عندما رآه مختار خشى أن تتداعى جدرانها فزعا عند انطلاق صفير القطارات . يلوح وكأنه من الآثار التاريخية ، ذو مدخل مظلم تفوح منه رائحة العفن ، ولكنه بدا لعيونهم كملجأ من يلوذون به بدلا من المبيت في العراء ، تركوا حقائبهم واتجه الموكب نحو حديقة الشلالات .

قال سعد لمختار وهما منبطحان متجاورين على حشائش الحديقة :

- ما رأيك في الإسكندرية ؟ .

- أنظف بكثير من القاهرة .

- عشت هنا ثلاث سنوات عندما كان والدي مدرسا بمدرسة العباسية الثانوية .

- هلذا إذن سبب معرفتك لشوارعها ومسارها .

- لا ، ليس الأمر إلى هذا الحد ، فلقد تركتها منذ سبع سنوات عندما كنت صبيا ، وما رأيك في

حديقة الشلالات هذه ؟ .

- حديقة الأندلس بالقاهرة أجمل منها .

قال شريف مبتسما إبتسامة خبيثة :

- أنا أعرف لماذا يجب مختار جنينة الأندلس ، إنها في نظره أجمل حديقة في العالم .

قال سعد مندهشا :

- وهل رأى مختار جميع حدائق العالم ؟ .

قال شريف والابتسامة الخبيثة مازالت بين شفتيه :

- لجنينة الأندلس ذكريات جميلة لدى مختار .

قال سعد :

- ذكريات ١٤ وماهى هذه الذكريات ؟ .

قال مختار وقد احمرَّ وجهه موجهها حديثه لشريف :

- ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ .

- لا تخف لن أقول شيئا .

شعر سعد برغبة في معرفة هذه الذكريات ، فقال :

- أية ذكريات هذه يا مختار ؟ قل ولا تخف فانا كتوم للأسرار .

- لاشيء ، شريف يهذى في بعض الأحيان ويقول كلاما لامعنى له .

قال شريف وقد تلاشت ابتسامته :

- أنا أهذى وأقول كلاما بلا معنى ؟ إذا كان الأمر كذلك فسأعلن على الملأ ذكرياتك في حديقة

الأندلس .

أقبل حسين في هذه اللحظة ، قال :

- ماذا تقولون ؟ من هو الذى يهذى ؟ هل أنا المقصود بذلك ؟ .

قال مختار :

- لا ، لم نقل شيئا .

قال حسين :

- بل كنتم تتحدثون عن شخص ما . من هو ؟ .

قال شريف :

- كنت أقول إن مختارا يجب جنينة الأندلس لأن له فيها ذكريات جميلة .

قال حسين بدهشة وسخرية :

- مختار له ذكريات جميلة ؟ ما هي هذه الذكريات يا مختار ؟

قال سعد :

- يبدو أن « تحت السواهي دواهي » كما يقولون . ماذا حدث يا مختار ؟

قال شريف :

- سأقول لأريحكما ، في يوم من الأيام كان مختار يذاكر في حديقة الأندلس فرأى بنتا جميلة شغلت قلبه ، منذ تلك اللحظة دائم التفكير فيها ليل نهار لدرجة أنه رسم لها صورة من الذاكرة وأبثها فوق المنضدة التي في غرفته .

قال سعد :

- لهذه الدرجة ؟ .

أنفض مختار واقفا وقال وهو يتعد عنهم :

- لن أجلس معكم .

قال سعد :

- وإلى أين تذهب ؟ .

- إلى الفندق .

- ألا تخشى من أن تتوه ؟ .

في هذه اللحظة أقبل نحوهم رجل يحمل آلة تصوير كبيرة الحجم تتلى منها ستارة سوداء وتمتد من أسفلها ثلاث أرجل خشبية طويلة . قال الرجل :

- صورة ، صورة تذكارية ، من يريد صورة تذكارية ؟ .

وقف مختار ناظرا للرجل ، وقال حسين :

- بكم الصورة ؟ .

- بقرش تعريف ، خمسة ملبات .

قال شريف :

- ولكننا غريباء ، لسنا من الإسكندرية ، فتي ستسلمنا الصور ؟ .

- في الحال ، بعد خمس دقائق .

- قام سعد ونادى جميع الطلبة قائلاً :
- تعالوا يا جماعة . سيلتقط لنا صورة تذكارية هيا بسرعة ، بعضكم يجلس على الحشائش والبعض يقف . سأقف هنا .
- أسرع مختار بالجلوس بينهم وحدثت غمغمة غير واضحة الكلمات ، ثم اتخذوا الأوضاع التي اختاروها استعداداً للتصوير . قال المصور :
- انتبهوا . واحد . اثنان ، ثلاثة .
- والتقط الصورة . قال سعد :
- لقد رمشت عيني في اللحظة التي التقطت فيها الصورة ، سأظهر في الصورة مغمص العينين .
- قال مختار :
- كنت أتمنى أن يكون سعيد عزت معنا في الصورة .
- قال حسين :
- كنت أتمنى أن تكون معنا نبيلة .
- قال سعد :
- وهل من المعقول أن تقبل نبيلة الظهور معنا في صورة ؟ إنها ترفض مجرد التحدث مع أى واحد منا .
- قال فكري :
- يبدو أنك تعيش في عالم آخر ، ألا تعلم أن أحد الموجودين هنا كان يذاكر معها في بيتها ؟
- قال سعد غير مصدق :
- يذاكر معها ؟! غير معقول . ومن هو هذا ؟.
- قال حسين غاضباً :
- وما الداعي للكلام الآن في هذا الموضوع ؟ ألا يكفيكم ماجرى لى بسبيكم ؟.
- قال فكري :
- أنت البادئ بالحديث ، ألم تقل إنك كنت تتمنى أن تكون معنا نبيلة في الصورة ؟.
- قد سعد وقد استبدَّ به حبُّ الاستطلاع :
- من الذى كان يذهب للمذاكرة معها ؟.
- أقبل المصور في هذه اللحظة ووزع الصور على الذين دفعوا ثمنها . أخذ مختار يتأمل الصورة ثم قال :
- سنذكرنا الصورة بهذه الرحلة . ما رأيكم لو نرسلها لجريدة الأهرام لنشرها ؟.
- ضحك الجميع ، وأردف مختار قائلاً :
- هذه اللحظة التي نحن فيها الآن ، ستصبح في يوم من الأيام ذكريات . ترى أين سنكون بعد عشرين عاماً وماهو المقدر لكل واحد منا في عالم الغيب ؟.
- قال حسين :

- هيا بنا إلى الفندق  
بلدت غرف الفندق وكأنها عنابر مدرسة داخلية . فهي مسيحة وبكل غرفة أربعة أسرة من الخشب  
لايزيد عرض السرير على نحو متر . عليها مراتب رقيقة مغطاة بملاءات يبدو أنها لم تغسل منذ وقت  
طويل ، شغلوا ثلاث غرف متجاورة .
- عندما أقبل المساء ذهل مختار عندما أدار مفتاح النور فقال :  
- شيء عجيب ، عندما أضأت المصباح أصبحت الغرفة أكثر ظلاما .  
كان الضوء خافتا توفيراً لنفقات الإضاءة . نام كل اثنين على سرير واحد وساعد الإرهاق والضوء  
الخافت على سرعة النوم . وما كادوا ينامون حتى صحوا مرعوبين عند سماع مختار يصيح قائلاً :  
- الحقونى ، الحقونى :  
انتفضوا جالسين في أسررتهم . ووجد بعضهم نفسه واقفا جنب السرير . قال شريف بلهفة :  
- ما بك ؟ ما بك يا مختار ؟  
رأوا مختار واقفا يلهث مستمرا في صياحه قائلاً :  
- الحقونى ، سيغمى علىّ ، فأر ، فأر .  
قال حسين :  
- أين هذا الفأر ؟  
- دخل في رجل البيجامة .  
قال فكري يهدوه :  
- أمازال داخل رجل البيجامة ؟  
- أجل ،  
قال شريف :  
- انتر ، رجلك ، انتر رجلك بقوة .  
قال فكري يهدوه قاتل :  
- لا تخف ، لا بد أنه فأر مستأنس لن يعض .  
قال سعد :  
- اخلع بنطلون البيجامة  
أخذ مختار ينتر رجله نترات سريعة متتالية . صاح شريف قائلاً :  
- ها هو ذا الفأر .  
اختطف شريف فردة حذاء وأسرع نحو الفأر محاولاً قتله . ولكن الفأر اختفى خلف أحد الدواليب .  
صاح مختار قائلاً :  
- أمتأكد أنت أنك رأيت الفأر ؟  
قال شريف :

- أجل . لانتحف . لقد اختبأ خلف الدولار .
- اقتحم الغرفة صاحب الفندق . وهو رجل ضئيل الحجم نحيل الجسد . في ملابس النوم ، قال صائحاً بغضب :
- ماهذه الضوضاء ؟ أيقظتم جميع من بالفندق وأقلقتم راحتهم .
- قال شريف :
- وجدنا فأراً في الغرفة نحاول قتله .
- لا يوجد في الفندق فئران ، أين هذا الفأر ؟
- مرق واختبأ خلف الدولار .
- وهل رؤية فأر تستوجب كل هذه الضجة ؟ لم يحدث من قبل أن اشتكى أحد من فئران الفندق .
- قال مختار وآثار الفزع مازالت باقية في ملامح وجهه :
- لقد تجرأ ودخل في رجل بيجامتي .
- وماذا في هذا ؟ من العار أن يفزع رجل طويل مثلك من فأر . لا أريد سماع أية ضجة في الفندق .
- ثم غمغم ساخراً وهو يترك الغرفة .
- إذا كان كل هذا الفزع من فأر فإذا أنتم فاعلون لو رأيتم ثعباناً ؟ ناموا والزموا الصمت .
- غادر الرجل الغرفة وظل الجميع واقفين ناظرين نحو الدولار الذي اختبأ خلفه الفأر . قال شريف :
- ثعبان !؟ تكون مصيبة لو خرج لنا ثعبان من تحت السرير .
- أخذ حسين يدور في أنحاء الغرفة وبدأ أنه يبحث عن شيء ، قال مختار :
- الفأر هنا خلف الدولار يا حسين .
- أنا لا أبحث عن الفأر .
- عمّ تبحث ؟ عن ثعبان ؟
- لا ، أنا أبحث عن اللحاف . هل رأى أحد منكم لحافى الذى اختبئ ؟
- قال سعد :
- لا يوجد في الفندق سوى لحاف واحد يغطون به الزبون حتى ينام ، ثم يأخذونه ليغطوا به زبوناً آخر حتى ينام ، وهكذا . أذهب ونم بدون لحاف .
- كنت أريد أن أعطى جسمى ورأسى باللحاف حتى لا أشعر بالفأر إذا مشى فوق وأنا نائم .
- قال فكرى :
- لا داعى للوسواس ، اذهب ونم ودعنا ننام .
- قال مختار :
- لن يغمض لى جفن والفأر يختبئ خلف الدولار .
- قال حسين :
- اسمعوا يا جماعة ، ما رأيكم لو سهرنا حتى الصباح ؟



قال فكري :

- لا مانع لدى

وقال مختار :

- أنا شخصيا لن أنام في ليلتي

قال حسين :

- أنت تحسن تقليد العميد يا مختار ، قَدِّد لنا الدكتور مشرفة عندما يصله التلغراف .

- لا مانع لدى أرسلنا له التلغراف على عنوان بيته . أليس كذلك ؟ .

قال سعد :

- أجل .

قال مختار وقد جلس على حافة السرير محاولا تقليد صوت الدكتور على مصطفي مشرفة وصوت السيدة

حرمة :

- ستأتي السيدة حرمة وتقول له : « يا علي ، وصل تلغراف من طلبة رحلة برج العرب » فيقول لها « غير

معقول ، تلغراف من طلبة الرحلة ، أرسلوه على عنوان البيت هنا ؟ ماذا يقولون ، ماذا يقولون ؟ أقرئي

التلغراف » فتقول له « يقولون ، يا علي ، رجعنا من الرحلة لسوء معاملة الأساتذة لنا » فيقفز من السرير

ويقول « غير معقول ، ناوليني البدلة ، ناوليني القميص ، الأساتذة أغضبوا الطلبة ، رجعوا من الرحلة ،

لا بد أن يكون الطلبة هم المخطئون ، الأساتذة لا يمكن أن يخطئوا » .

انفجر جميع الطلبة ضاحكين من أعماق قلوبهم في أثناء تقليد مختار للعميد ، وبدأوا يحاولون النوم من

جديد .

بعد فترة صبحا عبد المجيد فوجد مختارا جالسا في السرير مطرقا للأرض فقال له :

- أما زلت خائفا من الفأر يا مختار ؟ .

- هذه المسألة تحيرني إلى أقصى حد يا عبد المجيد .

- مسألة الفأر ؟ .

- لا ، مسألة أخرى .

- ماهي يا ترى ؟ .

- مسألة الوجود والعدم ، كل هذا الوجود الذي حولنا كيف جاء من العدم ؟ .

صاح عبد المجيد قائلا :

- قوموا يا جماعة ، حدثت مصيبة .

صحا الطلبة مذعورين وقد ظنوا أن الفئران والثعابين ترح في الغرفة . قال حسين بلهفة :

- ماذا حدث ؟ .

قال عبد المجيد :

- أحونا مختار مُعْهُ فرقع . هل يمكنكم أن تتصوروا فيم يفكر وهو جالس في سريرة في الساعة الثالثة صباحا؟.

قال حسين وهو نصف نائم :

- في ماذا؟.

- في مشكلة الوجود والعدم .

قال حسن خالد ضاحكا :

- مشكلة الوجود والعدم؟!.

قال عبد المجيد :

- أجل والله يا حسن ، يفكر في مشكلة الوجود والعدم !.

رفع حسن عقيرته مغنيا :

- « مسكين وحالي عدم من كتر هجرانك » .

قال عبد المجيد بانفعال :

- كفي يا حسن يا ( مغنواي ) اعمل معروفا . ليس هذا وقت الغناء .

قال مختار :

- كيف لانفكرون في هذه المشكلة ؟ ليست مسألة بسيطة . كيف نشأ كل هذا الوجود من العدم ؟ ألم يفكر أحد منكم في ذلك؟.

قال عبد المجيد :

- اسمع يا مختار يا أخي ، نعم ، نعم وربنا يشفيك .

## - ١٣ -

مع علمهم بأن القطار القادم من برج العرب لن يصل إلى الإسكندرية قبل الثانية عشرة ظهرا . إلا أنهم منذ العاشرة كانوا متجمعين في المحطة في انتظار الأساتذة . أخيرا . رأوا القطار قادما يلهث . قال مختار :

- ماذا تفعل لو لم نجد الأساتذة في القطار؟.

قال حسين :

- في هذه الحالة يتحتم علينا الذهاب سيرا على الأقدام .

قال شريف :

- إن شاء الله سنجدهم في القطار .

وقف القطار وبدأ الركاب يهبطون منه وعيون الطلبة تكاد تبرز من جباههم بحثا عن الأساتذة . صاح مختار قائلا بفرحة أجهضها الحجل :

– ما هم يبطلون من القطار .

وصاح حسين قائلا :

– وهاهى نبيلة معهم . تُرى ماذا ستقول وكيف نبدأ الكلام معهم ؟ .

قال سعد :

– نذهب ونركب معهم القطار المسافر إلى القاهرة دون أن ننطق بأية كلمة

قال مختار :

– وإذا تكلموا هم ماذا نقول لهم ؟ .

– لاشيء ، نلتزم الصمت .

ارتفع صوت حسن خالد مغنيا كلمات أحمد رامى التى غنتها أم كلثوم :

– « سَيْتُ والدمع اتكلم على هواه القلب ياما بيتالم من قولنى آه » .

نهره سعد قائلا :

– ماذا جرى لك ياسى حسن ياخالد ؟ هل هذا وقت غناء ؟ .

وقف الأساتذة والطلبة وجها لوجه ، لم ينطق أحد منهم بأية كلمة وقد أطرق معظم الطلبة للأرض . انضمت نبيلة إلى الطلبة ولكنهم لم يبدووا أى اهتمام بها . أقبل الدكتور شوق بعد أن أنهى إجراءات السفر وكان قد توجه إلى ناظر المحطة لهذا الغرض . كان القطار المتوجه إلى القاهرة واقفا على الرصيف . سار الأساتذة نحو القطار والطلبة خلفهم فى صمت وكأنهم يسرون فى جنازة ، وركبوا ، وتحرك القطار .

قال شريف وهو يدير مفتاح الشقة :

– ستكون مفاجأة لرشاد عندما يجدنا عائدين من الرحلة قبل موعد انتهائها .

– تُرى هل نجده بالبيت ؟

فتح شريف الباب بهدوء ودخل هو ومختار على أطراف أصابعها . سمعا رشاد يصيح وفى صوته رعشة

فزج :

– من ؟ من الذى دخل ؟

قال مختار :

– نحن ، رجعنا من الرحلة .

صاح رشاد بصوت مرتجف :

– غير معقول ، ولماذا رجعت بهذه السرعة ؟ من المفروض أن تستغرق الرحلة عشرة أيام .

قال مختار :

– نحن الآن فى منتهى التعب ، سنحكى لك فيما بعد .

خرج رشاد من غرفته إلى البهو شاحب الوجه مضطربا بشكل ملفت للنظر . قال له مختار :

– ما بك ؟ إنك تبدو وكأن جميع مفاصلك مفكوكة ، لم أرك في حياتي بهذا المنظر .

عند ذلك حدثت مفاجأة أذهلت كلا من شريف ومختار وجعلتها يقفان مشدوهين ، فلقد برزت من

غرفة رشاد فتاة جميلة تكاد تذوب شجلا وبدت وكأن رجلها لانتقويان على حملها فاستندت على الجدار بإحدى يديها ومحاولة تحبته وجهها باليد الأخرى . صاح مختار موجها حديثه إلى الفتاة قائلا :

- من أنت ؟

لزمت الفتاة الصمت وقالي رشاد متلعنا :

- هذه .. هذه ..

صاح شريف قائلا :

- من هي ؟

قال رشاد :

- روحية .

امتقع وجه مختار وانهار شريف فوق الكنية البلدى . قال مختار :

- أمن أجل هذا فضلت البقاء هنا ولم تحضر الرحلة ؟

اتجهت روحية نحو الباب في خطوات مترنحة وقد سالت دموعها على خديها . فتحت الباب ثم أغلقت خلفها وسيمت خطواتها تهبط السلم ببطء ، فأسرع رشاد وفتح الباب وظل ناظرا إليها حتى غابت عن بصره وعاد إلى الشقة وقد شعر بمزيج من الغضب والحجل . قال شريف :

- هل وصلت الأمور إلى هذا الحد يارشاد ؟

- لأشأن لك بي ، أنتظن نفسك وليّ أمرى ؟ أنا حر في تصرفاتى .

- لم أكن أتصور أن تسمح لك أخلاقك مها بلغت من الانحطاط أن تتصرف مثل هذا التصرف .

قال مختار :

- أمن أجل هذا فرحتَ عندما ترك عبد الحميد الشاعر البيت ؟

قال شريف :

- ليخلو له الجو وينفرد هو بها .

قال رشاد وقد بلغ ذروة الغضب .

- اسمع أنت وهو ، لقد أطلت بالى عليكما أكثر من اللازم ، بعد ذلك لن أسكت على أية إهانة ولن

تلوما إلا نفسيكما .

بدأ الناثر الشديد على وجه مختار وهو يقول :

- يتضح من ذلك أن عبد الحميد المسكين كان يبيت الليالى ساهرا ينظم فيها الأشعار وحضرتك

تطارحها الغرام وتقضى معها أسعد الأوقات .

قال رشاد :

- وماذا أفعل ؟ هى التى تحببى .

صاح مختار قائلا وقد بدأ يفقد أعصابه :

- وماذا تعرف أنت عن الحب ؟

- لم أقل إنني أحببتها ، بل قلت إنها هي التي أحببتني ولا أريد أن أحطم قلبها .  
قال مختار :
- لو عرفتك على حقيقتك لاحترقتك وكرهتك وضررتك بنعل حذاءها . لقد استغللت براءة وسذاجة هذه البنت المسكينة . قل لي ، إلى أي مدى وصلت علاقتك بها ؟  
قال رشاد :
- من الأفضل ألا تتدخل فيما لايعنيك حتى لاتندم وتسمع مالايرضيك .  
قال مختار مخاطبا شريف :
- أرايت في حياتك مثل هذه الواقعة ؟ لا بد أن أبحث عن عبد الحميد الشاعر في كل مكان وأرجو منه أن يعيش معنا هنا من جديد .  
قال رشاد باستخفاف :
- فليرجع ، لاشأن لي به ، لو استطعت العثور عليه تكون بطلا .

## - ١٤ -

- كان رشاد قد تواعد مع روحية على اللقاء في ركن منزول بكازينو « نسيم الربيع » . لم يكن اللقاء بهيجا كما كان في المرات السابقة . شعرت روحية ببركان يمور في أعماقها مهددا بالانفجار في أية لحظة ، لانكاد ترى أو تسمع شيئا مما حولها . قالت بصوت ضعيف يسحقه اليأس :
- لقد وعدتني ولم تنفذ وعدهك .  
حاول رشاد أن تلتقي عيناه بعينيها ولكنها كانت تشيح بوجهها عنه متعجبة النظر إليه . قال :
- اصبري ، لكل شيء أوان .  
- فأت الأوان ولا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك . أريد أن أعرف بكل صراحة ، متى ستزوج ؟  
- أنت تعلمين أنني لا أستطيع الزواج إلا بعد حصولي على البكالوريوس ، أنا مازلت طالبا أعتمد على أبي ، ولو عرف أنني أنوى الزواج قبل حصولي على الشهادة سيكسر رقبتي .  
- أنت تعلم جيدا لماذا لا أستطيع الانتظار . لا بد من إصلاح ما أفسدته .  
- قلت لك ياروحية يا حبيبتي أنني لن أستطيع الزواج في الوقت الحالي .  
- وما العمل ؟ هل تنتظر حتى يذبحوني ؟  
ضحك رشاد ضحكة مفتعلة وقال :
- لاسمح الله ولا قدر ، أنا أفديك برقبتي .  
- المسألة جد وليست هزلا يا رشاد . إنها حياة أو موت بالنسبة لي .  
اختنقت بالبكاء وأردفت قائلة :
- ألا تستطيع تقدير موقفي ؟ .

- أرجوك لاتبكي ، لا أحتمل رؤية الدموع التي تسيل من عينيك الجميلتين .  
قالت وهي ما زالت تبكي :

- كل يوم يمر يقربني من الهاوية . هناك أشياء لانستطيع إخفاءها أكثر من ذلك ؟ ألا تريد أن تفهم ؟  
لابد من الزواج بأسرع ما يمكن .

- أقسم لك أنني أتمنى أن يتم الزواج في أقرب وقت ، ولكن كيف أتزوج وأنا ما زلت طالبا ؟ اتحسبن  
الزواج لعبة ؟

- وهل بنات الناس هن اللاتي تحسبن لعبة في يديك ؟ ألم تؤكد لي أن الزواج سيتم في خلال  
أسبوعين ؟.

- أسبوعان ؟ هل هذا معقول ؟.

- لآخر مرة أقول لك إننا لابد أن نتزوج في خلال أسبوع أو أسبوعين على الأكثر . أنا في انتظار  
حضورك إلى البيت لتخطبني ونعقد العقد كما وعدتني ، وقبل ذلك لا أريد أن أرى وجهك .

وقفت عابسة وانجهدت بخطي سريعة نحو باب الخروج فأسرع خلفها رشاد وسار بالقرب منها قائلا :  
- انتظري ولا داعي للعصية . لقد أنقذتك من ذلك العجوز العاطل الذي كنت على وشك الوقوع في  
مصيدهته .

- إذا كنت تقصد عبد الحميد فلا بد أن تعرف أنه أشرف منك . هذا الرجل لم يحاول إنشاء أية علاقة  
معي ، وعندما أحبني جاء وخطبني من أبي على الرغم من ظروفه القاسية ، ولكنك أنت لا تملك الشجاعة  
الكافية لتخطو هذه الخطوة وتحمل مسئولية عملك .

ظل واقفا بالقرب من باب الكازينو ناظرا إليها وهي تبتعد عنه . دخلت فتاة أنيقة جميلة فتحول بصره  
نحوها بحركة لا إرادية وآراها تجلس مع شاب كان في انتظارها ، فجلس وطلب فنجانا آخر من الشاي أخذ  
يحتسيه مفكرا في المأزق الذي وضع نفسه فيه .

في هذه الأثناء كان مختار جالسا على الكنبه البلدي في المهوي ففكر في أشياء كثيرة . قفزت في خياله صورة  
الفتاة التي آراها في حديقة الأندلس ، ثم مشاهد متناثرة من رحلة برج العرب ، ثم منظر عبد الحميد  
والعسكري يجره من ذراعه في المحطة ، وكان شريف جالسا عند مائدة الطعام التي تتوسط الجهو يراجع  
محاضرة النبات . قال وكأنه يقرأ أفكار مختار :

- هل بحثت عن عبد الحميد ؟.

طافت بذهن مختار غمامة من الحزن وقال :

- بحثت عنه في كل مكان ، والذي يجربني ويؤلني منظر العسكري وهو ممسك بذراعه . أفكر كثيرا في  
هذه المسألة ولم أستطع الاhtداء إلى مبرر معقول للقبض عليه .

- هل سألت في المحطة ؟.

- سألت الضابط القضائي ، وسألت ناظر المحطة ولا أحد منهم يتذكر شيئا عن الموضوع ، قالوا إن  
العساكر كل يوم تقريبا يقبضون على أشخاص كثيرين لأسباب مختلفة . لست أدري أين أجده .

تجمّع الطلبة في معمل علم الحيوان انتظارا لقدم المعيد . كانت نبيلة ، كعادتها ، جالسة في ركن منزول . دخل حسين مندفعاً شاحب الوجه وقال :

- تعالوا يا جماعة ، المعيد طلب مقابلتنا . يبدو أن تحقيقاً سيجري بشأن ما حدث في رحلة برج العرب .  
قال مختار :

- من أخبرك بهذا ؟ .

- الأستاذ سيد مسلم طلب مني أن أبلغكم جميعاً ، هيا ، المعيد في انتظارنا في غرفته .

قام الجميع ماعدا نبيلة التي ظلت جالسة في مكانها . قال المعيد :

- عرفت تفاصيل ما حدث في رحلة برج العرب ، ومهما كانت الأسباب ، لا أجد مبرراً لقطع الرحلة والعودة بدون الأساتذة .

قال حسين :

- يا سعادة البك نحن لم نرتكب أيّ خطأ ، إننا ...

قاطعه المعيد قائلاً بانفعال :

- كل تصرفاتكم كانت خاطئة . لم يصدر من الأساتذة ما يدعو إلى هذا التصرف الشاذ المتهور ، ماذا حدث ؟ أحد الأساتذة المشرفين على الرحلة يقوم بتوصيل طالبة إلى الاستراحة التي تبين فيها ، يسير وهي تسير خلفه بكل أدب ، ما العجيب في ذلك ؟ هل حدث شيء آخر ؟ .

قال حسين متلعثماً :

- لقد مد لها يده عندما كانت تهم بركوب القطار ، وأمسك يدها وساعدها على صعود القطار .

- وماذا في هذا ؟ هل هذا عمل نخل بالأدب ؟ على العكس ، ينبغي أن يُشكر على ذلك . يوجد شيء

اسمه ( اتيكيت ) . أنا لن أعفيكم من العقاب إلا إذا اعتذرتم للأساتذة .

قال حسين :

- سنعتذر للأساتذة .

- سأعفو عنكم لو قبل الأساتذة اعتذاركم ، ولكن لو لم يقبلوه فسأعاقب كل من ترك الرحلة ،

وسيكون العقاب شديداً رادعاً .

قبل الأساتذة اعتذارهم فأعفاهم المعيد من العقاب .

- ١٦ -

- في الركن المعهود بكازينو « نسيم الربيع » قال رشاد لروحية بغضب :
- اسمعى ، لا أحب أن أراك بهذا الوجه العابس .
  - أريد أن أعرف متى ستتزوج .
  - ألا يوجد على لسانك سوى سيرة الزواج ؟ أكلما رأيت خلقتى تسألينى عن موعد الزواج ؟ .
  - أنت وعدتني بذلك . ألا تستطيع تقدير ظروفى ، ألا تعلم أنك لو تخليت عنى سيكون مصيرى القتل ؟ .
  - خبأت وجهها بيديها وانخرطت في البكاء . قال محاولاً تهدئتها :
  - اطردى من ذهنك هذه الأفكار المرعبة . كيف يقتلونك ؟ هل شاعت الفوضى ؟
  - قالت محاولة التغلب على البكاء :
  - هذه آخر مرة أتحدث في هذا الموضوع . إذا لم يتم زواجنا في خلال أسبوع سأذهب إلى الكلية وأحكي لعميدكم كل شيء . أنا لن أسكت . إنها مسألة حياة أو موت .
  - قال بسخرية :
  - تذهبن إلى عميد الكلية وتحكين له ؟ وما دخل العميد في ذلك ؟ أجبونة أنت ؟
  - قالت وقد حاصرها ظلام اليأس :
  - هل معنى هذا أنك لانتوى تصحيح خطئك ؟
  - لا ، لست ناويا على شيء ، افعل مابدأ لك .
  - انفض واقفا وتركها وحدها وغادر الكازينو .

- ١٧ -

- في هذه الأثناء ، كان مختار في المطبخ يعمل عجّة بيض وشريف منهمكا في تقطيع الطماطم والبصل لعمل السلاطة . قال مختار :
- يساورنى القلق على سعيد عزت .
  - هل زرته مرّة أخرى ؟ .
  - لا ، ولكنه منقطع عن الكلية منذ وقت طويل .
  - زره واطمئن عليه .
  - سأزوره غدا بعد خروجى من الكلية .
  - دق جرس الباب ، قال مختار :
  - من ياترى ؟ .
  - قد يكون رشاد .



- رشاد معه مفتاح البيت .  
عاد جرس الباب يلدق في إصرار ، فذهب شريف وفتح الباب ، وما كاد يرى القادم حتى شعر بمزيج  
من الدهشة والفرح . صاح قائلاً :  
- عبد الحميد !؟ غير معقول ، أهلاً وسهلاً ، تفضّل .  
سمع مختار شريفًا يذكر اسم عبد الحميد فهربول نحو الباب . رأى عبد الحميد في البهو مع شريف .  
احتضن عبد الحميد وقد شعر بفرح حقيقي لم يشعر بمثله منذ زمن طويل :  
- أين كنت يارجل ؟ قلبنا الدنيا بحثًا عنك . أين الحصيرة ؟ .  
- سُرقتُ ! .  
ضحك مختار وقال :  
- غير معقول . من سرقها ؟ .  
- أولاد الحرام كثيرون .  
- رأيتك منذ أيام في محطة السكة الحديد وأنا في القطار المسافر إلى الإسكندرية وكنتُ على وشك النزول  
للقائك ولكن القطار كان قد تحرك فبعضني شريف من النزول . كان معك أحد العساكر .  
- أجل يا سيدي ، أهانوني ، الله يجازيهم .  
قال شريف :  
- من هم الذين أهانوك ، ولماذا ؟ .  
وقال مختار :  
- ماذا كنت تعمل في المحطة ؟ .  
- كنت عائداً من طنطا .  
- وماذا كنت تعمل في طنطا ؟ .  
- شعرت برغبة في زيارة السيد البدوي ، فركبت القطار ووصلت إلى طنطا وزرت السيد البدوي  
وقرأت الفاتحة وعدت في القطار الذي وجدته واقفاً عند رصيف المحطة .  
قال شريف :  
- كل هذا حسن ، ولكن ما علاقته بالإهانة والعسكرة ؟ .  
- ربنا سترها في الذهاب بدون تذكرة ، ولكن في العودة لم يسترها ، ضبطوني ، وعندما نزلت من  
القطار أخذوني في زفة وسلموني لناظر المحطة .  
قال مختار بلهفة :  
- ثم ماذا ؟ .  
- لاشيء ، قلت لهم إنني لا أملك فلوساً ، احبسوني .  
قال مختار بفرح :  
- هل حبسوك ؟ .

- للأسف لم يجسوني ، ناظر المحطة غمز بعينه للعسكري فصرني على خدى الأيسر فأدرت له خدى الأيمن ، وأطلق سراحي ، محبة في السيد البدوي .

أسرع مختار بإحضار العجة والسلطة وطلب من عبد الحميد أن يشاركها الغداء ، فجلسوا حول المائدة . كان عبد الحميد شبه صائم عن الطعام منذ يومين ، وقد بدأ وجهه أصفر حجاً وأكثر شحوباً ، وعلى الرغم من بذل مجهود عنيف حتى لا يبدو ملهوفاً على الأكل ، إلا أن مختاراً شعر بذلك ، بأسرع بإحضار علبة ( بولييف ) وفتحها ووضعها في طبق وأحضر مزيداً من الخبز وبعض الفول المتبقي منذ الصباح ووضعها على المائدة . لم يستطع عبد الحميد التظاهر بعدم اللفتة على الطعام أكثر من ذلك فأقبل عليه بلا تحفظ .

عندما انتهوا من الأكل أسرع شريف بعمل الشاي وجلسوا يتحدثون . قال مختار :  
- كيف حالك الآن يا عبد الحميد ؟

نظر عبد الحميد لمختار بعينين مبتلئين خبا بريقها وقال :  
- كما ترى .

ثم أردف قائلاً بعد تردد :  
- الحقيقة أنني جئت اليوم لأستفسر عن شيء .  
قال مختار :

- خيراً .  
تلقت عبد الحميد في أنحاء المكان ثم همس قائلاً :  
- أين رشاد ؟ هل هو هنا ؟  
قال مختار :

- لا ، خرج ولم يرجع حتى الآن .  
- يخيل إلى أنني رأيت شيئاً لا أستطيع تصديقه .  
نظر مختار إلى عبد الحميد بترقب وقال شريف :  
- خيل إليك ماذا ؟  
- رأيت رشاداً أمس في ميدان العتبة الخضراء وبصحبه روحية ، هل توجد علاقة بينهما ؟  
قال شريف باشمزاز :

- روحية ؟ ، احمد ربنا على عدم زواجك منها .  
قال عبد الحميد بلهفة وقد شعر برجفة .  
- لماذا ؟ ماذا حدث ؟  
- روحية ماشية مع رشاد .  
شعر عبد الحميد بدوار ، ولكنه أقنع نفسه بأن شريفاً كذب عليه لكي لا يأسف على عدم زواجه من روحية . قال وكأنه يحدث نفسه :

- روحية ماشية مع رشاد ؟! هل هذا معقول ؟ هذه البنت البريئة التي نظمت في حبها أربع قصائد من أجمل أشعاري ، ماشية مع رشاد ؟!
- بدأ الشك يتغلب على اليقين فأردف قائلا وهو على وشك البكاء :
- لماذا يحدث ذلك ؟ ماذا جرى للعالم ؟
- قال شريف :
- إنها ليست كما كنت تتخيلها ، إنها فاسدة .
- قال عبد الحميد بنظرات تدور في كل اتجاه ولا ترى شيئا :
- غير معقول ، غير معقول إطلاقا .
- قال شريف :
- هاهي ذى التي كنت ترى الزواج منها حلما جميلا .
- صاح عبد الحميد قائلا بانفعال شديد :
- لا ، البنت كانت طاهرة كالملاك ، رشاد هو الذي أفسدها .
- وأخذ يمسح دموعه بكم سترته .

- ١٨ -

- عندما فتح رشاد باب الشقة لم يتبه في بادئ الأمر لوجود عبد الحميد الذي كان جالسا في مكان يتوارى خلف الباب عند فتحه ، في حين أن شريفا ومختارا كانا في مواجهة الباب فلم يرسواهما لحظة دخوله ، ولكنه عند إغلاق الباب فوجئ بوجود عبد الحميد . شعر رشاد بانقباض وخوف غامض ، وغمغم قائلا :
- من ؟ عبد الحميد ؟ أمازلت حيا ؟
- قال عبد الحميد بصوت خافت :
- أجل ، مازلت حيا ؟
- قال مختار وقد وُدَّ لو يلقى برشاد من النافذة :
- أهكدا يكون الترحيب بشخص عزيز علينا مثل عبد الحميد بعد غياب طويل ؟
- قال رشاد بسخرية :
- وماذا تريدني أن أفعل ؟ أرقص ؟ أعزف موسيقى ؟
- قال مختار متحميا :
- عبد الحميد سيبقى معنا هنا .
- وأنا لا أريد أن أبقى معكم ، سأبحث عن مكان آخر .
- في ستن داهية .

- انبعثت من الشارع ضججة غير واضحة الكلمات ، تمكنت آذانهم من التقاط جملة واحدة هي :
- لاحول ولا قوة إلا بالله .
- قال مختار وقد شعر برجفة خفيفة تسرى في جسده :
- ماذا حدث ؟
- أسرعوا نحو الشرفة محاولين اكتشاف سبب الضججة ، ماعدا مختارا الذى اتجه نحو باب الشقة قائلاً :
- سأذهب لأرى ما حدث .
- قال شريف وهو يجهد عينيه ماذا بصره من الدور الرابع لرؤية ما يحدث على أرض الحارة :
- يبدو أن شخصاً وقع من أحد المنازل .
- قال عبد الحميد مرتبكاً وقد شحب وجهه .
- من أين وقع ؟ أين هو ؟
- قال شريف وهو يتحدث وقد شاهد مختارا يشيح بوجهه ويهرول عائداً نحو باب العمارة :
- لا استطيع الرؤية جيداً من خلال الناس المتجمعين عاد مختار مضطرباً واندفع نحو الشقة مغمغماً :
- مصيبة ، مصيبة كبرى ، لا حول ولا قوة إلا بالله .
- قال عبد الحميد بلهفة :
- ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟
- قال مختار وقد اغرورقت عيناه بالدموع :
- روحية وقعت في الشارع .
- شعر عبد الحميد وكأن قلبه قد انفجر . انهار جالسا على الكنية قائلاً بلهفة بصوت مختنق :
- روحية ١٩ ولكنها ماتت حية ، أليس كذلك ؟
- قال مختار :
- لا أظن .
- صاح عبد الحميد قائلاً بصوت مختنق بالبكاء :
- أين الإسعاف ؟
- أسرع نحو الشرفة ونظر إلى الطريق نظرة خاطفة ثم أشاح بوجهه قائلاً :
- لا يوجد إسعاف .
- اندفع نحو باب الشقة قائلاً :
- سأذهب لأحضر الإسعاف .
- تشبث به مختار قائلاً :
- تعال يا عبد الحميد ، لقد طلبوا الإسعاف بالتليفون .
- صاح عبد الحميد قائلاً بانفعال شديد :
- ولماذا لم يأت حتى الآن ؟

انخرط في البكاء قائلاً :

- ليتني ماجئت في هذا اليوم المنحوس .

وأردف قائلاً وكأنه يحدث نفسه بذهول :

- ولكن كيف وقعت في الشارع؟ كيف؟

قال مختار :

- لا أحد يدري ، عندما وقعت لم يكن في البيت سواها .

قال عبد الحميد باكياً :

- لماذا يحدث ذلك ياربي؟ لماذا؟

قال مختار :

- لم أستطع رؤية منظرها . لم أستطع .

ارتفعت الضجة من جديد . قال شريف وهو ينظر من الشرفة :

- الإسعاف وصل .

قال الشرفة :

- الإسعاف وصل .

قال عبد الحميد وهو مندفع نحو باب الشقة :

- سأذهب معها .

قال رشاد بهدوء وكأنه أتخلص من عبء ثقيل :

- وبأى صفة تذهب معها؟ لا أنت قريبها ولا خطيبها .

قال عبد الحميد باكياً :

- لم يحبها أحد مثلي . لم يحبها أحد كما أحببتها . لماذا فعلت هذا يارب؟

قال شريف وهو ينظر من الشرفة :

- شيء عجيب ، يبدو أن عربة الإسعاف لم تحملها . تركتها ورَجَعَت .

سمعوا جرس الإسعاف مبتعداً عن المكان . قال رشاد :

- لا بد أنها ماتت ، الإسعاف لا يحمل الجثث .

صاح عبد الحميد نائراً :

- ومن يحمل إذن إذا لم يحمل روحية؟ لن يحمل أعزُّ من روحية؟ سأحملها على كتفي ، أجل ،

سأحملها أنا .

جذبه مختار ومنعه من الخروج قائلاً :

- اهدأ يا عبد الحميد ، اهدأ ، لاتنفل بهذا العنف .

قال عبد الحميد ومازال يبكي :

- لماذا يارب ، لماذا تموت روحية وأعيش أنا؟ لماذا لم تُمتني بدلا منها فأنا لافائدة من وجودي في

الدنيا؟ لماذا أنا على قيد الحياة؟ أريد أن أموت، أريد أن أموت.  
قال مختار:

- كفى يا عبد الحميد، كفى، لا ترهق نفسك أكثر من طاقتك.  
- ما فائدتي في الدنيا؟ لماذا أنا حي؟  
قال رشاد:

- لماذا كل هذا الحزن على روحية، هل كانت تعيرك أى اهتمام؟  
غمغم عبد الحميد في ذهول وكأنه يتحدث نفسه:  
- جميلة كالأزهار، بريئة كالأطفال، لم يجها أحدٌ كما أحببها.  
أسرع مختار وأحضر كوب ماء قدمها لعبد الحميد الذى بدأ وكأنه في غيبوبة:  
- خذ يا عبد الحميد، عبد الحميد، خذ اشرب هذا الماء.  
فتح عبد الحميد عينيه وقال بصوت ضعيف:  
- ليتنى ما أتيت، ليتنى ما أتيت. هكلنا حظى، لم يجها أحد كما أحببها.  
بغثة اندفع نحو باب الشقة قائلاً:

- سأنزل لأراها، أجل، سأنزل لأراها، قد تكون ردت إليها الروح. قد لا تكون روحية.  
ثم التفت نحو مختار وقال:  
- أمتأكد أنت أنها روحية؟ أجل، سأنزل لأراها.  
جذبه مختار بقوة يمنعه من النزول قائلاً:  
- لا تكن مجنوناً. لقد انتهى كل شيء.  
قال عبد الحميد وهو يضرب كفا بكف:  
- كل شيء انتهى! غير معقول! أهكلنا ينتهى الإنسان في لحظة؟  
ثم تفجرت نافورة الشعر من ينبوع الكامن في أعماقه فانطلق يشد:

زهرةٌ - في الروض قالت للخميلة  
قد ذوى الغصنُ وما للزهر حيلة  
نضرتى ضاعت فساعاتى قليلة  
إنما الأحلام مازالت جميلة

إنسابت الدموع من عيني شريف ومختار. قال شريف:  
- لاحول ولا قوة إلا بالله، سأذهب لأصلى ركعتين.  
أردف عبد الحميد منشداً:

لَوْنِيَّ الْفَتَانُ قَدْ وُلِّي وَرَاخُ  
لَمْ يَعِدْ يَزْهَوِ عَلَى خَدِ الْمَلَاخُ

بعد حين سوف تذروني الرياح  
وعيونى لن ترى وجه الصباح

قال مختار مختنقا بالبكاء :

- لم أعد أحتمل .

استمر عبد الحميد منشدا :

فإذا أبصرتِ في ظل النخيل  
بلبلاً دمعُ الهوى منه يسيلُ  
يرسل الآهاتِ من قلبٍ عليلُ  
خبيريه أتى صنت هواهُ  
غاب عن عيني والقلبُ احتواه  
وإلى أن ودّع الجسمُ الحياهُ  
لم يكن في القلب محبوبٌ سواهُ

ودفن رأسه في كفيه وانخرط في بكاء مرير .

## - ١٩ -

بذل مختار مجهودا كبيرا حتى تمكن من إقناع عبد الحميد بالبقاء معهم في البيت . أصبح قليل الكلام شاردا الفكر حائر العينين متحاشيا الجلوس في الشرفة المظلة على بيت روحية . كانت تساور مختارا شكوك غير مريحة . قال لرشاد بعد تردد .  
- اسمع يا رشاد ، أريد أن أسالك سؤالا وتجييب عنه . بمنتهى الصراحة .  
- أسأل .  
- هل كانت علاقتك بروحية سببا في المأساة التي حدثت لها ؟  
- وما علاقتي بالموضوع ؟ ليس من المعقول أن أكون أنا الذى ألقىت بها من النافذة .  
- أنت تفهم جيدا ما أقصده . لقد ارتكبت جريمة قتل .  
- أنا ارتكبت جريمة قتل ؟ ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله ؟  
- من المؤسف أن أمثالك يقتلون ويهرون من العقاب ، ولكن الله لن يفر لك .

قال رشاد نائرا :

- ماذا تقول ؟ أنا لم أفعل شيئا ولا علاقة لى على الإطلاق بهذا الموضوع .  
- أنت غررت بهذه البنت المسكينة وتسببت في موتها ، وعليك ترتيب أمورك والبحث عن مسكن آخر ، فلا أنا ولا شريف نرغب فى وجودك معنا .

- ومن قال إنني أرغب في البقاء معكما ؟ منذ عودة عبد الحميد وأنا دائم البحث عن مكان آخر .
- سبق عبد الحميد معنا هنا .
- يبقى هنا أو لا يبقى أمر لا يهمني .
- ثم أردف قائلا في همس على الرغم من علمه بأن البيت في تلك اللحظة لم يكن يضم غيرهما .
- هل عرف عبد الحميد شيئا عن علاقتي بروحية ؟ .
- لم يخبره أحد منا ، المهم الآن أن نجنب عبد الحميد رؤية خلقتك هنا .
- ولا أنا أحب أن أرى خلقتك ، سأسكن في بيت أحسن من هذا ستين مرة وفي منطقة راقية نظيفة .
- وجودك فيها سيوسخها أين ستسكن ؟ .
- في العباسية جنب الكلية ، مع سليم فتحي .
- خيرا تفعل ، الطيور على أشكالها تقع .

## - ٢٠ -

- في أحد أركان نادى الكلية جلس مختار وحسين وفكري قبيل الثانية بعد الظهر يقضون شطائر الكبد والحين الرومي ويتناولونها نصف مضموغة في عجلة إذ لم يبق سوى عشر دقائق على موعد درس علم الحيوان العملي . قال مختار :
- سنتهى علاقتنا بالكلية بانتهاء هذا العام ، وقد لانراها بعد آخر يوم في الامتحان . سنشتاق إلى الجبلية وشجر الجواقة والمعامل والمدرجات .
- قال حسين :
- قد تعين معيدا وتبقى في الكلية .
- قال مختار :
- هذا أمل بعيد المنال ، لا بد من الحصول على مجموع مرتفع جدا ، فضلا عن ذلك فإنهم لا يعينون سوى أعداد قليلة ، وتمر أعوام دون أن يعينوا أحدا .
- قال حسين :
- أنا شخصيا مصمم على التعمين في وظيفة معيد .
- قال فكري :
- وهل أنت الذى تعين نفسك ؟ لا أحد يضمن مجرد النجاح في هذه الكلية ، وإذا حصلت على أعلى مجموع قد لا توجد وظيفة معيد خالية .
- قال حسين :
- من جهة المجموع ، أنا أضمن حصولي على مجموع مرتفع جدا ، أما من جهة الدرجات الحالية فلا بد من وجودها . أنا متأكد من أن نبيلة ستصبح معيدة ولست أقل منها ، لا بد أن أصبح أنا أيضا معيدا .



- قال مختار :
- آمال وأحلام .
- قال فكري :
- قد تتحقق ، من يدري ؟ .
- قفزت صورة سعيد عزت في ذهن مختار ، فقال :
- مسكين سعيد عزت ، لا أظن أنه سيدخل الامتحان . كان يأمل في التعيين في وظيفة معيد .
- قال حسين :
- لم يعد هناك أمل في ذلك ، ماهو مرضه ؟ .
- سبق أن قلت لك إنه مصاب بانهاض عصبي .
- أعصابه كانت سليمة وقوية ، ماذا جرى له ؟
- يبدو أنه يعاني من مأساة ، مسكين ، سأزوره اليوم لأطمئن عليه .

## - ٢١ -

- كانت غرفة سعيد على ماهي عليه كما رآها مختار آخر مرة ، لم يتغير فيها شيء ، ونخيل مختار أن الكتب الموضوعه على المنضدة لم تمتد يد إليها طوال هذه الفترة . كان سعيد ممددا على الفراش وقد تغيرت ملامحه وعلى فيه ابتسامة حزينة . قال مختار عندما جلس جنب سريره :
- أشكرك يا مختار ، أنت الوحيد الذي تزورني .
- أتمنى أن أراك معنا في الامتحان .
- أنا تعبٌ جدا يا مختار ولا أحد يشعر بتعبى . كانت عندي آمال كبار .
- أطرق مختار وقد شعر بحزن عميق وغمغم قائلا :
- لا حول ولا قوة إلا بالله .
- كُلهُ منها ، كُلهُ من نبيلة ، ساعها الله . كل ماجرى لي كان بسببها ، منذ طردتني من بيتها .
- ثم أردف قائلا وقد اختنق بالبكاء .
- هي التي قتلتنى ، لن أستطيع العودة إلى الكلية .
- ثم قال بعد فترة صمت :
- هل تذهب هي إلى الكلية .
- أجل .
- قال سعيد ونظره مثبتٌ في سقف الغرفة :
- الدنيا لا تستحق مانبذله فيها من عناء ، ماذا سنأخذ من الدنيا ؟ لماذا نعيش يا مختار ؟ ماقيمة الحياة إذا

كان الموت يطاردنا ؟ هذا الكوكب الذى نعيش عليه كوكب شبع ، كوكب ملعون . ما فائدة الحب والزواج وإنجاب الأبناء إذا كان كل شيء يموت ؟ أصبحت لا أخشى الموت . الإنسان منا كالنملة ، كلما ماتت نملة حلت محلها نملة جديدة ولا فرق بين نملة وأخرى ، كلُّ نمل . نحن كالنمل ، لا فرق بيننا وبين النمل .  
- لماذا كل هذا التشاؤم ؟ ينبغى أن تتفاعل وتفكر فى مستقبل جميل مشرق .  
- لا وجود لشيء اسمه المستقبل ، المستقبل سيصبح ماضيا ، والماضى معناه موت الزمن ، الزمن أيضا يموت . ألم أقل لك إن هذا الكوكب الذى نحن فوقه كوكب مرعب ، ملعون . كل ما فيه يموت ، حتى الزمن .

لاحظ مختار أن سعيدا يبذل مجهودا كبيرا فى أثناء الكلام ، تخرج الكلمات من فمه بصعوبة فقال :  
- لا تتكلم كثيرا يا سعيد ، يخيل إليّ أن الكلام يتعبك .  
- حقيقةً أنا أتعب من الكلام . كل كلمة أنطقها تؤلم رأسى ، ولكننى أحب التحدث معك . أنت الشخص الوحيد الذى أرتاح عندما أتحدث إليه . لا أجد من أكلمه غيرك . أريد أن أقول لك إن هذه الدنيا لا تساوى شيئا . لو قدر لى أن أشئ من مرضى هذا فلن أفكر فى الزواج أو إنجاب الذرية . ما فائدة كل هذا مادام مصيرنا الفناء ؟  
- الذى يشغلنى شيء آخر .  
نظر سعيد إلى مختار قائلا بصوت ضعيف :  
- ماهو ؟ .

- مسألة الوجود والعدم . كيف نشأ كل هذا الوجود من العدم ؟ .  
- حقيقةً ، كيف نشأ هذا الوجود من العدم ، ومع ذلك سوف يصبح الوجود عدما فى يوم من الأيام . هذه الدنيا مخيفة يا مختار ، لم أعد أفهم فيها شيئا ، ولا أحد يستطيع فهمها . سادت لحظة صمت ، ثم قال سعيد وهو ناظر نحو سقف الغرفة :  
- هل ترى نبيلة ؟ .  
- أجل ، أراها .  
- أما زالت تلبس النظارة السوداء ؟ .  
- أجل ، لست أدرى لماذا . يبدو أن عينيها حساسة للضوء .  
- هل يبدو عليها الفرح أم الحزن ؟ .  
- تبدو عادية ، لا فرحانة ولا حزينة .  
- اغفر لها يارب .

- ٢٢ -

عندما وقف مختار عند محطة الأوتوبيس عائدا إلى بيته تمنى لو تركب معه فتاة حديقة الأندلس كما حدث في المرة السابقة . لم يكن الأوتوبيس مزدحما في هذه المرة ، كانت معظم المقاعد خالية ، وعندما لم يجد فتاة حديقة الأندلس جالسة فيه فكّر في النزول وانتظار أوتوبيس آخر ، ولكنه طرد من ذهنه هذه الفكرة الساذجة . عندما دخل البيت بادره شريف قائلا :

- كيف حال سعيد ؟ .

- عندما رأيته لم أعرفه ، كان شاحب الوجه ، يكاد يكون هيكلا عظميا ، غائر العينين ، ذا نظرات غريبة وكلام فيه حزن وبأس ، يتحدث كثيرا عن الموت ، ومع ذلك سألتني عن نبيلة . يريد أن يعرف ما إذا كانت فرحانة أم حزينة ! .

- أهذه الدرجة يحبها ؟ لم أكن أتصور أن الحب من الممكن أن يحطم إنسانا بهذا الشكل . رينا يكفينا شر الحب الذي من هذا النوع . على فكرة ، ما أخبار البنت الحلوة التي رأيته في حديقة الأندلس ؟ ألم ترها مرة أخرى ؟ .

- رأيته ثلاث مرات .

- أين ؟ .

- في الحلم .

- وماذا حدث بينكما في الحلم ؟ .

- في آخر حلم رأيته راكبة أرجوحة وأنا راكب أرجوحة أخرى جنبها ، وكلا انجبت بأرجوحتهما في اتجاه ، تنجّه أرجوحتي في الاتجاه الآخر .

- ثم ماذا ؟ .

- ثم صحوت من النوم .

- ألم تتحدث معها ؟ .

- لا ، لم أنطق .

- لماذا ؟ .

- نجلت .

- ما هذه البطولة ؟ قم نَمْ فقد تراها .

- تعجب شريف عندما وجد عبد الحميد جالسا في الشرفة المطلة على بيت روحية بعد أن ظل متجنبنا النظر نحو نافذتها عدة أيام ، قال له :
- قل لى يا عبد الحميد ، أمازلت تحب روحية حتى بعد موتها؟ .
- ولآخر لحظة فى حياتى ، حتى نتقابل . كنت أتمنى أن أعرّ على وظيفة ولو بجمسة جنيتها فى الشهر ، لو كنت عثرت على هذه الوظيفة لتزوجتها وكانت الآن على قيد الحياة .
- كل شىء مقدّر يا عبد الحميد .
- فُتح الباب ، ودخل مختار ، رُوّع شريف عندما رأى عينيه محمرتين والدموع تترقرق فيها . سأله بلهفة :
- ما بك يا مختار ؟ ماذا حدث ؟ .
- جلس مختار وقد خبا عينيه بكفّه ولزم الصمت . قام عبد الحميد ووضع يده على ظهر مختار وقال :
- ماذا حدث يا مختار ؟ سلامتك ، طمّنى .
- رفع مختار يده عن عينيه ومسح بها بعض قطرات من الدموع وقال :
- سعيد عزت .
- صاح شريف قائلا بفرع :
- ماذا حدث له ؟
- البقية فى حياتكم ، توفى .
- ساد الوجوم وغمغم شريف قائلا :
- لا حول ولا قوة إلا بالله . لماذا يحدث هذا ؟ استغفر الله العظيم . إنه شخص رقيق مهذب لم يحدث أن جرح شعور أى إنسان ، ومازال صغيرا فى زهرة العمر . استغفر الله العظيم . سأصلى ركعتين .
- قام شريف ودخل غرفته وساد الصمت الذى قطعه عبد الحميد عندما قال :
- وكيف عرفت هذا الخبر المزعج ؟ .
- ذهبت اليوم لزيارته فوجدت سرادقا منصوبا جنب البيت فانقبض قلبي ، سألت ، فعلمت أنه هو .
- على أية حال لا تحزن يا مختار ، ليس الموت بالبشاعة التى تتصورها . الموت راحة . كل مافى الأمر أن الناس يشعرون بالخوف والرهبة من المجهول .
- أنا أرتى لحال أبيه وأمه فهو ابنها الوحيد . كان أبوه واقفا يكلم نفسه .

- ٢٤ -

في جميع أيام الامتحانات يلقي على عبد الحميد عبء إضافي أصعب من الامتحان نفسه ، فهو المكلف بإيقاظ من معه في الموعد الذي يحددونه حتى لا يتأخروا عن الامتحان . كان يضطر أحيانا إلى إلقاء الماء على وجهه شريف لصعوبة إيقاظه ، وكثيرا ما ظل ساهرا حتى الصباح حتى لا تنفوس عيناه في الموعد المحدد ، ولقد حاول في أحد أيام امتحان العام الماضي ضبط المنبّه على ساعة معينة ، ولكن أتضح أن كل من في البيت ، بما فيهم عبد الحميد ، لم يستجيبوا لجرس المنبّه ، ولولا أن عبد الحميد صبحا من تلقاء نفسه في ذلك اليوم بعد فترة قصيرة لضاع منهم الامتحان ، وكانوا يطلبون منه أحيانا الاستيقاظ مبكرين عن الموعد المعتاد لمراجعة بعض أجزاء من المواد . قال عبد الحميد :

- متى تريدون الاستيقاظ غدا ؟ .

قال مختار :

- لا تريد أن نصحو ، سنبقى نائمين حتى المغرب

قال عبد الحميد بدهشة :

- حتى المغرب ١٩ ؟ لماذا ؟ ألا يوجد امتحان غدا ؟ .

- كان اليوم آخر أيام الامتحان ، سأنام وأيقظني بعد شهر .

ضحك عبد الحميد وقال :

- ومتى تظهر النتيجة ؟ .

- بعد أسبوعين أو ثلاثة ، وسأسافر إلى البلد ، ولكن شريفا سيبقى هنا .

- ألم يكن من الأفضل أن تظل هنا أنت أيضا حتى ظهور النتيجة ؟ .

- سيرسل لي شريف تلغرافا عند ظهور النتيجة فأحضر للبحث عن وظيفة .

أطرق عبد الحميد للأرض وقال :

- كنت أتمنى أن أحصل أنا أيضا على وظيفة . هل سأظل طوال حياتي مسكينا هكذا ؟ أريد وظيفة .

بخمسة جنيهات لا أكثر .

- ستعثر على وظيفة قريبا ، وبأكثر من خمسة جنيهات .

- لا ، لست طماعا ، لا أريد أكثر من خمسة جنيهات في الشهر .

ثم أردف قائلا بصوت جاد لا تشوبه أية سخرية وكأنه يستفهم عن شيء في غاية الخطورة :

- قل لي يا مختار ، ألن تشتاق لحديقة الأندلس ؟ .

قال مختار متلعنا :

- حديقة الأندلس ؟ طبعا سأشتاق إليها .

- قل لي بصراحة ، هل تحب هذه البنت ؟ هل تحبها كما أحببت أنا روحية ؟ .

- أخشى أن أقول لك يا عبد الحميد أن حبي لها قد يفوق حبك للمرحومة روحية .

- انتفض عبد الحميد وقال بانفعال وكأن حريقا اندلع في أعماقه :
- ما هذا الذي تقوله ؟ هل تهنئي يا مختار ؟ لم ولن يوجد حب في الدنيا أكثر من حبي لروحية .  
 فزغ مختار ولكنه اعتاد من عبد الحميد مثل هذه الثورات المفاجئة فقال محاولا تهدئته :
- لا تغضب مني ، أنا متأسف ، حبي لفتاتي لا يزيد على حبك لروحية .  
 قال عبد الحميد وقد هدأ في الحال كعادته :
- لكن يا أختي ، كيف تحب فتاة لا تعرف عنها أي شيء ، حتى اسمها لا تعرفه .  
 - الاسم لا يدل على شيء . ألا يعجب الإنسان بزهرة لا يعرف اسمها ؟ ومهما كان اسمها ومهما كانت ظروف أهلها فإنني أحبها ، شيء خارج عن إرادتي .
- قال عبد الحميد وكأنه اكتشف سر الحياة :
- هذا هو الحب ، لا يفهمك سوى شاعر مثلي ، شعورك رقيق كشعوري .  
 - قال مختار بصوت خافت وكأنه يبوح بأمر محظور الإفصاح عنه :
- أنا أيضا أنظم الشعر .  
 قال عبد الحميد وكان هذا التصريح الذي يسمعه من مختار لأول مرة لم يدهشه :
- شخص مثلك له هذا الشعور والإحساس المرهف لابد أن يكون شاعرا .  
 قال عبد الحميد بعد تردد :
- كتبت أغنية سأقدمها للإذاعة .  
 سيطر على عبد الحميد شعور غير مريح لم يستطع إخفاءه فقال :
- الإذاعة ١٩ لا داعي لمسألة الإذاعة هذه ، هل تريد أن تنافسني ؟ .  
 ضحك مختار وقال :
- وهل أنا الوحيد الذي سأنافسك ؟ البلد مليء بالشعراء .  
 ثم أردف قائلا وقد شعر في أعماق نفسه بعطف شديد على عبد الحميد :
- الواقع أنها ليست شعرا ، بل زجلا .  
 - لا يهم ، أمير الشعراء أحمد شوقي بجلال قدره كتب أزجالا غناها عبد الوهاب ، اسمعني أغنيتك .  
 قال مختار بعد أن أطرق للأرض فترة قصيرة :

ياوردة مالك خجلانه	لون الشفق ساكن فيك
خايف أشوفك دبلانسه	تفضل عيوني تبكيك
أنا لى محبوب يشبه لك	في لون خدوده وفن سحره
باحب دايمًا أنظر لك	كل لما أشوفك أفستكره
إنت وحببي تسروا العين	وإن شفتكم يفرح قلبي
باحبكم انتم الاتنين	وإن كنت مش داريه بحبي
لو كنت رَحّ تدبلي مئى	حيقاسي قلبي من بُعدك

وإن كان حبيبي يغيب عني  
قال عبد الحميد بصوت متهدج :  
- أنت موهوب يا مختار . أنت شاعر . أنت فنان .  
ثم اختنق بالبكاء وأردف قائلاً :  
- ستعذب في الدنيا كثيراً ، مثل .  
قال مختار بلهفة وقد رأى الدموع تنساب من عيني مختار :  
- مابك يا عبد الحميد ؟ هل تبكي ؟  
قال عبد الحميد وهو يحفف دموعه :  
- ساحني يا مختار ، ذكرني بروحية .

- ٢٥ -

جلس محمود ، الشقيق الأصغر لمختار ، على كرسي أمام البيت منصتاً إلى صوت مزمار اعتاد سماعه من  
آن لآخر منبعثاً من منزل مرسى الطبال القريب من منزلهم . كان محمود قد انتهى من امتحان النقل من السنة  
الأولى الثانوية إلى السنة الثانية . ارتفع صوت نباح كلاب كاد يطغى على صوت المزمار . التفت مستطعلاً  
سبب هذا النباح المفاجئ فأبصر أخاه مختاراً قادماً نحوه حاملاً حقيبة السفر ، فانطلق يعدو إلى والدته التي  
كانت مرتبعة على الكنبه البلدى في بهو المنزل ليؤف إليها هذه البشرى ويخرج من البيت مسرعاً نحو أخيه  
وهولت خلفه الخادمة مبروكة التي أخذت الحقيبة من مختار قائلة :  
- حمد الله على السلامة ياسيدى مختار .  
- كيف حالك يا مبروكة ؟ هل تزوجت ؟  
ضحكت مبروكة وقد احمر وجهها وقالت :  
- أكلم رأيتنى تسألنى إذا كنت تزوجت ؟ لا ، لم أتزوج .  
كان مختار يتعجب بينه وبين نفسه من بقاء مبروكة حتى الآن بدون زواج ، فهى فتاة في نحو السادسة  
والعشرين بيضاء البشرة رائعة الجمال تقوم منذ طفولتها بخدمة الأسرة .  
عندما دخل مختار ومحمود البيت وخلفها مبروكة ، صافح مختار والدته وتبادلا القبلات . قال مختار :  
- أين باقى أفراد العائلة الكريمة ؟  
فالت والدته مختار :  
- أبوك يحقق مع واحد ضبطوه سارقاً ذكر بط ، ولا أدرى أين ذهب حامد وحلمى .  
- وأين فاطمة ؟  
- فاطمة مع المدرسة تأخذ درسا .  
قال مختار بدهشة ::

- تأخذ درسا ؟ درسا في ماذا ؟ .
- وصلنا خطاب من خطيبها يقول إنها لابد أن تتعلم .
- على رأي المثل . بعد ما شاب أرسلوه للكُتّاب .
- عندما سمعت فاطمة صوت مختار تركت الدرس وأقبلت لترحب به ، قالت :
- من هو الذي شاب .
- ضحك مختار وقال :
- هل سمعيني ؟
- أجل سمعتك ، أهكذا تقول عنى إننى شايبة بمجرد وصولك ؟ والله ما شايب إلا أنت . أنا بينى وبينك أربع سنوات لا غير .
- أهذا هو ترحيبك بي ، ألا تقولين لى حمد الله على السلامة ؟
- قالت مبتسمة :
- حمد الله على السلامة ؟ .
- الله يسلمك ، هل انتهى الدرس ؟ .
- عندما سمعت صوتك تركت الدرس وجئت ، واحتفالا بك لن أكمل الدرس اليوم .
- خيرا تفعلين ، وما هى حكاية الدرس هذا ؟ .
- الله يساعده .
- من هو ؟
- عادل .
- ما به ؟
- حكم على بالتعليم ، يقول إن البنت التى يتزوجها لابد أن تكون متعلمة .
- أنا معه فى هذا الرأى .
- وأنت أيضا توافق على هذا ؟ أمى أنت أم معه ؟ .
- أقبلت المدرسة وأومات برأسها لمختار ولباقى أفراد الأسرة محبة واستأذنت فى الخروج ، وأوصلتها فاطمة حتى باب البيت وتبادلا معا حديثا قصيرا .
- جلس مختار على يمين والدته وجلست فاطمة على يسارها وجلس محمود على كرسى خيزران بالقرب منهم ووقفت مبروكة مبتسمة . قال مختار :
- أنا مشتاق للفطير ( المشلت ) والدجاج المحشو بالأرز ، بطنى أوجعنى من طيبخ عبد الحميد الشاعر .
- قالت الأم :
- اذهبي يامبروكة اذبحي زوجين دجاج واطلبي من جميعة أن تعمل فطيرتين مثلتتين .
- كان محمود صامتا طوال هذا الحوار ، ثم قطع الصمت عندما قال لمختار :
- هل أحضرت ما طلبته منك ؟ .



تظاهر مختار بالنسيان وقال :

- هل طلبت منى شيئاً ؟ .

- أكلت مرة تنسى ؟ .

- هل تقصد ال... .

قال محمود مقاطعاً :

- الأسطوانات .

- قبل كل شيء قل لي ، ماذا عملت في الامتحان ؟

- نجحت .

- مادام الأمر كذلك فلقد أحضرت لك اسطوانتين رائعتين . واحدة لأم كلثوم والأخرى

لعبد الوهاب .

قام محمود بحركة لا إرادية وقال بلهفة :

- أين هما ؟ ماهي الأغاني ؟ .

- اسطوانة أم كلثوم « إن كنت أسامح وانسى الأسيّة » .

- واسطوانة عبد الوهاب ؟ .

- « كلنا نحب القمر والقمر يحب مين » .

- أريد سماعها .

- انتظر يا محمود حتى ألتقط أنفاسي .

دخل حلمي مبتسماً كعادته مرتدياً جلباباً أنيقاً وعلى رأسه طاقية من القماش اتسعت ابتسامته عندما رأى

مختاراً وقال :

- أجيئت يا مختار ؟ .

قال مختار :

- كيف حالك ؟ ماذا عملت في الامتحان ؟ .

- لا بأس ، وماذا عملت أنت ؟

- سأحصل على الدرجات النهائية .

قالت الوالدة :

- قل إن شاء الله .

- إن شاء الله . أين حامدا ؟ .

قال حلمي :

- عند مروري الآن على بيت عبد المعبود وجدته متربعا على كنبه في المنذرة ويغني قائلاً « والذى أسكر

من عرف اللأ .. » وقد تجمع حوله عدد من البنات .

قال مختار :

- زوجته لتهدأ أعصابه .

بعد نحو ثلاثة أسابيع بينما كانت والدة مختار تعد طعام العشاء وفاطمة تملأ وعاء بالماء من المضخة التي في الفناء الداخلى للبيت ومبروكه تطعم الجاموسة والوالد جالسا إلى مكتبه يتصفح بعض الأوراق ومختار يطالع إحدى المجلات وهو جالس على الكنبه البلدى ويجواره محمود ، سَمِعَ طرق على الباب ، فأسرع مختار لمعرفة الطارق ، وجده أحد الحفراء ومعه شاب يرتدى سروالا وقبصا .

قال الحفير :

- هل حضرة العمدة هنا ؟.

- أجل ، ماذا تريد منه ؟.

مد الحفير يده إلى مختار بورقة ومومئا برأسه نحو الشاب قائلا :

- تلفراف أحضره هذا الأفندى .

قرأ مختار التلفراف بلهفة ووضع يده في جيبه ليعطى الحفير والشاب الذى أحضر التلفراف مكافأة فلم يجد في جيبه نقودا . انطلق يعدو ليحضر بعض النقود من سترته . فزع محمود عندما رأى مختارا يجرى فسأله بلهفة :

- ماذا حدث ؟.

ولكن مختارا لم ينطق ، فقام محمود وأسرع خلفه قائلا :

- ماذا جرى ؟ لماذا تجرى ؟.

أعطى مختار عشرة قروش للشاب وحاول إعطاء عشرة قروش للحفير فرفض أخذها وانصرف هو والشاب . قال مختار لمحمود الذى ظل واقفا مشدوها :

- نجحت في الامتحان بتفوق وسأعين معيدا بالكلية .

أسرع محمود بنشر الخبر في البيت ، وذهب مختار ليترف البشرى لوالده بنفسه ، ففرح الأب وباس مختار وتمنى له دوام التوفيق ، وتجمع باقي أفراد الأسرة حول مختار يهشونه . قال محمود :

- أنت وعدتني أنك لو عينت معيدا ستحضر لى اسطواناتين آخرين .

- سأحضر لك خمس اسطوانات .

- وأريد كيانا أيضا .

- سأحضر لك كيانا .

قالت والدة مختار :

- متى تسافر ؟.

- غداً .

- غدا ؟ لماذا لا تبقى معنا بضعة أيام ؟.

- لا بد من الاتصال بالكلية التى سأصبح معيدا فيها .

عندما دخل مختار شقته بالقاهرة لم يجد بها سوى عبد الحميد الذى بدا وكأنه عاد شابا فى الثلاثين . قال لمختار :

- مبروك الوظيفة الجديدة ، شريف قال لى إنك ستعين معيدا فى الكلية .
  - الله يبارك فىك ، وأين ذهب شريف؟ .
  - ذهب إلى الكلية ، هو أيضا سيعين معيدا معك فى قسم الحيوان .
  - هذا أسعد خبر سمعته ، أنا سعيد لبقائنا معا فى الكلية وفى القسم نفسه .
  - هناك خبر أسعد من هذا .
  - قال عبد الحميد بلهفة وفرحة :  
- ماهو؟ .
  - أنا أيضا حصلت على وظيفة !
- لم يصدق مختار وظنها نكتة أطلقها عبد الحميد مجازةً لجو الفرح الذى يسود البيت فى هذه اللحظة ومعبرا بها عن أمنيته الكبرى التى تجيش فى صدره ، قال مختار :
- سوف تعثر على وظيفة أنت أيضا إن شاء الله .
  - قال عبد الحميد وملامح وجهه تنطق بالصدق وكأنه يلوم مختارا على عدم أخذ كلامه على محمل الجد :
  - قلت لك إنى أنا أيضا حصلت على وظيفة ، ألا تفهم؟ .
  - صاح مختار قائلا :  
- غير معقول ! .
  - حقيقة هو غير معقول ، ولكن غير المعقول هنا ، حدث .
  - قال مختار ومازال يساوره الشك فى صدق هذا النبأ :
  - أحقيقةً حصلت على وظيفة يا عبد الحميد؟ .
  - أجل ، أصبحت موظفا ، أنا نفسى غير مصدق .
  - أين؟ وما مرتبها؟ .
  - فى وزارة الأوقاف ، بخمسة جنيهاً فى الشهر .
  - هذه أعظم بشرى سمعتها . مبروك يا عبد الحميد ، ألف مليون مبروك . وكيف حصلت عليها؟ .
  - نظمت قسيمة لوزير الأوقاف ملحته فيها ورفعته إلى السماء ، والواقع أنه رجل طيب يستحق المدح ، فأصدر قرارا بتعيينى فى وظيفة بخمسة جنيهاً فى الشهر .
  - ثم أطرق للأرض وقال :
  - ولكن هناك أمرا يضايقنى .
  - ماهو؟ .

- عندما وصلت أمس إلى مقر عملي . نظر إلى رئيس العمل وقال « أنت تأخرت نصف ساعة » ، قلت له « إسمع ، أظن نفسك رئيساً عليّ؟ أظنني موظفاً لتقول لي تأخرت أو لم تتأخر؟ أنا عينت هنا لأقبض الخمسة جنيهات ولا شيء غير ذلك » .

ضحك مختار وقال :

- أمرك عجيب ، لقد حصلت على هذه الوظيفة بصعوبة وكان هذا أقصى ماتمناه ، إياك أن تتشاجر مع رئيس العمل كما تشاجرت مع ناظر المدرسة فترفت من هذه الوظيفة أيضاً .

- ربنا يستر .

- لا . أرجوك ، امسك هذه الوظيفة بيدك وأسنانك .

- هأنذا ممسك بها .

سما خطوات على السلم تقرب . فقال عبد الحميد :

- يجيل إلى أن هذه خطوات شريف .

هنا مختار وشريف كل منهما الآخر ، وقال شريف :

- كنت في الكلية وعلمت أن الدكتور كامل منصور يبحث عنا نحن الاثنين ، وعندما قابلته أخبرني أننا

عيننا معيدين بقسم علم الحيوان ، أي أننا سنعيش معا ونموت معا . وعبد الحميد أيضاً حصل على وظيفة .

- أنا فرحت لعبد الحميد أكثر مما فرحت لنفسى .

- وأنا أيضاً .

قال عبد الحميد :

- وكيف تحتفل بهذه المناسبة السعيدة ؟ لو كانت معي فلوس لدعوتكما للعشاء في أفخم مطعم .

قال مختار :

- فلتكن هذه الدعوة مني أنا .

قال شريف :

- نرجي هذه الوليمة للغد والليلة أدعوكما لشيء آخر ، ماذا تقترح يا عبد الحميد؟ .

- نشاهد مسرحية « كرسى الاعتراف » بمسرح يوسف وهبي .

قال شريف :

- بكم التذكرة !

قال عبد الحميد :

- بخمسة قروش .

- ٢٧ -

بدأ العام الدراسي ، وشعر مختار بنشوة ورهبة في الوقت ذاته ، إذ أنه سيقف للتدريس في المكان الذي كان طالبا فيه منذ شهور قلائل . كان أول درس في جدول مختار لطلبة وطالبات السنة الأولى . رأى أن أفضل وسيلة للقضاء على رهبة الموقف هي الاستعداد الجيد وأن يكون في ذهنه أضعاف ماسيقوله . عندما حان موعد الدرس دخل مختار بخطى ثابتة ووقف أمام السبورة وبدأ يتكلم بلغة انجليزية سليمة قائلًا :

- اليوم سندرس الشكل الخارجى وتجويف الفم للصفدعة . يتكون جسم الصفدعة من رأس وجذع ، ولا توجد منطقة رقبة .

هذا غير معقول . لن أستطيع تكلمة الدرس . لقد بدأ جسمى يرتعش أمام الطلبة والطالبات . إنها هي . هي البنت التي رأيتها في حديقة الأندلس . البنت التي أبحث عنها في جميع أنحاء القاهرة . أصبحت طالبة عندى وأنا المعيد الذى سأدرس لها . هذا غير معقول .

كان عدد الطلبة في المجموعة التي يدرس لها نحو عشرين طالبا وأربع طالبات جلسن في الصف الأول من المعمل . استجمع كل مالمديه من شجاعة وحاول السيطرة على مشاعره واستمر في الشرح حتى انتهى منه .

عندما ذهب إلى غرفة المعيدين بعد انتهاء حصّة العملى تعجب شريف عندما رأى مختارا شاحب الوجه شارداً الذهن فسأله :

- كيف الحال ؟ هل شرحت الدرس كما ينبغي ؟.

بعد أن أسرع مختار بالجلوس لاحظ شريف رعشة خفيفة في يده . قال مختار :

- سأخبرك بشيء عجيب قد لا تصدقه .

- ماهو؟.

- البنت التي رأيتها في حديقة الأندلس ، رأيتها اليوم .

قال شريف بدهشة :

- رأيتها اليوم ؟ أين ؟.

- في المعمل .

- هنا في الكلية ؟

- أجل ، في المجموعة التي كنت معها الآن .

- غير معقول ، وماذا فعلت ؟

- طار من دماغى الدرس الذى ظلت أستعد له طوال الأمس وتفصّد العرق من جبهتى ووجهى

وأسرعت دقات قلبى وأصبحت في حالة يرثى لها . لست أدري ماذا أفعل .

- وهل ظلت طوال المدة مرتجفا بهذا الشكل ؟ ألم تتكيف مع الموقف وتسيطر على تصرفاتك ؟
- كانت مفاجأة عنيفة بالنسبة لى
- هل ترغب فى تغيير المجموعة ؟ تتبادل معى ، أنا آخذ مجموعتك وتأخذ أنت مجموعتى .
- لقد أرسلها الله عندى . فهل أتركها وانتقل لمجموعة أخرى ؟.
- شىء عجيب ، ولكلك سوف تعناد الموقف . وعلى أية حال إنها فرصة ذهبية لتعرف عنها كل شىء .
- مادمت تنوى الزواج منها .
- أظن أنها تقبل الزواج منى ؟
- ولماذا لا تقبل ؟ أين تجد من هو أفضل منك ؟ لكن قل لى ، ألم تكلمها ؟
- لا ، لم أكلمها .
- وهى ، ألم تسألك أى سؤال ؟.
- لا ، لقد وضعت الضفدعة أمامها وانشغلت بالرسم ولم تنطق .
- ألم تعرف اسمها ؟
- اسمها درية . لم أكن أتصور أن اسمها درية ، منظرها لا يدل على أن اسمها درية . كان يجبل إلى أن اسمها ليلى . لست أدرى لماذا سيطرت على هذه الفكرة .
- لتصبح أنت مجنون ليلى ، ولكلك أصبحت مجنون درية .
- ولماذا أكون مجنونا ؟ هل الحب مجنون ؟.
- ما اسمها الكامل ؟.
- درية حسن رضوان . اسم عادى ، من يسمعه لا يتصور أنه اسم أجمل بنت على سطح الكرة الأرضية .
- أريد أن أراها .
- أنسيت أنك رأيتها لقد رأيتها وهى تركب الأوتوبيس عند خروجنا من شبرد يوم وليلة عبد الحميد الشاعر .
- لم أر سوى ظهرها فى ذلك اليوم . اسمع ، سأمرُّ عليك فى درس العمل وأرني إياها .
- لو دخلتُ العمل ورأيت البنات فسوف تعرفها من تلقاء نفسك ، أجمل بنت ستكون هى .
- ألم يبدر منها مايدل على تذكرها لك ؟.
- لا تتذكرنى على الإطلاق ، كأنها لم ترى .
- شىء عجيب أن يرى الإنسان فتاة ولا تغيب عن ذاكرته أياما وليالى ويراها فى أحلامه فى حين أنها طوال هذا الوقت لم تكن تفكر فيه ولا تذكر عنه شيئا .
- منظرها يدل على أنها فتاة مهذبة ونبيلة .
- ذكرتنى ، نبيلة غينت هى أيضا معيدة فى قسم النبات ، وعين حسين صالح معها فى القسم نفسه .
- هل تعلم أين ذهب رشاد زهدى ؟.

- لا ، لا أعرف .
- هل تصدق أنه عيّن مدرسا في مدرسة ثانوية للبنات؟!؟
- وهل يؤتمن رشاد على بنات يدرس لهن؟
- مهزلة من مهازل القدر .
- متى ستري درية؟
- يوم الثلاثاء ، في درس العمل . يتتابنى شعور غريب .
- ماهو؟
- إننى بفارغ الصبر انتظر اللحظة التى سأراها فيها ، وفى الوقت ذاته أشعر بخوف كلما اقترب موعد رؤيتها ، لست أدرى لماذا .
- يبدو يا مختار أن هذه البنت ستكون من نصيبك ، منذ شهور وأنت تبحث عنها ثم تجدها هنا وقد أصبحت من تلاميذك ، إنه ترتيب من الله .
- هل تعتقد أن فتاة بهذا الجمال والكمال تكون حتى الآن غير مرتبطة بشخص آخر؟ أخشى أن تكون مخطوبة .
- لا ، لا تخف . حاول أن تكلمها ، هل ستظل هكذا كالأبكم؟ ألن يفتح الله عليك بكلمة تقولها لها؟
- ربنا يسهّل ، لست أدرى لماذا تُسرّع دقات قلبي ويتفصّد العرق من وجهي كلما جاولت التحدث معها
- أَدعو الله أن يفك عقدة لسانك .
- سأحاول التحدث معها يوم الثلاثاء القادم . لا بد من التغلب على الخوف والتجمل .

## - ٢٨ -

في مساء يوم الإثنين ، استعد مختار جيدا للدرس الذى سيلقيه على طلبة السنة الأولى غدا . وشعر بأن رهبة لقاءه بدرية طغت على فرحته بهذا اللقاء . ظل يفكر في كيفية بدء حديثه معها ، هل يترك ذلك للظروف أم يخطط له تخطيطا دقيقا؟ وأخيرا قرر عدم التخطيط لاعتماده بأنه سوف ينسى كل شيء عند رؤيتها .

وقف يشرح طريقة تشريح الأحشاء العامة للصفحة ونحاشى على قدر الإمكان النظر لدرية موحيا لنفسه بأن يتصرف وكأنها غير موجودة ، ولكن دون أن يشعر ، حانت منه التفاتة نحوها فوجدتها في هذه اللحظة ناظرة لكراستها منهمة في نقل الشكل الذى رسمه على السبورة ، فارتاح لعدم التقاء عينيه بعينيه انتهى من الشرح وبدأ الطلبة والطالبات التشريح مسترشدين بالملاحظات التى ذكرها لهم والرسم الذى

تركه على السبورة . سار بين صفوف الطلبة والطالبات ناظرا إليهم في أثناء قيامهم بعملية التشريح ، وتعهد أن يسأل عددا منهم بعض الأسئلة

عندما وصل إلى درية وجدها مستغرقة في التشريح ورأى تشريحها نظيفا فلم يجد ما يستدعي توجيه أى سؤال إليها . تركها وجلس فترة خلف الطلبة جنب النافذة . ثم قام وواصل جولاته في انتظار ما قد يوجّه إليه من أسئلة واستفسارات حتى وجد نفسه مرة أخرى أمام درية فخرجت الكلمات من فمه بطريقة لا إرادية وكأن شخصا آخر بداخله هو الذى يتكلم :

- ما اسمك ؟
- دون أن ترفع نظرها عن طبق التشريح قالت :
- درية .
- درية ماذا ؟
- وهي مستمرة في التشريح :
- درية حسن .
- درية حسن ماذا ؟
- درية حسن رضوان .
- رسمك جميل وخطك أنيق وتشريحك نظيف
- نظرت إلى كراسيها ثم إلى طبق التشريح وقالت وهي ناظرة إلى الضفدعة المفتوحة البطن :
- متشكرة .
- استجمع شجاعته وقال :
- ألا تذكرين أنك رأيتني قبل الآن ؟
- نظرت إليه نظرة خاطفة ثم قالت :
- قبل الآن ؟ متى ؟
- في الربيع الماضى ، وتحدثت معى .
- بدت عليها الدهشة واتسعت عيناها الخضراوان وقالت :
- أنا رأيت حضرتك وكلمتك ؟ أين ؟
- فى حديقة الأندلس .
- اتجه بصرها نحو النافذة دون أن تحرك رأسها وبدت وكأنها تفكر تفكيرا عميقا ثم نظرت إليه وقالت :
- الحقيقة ، أنا لا أذكر .
- ولكننى أذكر جيدا تلك اللحظة ، كان معك يومها أخوك الصغير .
- قالت بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها :
- لابد أنه سمير .



- كان مع أخيك قوس وسهم يلهو بها ، وكنت جالسا في الحديقة أذاكر . وأصابني سهم أخيك في صدري واعتذرتِ أنتِ لي .  
- سرحت بفكرها قليلا ثم قالت :  
- أجل ، أجل ، حقيقةً .  
- هل تذكرتِ ؟  
- أجل تذكرت ، ولكنني في الحقيقة لم أنتبه للمامح حضرتك ، العجيب أن حضرتك مازلت تتذكر هذه المسألة النافهة .  
- بل العجيب أنك لا تذكرين شيئا عن هنا اللقاء .  
- أنا لم أهتم بهذه المسألة ، لقد صدر من أخي تصرف يتسم بقلة الذوق فأردت أن أعلمه الذوق . هذا كل ما في الأمر ، ثم نسيت كل شيء عن الموضوع .  
قال مختار وقد شعر بجزن عميق وخيبة أمل :  
- يبدو أن ذاكرتي أقوى من ذاكرتك .  
رفع أحد الطلبة يده طالبا استفسارا . وضع مختار يديه في جيبي معطفه الأبيض كعادته وسار نحو الطالب .

## - ٢٩ -

عندما انتهت فترة العمل وخرج مختار من المعمل شعر بجزن غامض لا يعرف سببه . جلس في غرفة المعيدين يتصفح كتابا ، وبعد لحظات دخل شريف بعد أن انتهى من حصة العمل لمجموعة أخرى من السنة الأولى حيث كان يقوم بتدريس الجهاز نفسه الذي شرّحه مختار لمجموعته . لاحظ شريف وجوما على وجه مختار فسأله :  
- هل كلمتها ؟  
- أجل ، كلمتها ، ولكن حدث الشيء نفسه ، تفصّد العرق من جبهتي ووجهي وأسرعّت دقات قلبي ، ويبدو أيضا ، والله أعلم ، أن وجهي اصفر لونه .  
- وما الذي تنوي عمله ؟  
- لست أدرى ، أفكر في زيارتهم في منزلهم وطلب يدها من أبيها .  
- بهذه السرعة .  
- خير البر عاجله .  
- لا يا مختار ، لا تتعجل ، أتريد أن تفعل كما فعل عبد الحميد الشاعر أم ماذا ؟ هذه المسألة تحتاج للتأني . فلنترك هذا الآن ونتحدث في المهم ، هل فكرت في موضوع بحث الماجستير ؟

- أفكر في دراسة موضوع تحت إشراف الأستاذ إفلاطون بك ، وهل فكرت أنت في شيء؟ .
- سأذهب للدكتور كامل منصور وأترك له اختيار نقطة البحث .
- يجب أن نركز كل اهتمامنا في البحث العلمي . لا بد من الحصول على الماجستير في أقرب وقت لنبدأ بعد ذلك في بحث الدكتوراة . أنت تعرف أن الجامعة تنقل كل من لا يحصل على الدكتوراة في مدة معينة إلى وظيفة أخرى خارج الجامعة .
- أنا شخصيا مغرم بالبحث العلمي . أريد أن أنجز بحثا يهز العالم .
- هيا أرنا هنتك .
- لكن هناك شيئا يحيرني .
- ماهو؟ .
- مشكلة الوجود والعدم . هنا هو الموضوع الحقيقي الذي يشغل ذهني .
- مرة أخرى؟ ألم تنس هذه المسألة؟ .
- هذا الوجود كله ، كيف جاء من العدم؟ هذا الكون الذي حولنا ، الأجرام السماوية ، المجرات ، النبات ، الحيوان ، الإنسان ، وهذه المواد الصلبة ، كيف جاءت من العدم؟ إنني أواصل قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتابات العلماء والفلاسفة ، وكلما أتعلم في القراءة أزداد جهلا .
- أنت تابع نفسك بلا داع ، صدق من قال « أصحاب العقول في راحة » .
- لا ، ليس أصحاب العقول هم الذين في راحة ، بل الجهلاء هم الذين في منتهى الراحة . أصحاب العقول تتعبهم عقولهم ، « ذو العقل يشقى في النعم بعقله . أوأخو الجهالة في الشقاوة ينعم » .

### - ٣٥ -

- كان الهدوء ينجم على حارة البحرى عندما شعر مختار وهو مندمج في المذاكرة بأن الضوء لم يعد كافيا للقراءة فقام وأدار مفتاح النور فانبعث الضوء من المصباح الوحيد المدلى من سقف البهو وعاد مختار لمواصلة المذاكرة فوق منضدة الطعام التي يستخدمها أحيانا للمذاكرة في غير أوقات الأكل الرسمية .
- شعر مختار بأن شخصا يقف جنبه ، نظر فوجده شريف الذي بدا وكأنه يريد أن يقول شيئا ولكنه انسحب وجلس على الكنبه البلدى . وبينما يواصل مختار مذاكرته سمع شريف يقول :
- اسمع يا مختار ، أود التأكد من شيء .
  - ماهو هذا الشيء؟ .
  - إذا خطب المعيد طالبة من الكلية وتزوجها ، فهل تفصله الكلية وتعاقبه؟ .
  - تعجب مختار من هذا السؤال .
  - لماذا يوجه إليّ هذا السؤال العجيب؟ إنه يعلم أنني أحب درية وأرغب في الزواج منها ، فهل هو تحذير لي من الإقدام على هذه الخطوة؟ .

أدار مختار الكرسي نحو شريف وقال :

- تكون مصيبة لو عوقب المعيد الذي يتزوج إحدى الطالبات ، إذ في هذه الحالة يحرمون على الزواج من درية ، وأعتقد أن المعيد لا لوم عليه إذا تزوج من أية طالبة مادام ملتزماً بالسلوك السليم ، فالزواج رباط مقدّس ينبغي أن يحترمه الجميع . لماذا تسألني هذا السؤال ؟ .

- لأنني أفكر في شيء .

- فم تفكر ؟ .

- تعجبني طالبة في المجموعة التي أدرس لها في السنة الأولى وأتمنى أن تكون زوجتي .

كان هذا آخر ما يخطر ببال مختار ، لم يكن يتصور أن شريفاً من الممكن أن يعجب بأية فتاة ، قال :

- ماذا حدث لك ؟ هل وقعت في مصيدة الحب أنت أيضاً ؟ .

- كنت أستهزئ بالحب ، ولكن يبدو يا أخي أنه حقيقةً يوجد شيء اسمه الحب ، بدأت الآن فقط أفهم

شعورك نحو درية .

- ومن هي سعيدة الحظ هذه التي أدخلتك المصيدة ؟ حذار أن تكون درية .

- لا تخف ، ليست درية . غريب يا أخي أمر هذا الحب . أنا لا أشعر بأية عاطفة نحو درية التي توشك

أنت أن تعيدها ، ولكن عندما أرى هذه الطالبة أشعر بالإحساس نفسه الذي تشعر به أنت عندما ترى

درية .

- لم تقل لي من هذه الفتاة .

- بنت اسمها مريم .

- وما الذي تنوي عمله ؟ .

- لست أدري ، هذه المسألة أتعبتني وحيرتني وقلبت كل التخطيط الذي كنت قد وضعت له لحياتي . عن

إذنك .

انتفض واقفاً ، فقال له مختار :

- إلى أين أنت ذاهب ؟ .

- كنت سأسهو عن موعد الصلاة .

استأنف مختار النظر إلى الكتاب ولكن فكره انشغل بدرية .

- ذهب مختار إلى المعمل الذى يُدرّس فيه شريف وهمس في أذنه قائلا :
- أين مريم هذه ؟ .
- الجالسة في الصف الثانى جنب النافذة ، ذات الرداء الأصفر ، ما رأيك فيها ؟ .
- لا بأس بها .
- قال شريف بدهشة :
- تقول لا بأس بها ؟ ! أنا أراها أجمل بنت في الدنيا .
- هل تحدثت معها ؟ .
- أجل ، وعرفت شيئا عجيبا لم أكن أتصوره .
- ماذا عرفت ؟ .
- اتضح أن أباهما هو الأستاذ عمر صابر الذى كان يُدرّس لى العلوم الرياضية في المدرسة الثانوية .
- قال مختار وقد شعر بشيء من الألم :
- يبدو أن الله ميسّر لك الأمور ، هذه العلاقة سوف تسهّل لك الموضوع .
- طلبتُ منها أن تسلم لى على أبيها .
- وماذا قالت لك ؟ .
- قال شريف مبتسما شاعرا بسعادة ونشوة :
- قالت لى « الله يسلمك » .
- وكيف عرفت أن أباهما كان معلمك ؟
- هى التى أخبرتنى .
- كيف ؟ .
- كانت تتحدث عنى في بيتها ، فقال لها أبوها إنه كان يدرس لى في المدرسة الثانوية .
- أنت شخص محظوظ .
- قال شريف وفي حديثه رنة لم يسمعها منه مختار من قبل :
- سأزورهم لأسّلم على أبيها .
- قال مختار بدهشة :
- تزورهم لتسلم على أبيها ؟ ! .
- أجل ، هى التى طلبت منى ذلك .
- هل تعلم هى أنك .. أنك معجب بها ؟ .
- لم أتحدث في هذا الموضوع ، ولكن إذا كانت هى استتجت ذلك فلا لوم علىّ .
- وهل تنوى زيارتهم حقا ؟ .
- ولماذا لا أزورهم ما داموا هم الذين طلبوا منى ذلك ؟ وأنت ، ألا تعرف شيئا عن والد درية ؟ .

- الشيء الوحيد الذى أنا متأكد منه هو أنه لم يكن معلمى .
- ألا تعلم شيئا عن عائلتها ؟ .
- لا أعرف سواها .

فى الموعد المحدد كان شريف واقفا عند بيت مريم يضغط على زر جرس الباب بلا رهبة أو خجل .  
شاعرا بفرحة ونشوة لم يشعر بمثلها من قبل ، ولا شيء فى ذهنه سوى رغبته فى رؤية مريم والتحدث معها .  
فتحت الباب خادمة فى نحو العشرين ترتدى ثوبا نظيفا ، قادتة إلى غرفة الصالون ذات الكراسى المذهبة .  
جلس وعيناه مصويتان نحو باب الغرفة . بعد دقائق دخل والد مريم فانتفض شريف واقفا وتصافحا بحرارة  
وجلسا . قال الأستاذ عمر صابر :

- شرفت وآنت ياأستاذ شريف
- حفظك الله وأبقاك . إنها فرصة سعيدة التى أتاحت لى رؤية أستاذى الذى أحبه وأقدّره .
- فرصة سعيدة لى أنا أيضا . هكذا دارت الأيام وأصبحت أنت أستاذ لابنتى .
- هذا يشرقى . أين الآنسة مريم ؟ .
- موجودة .
- ثم رفع صوته مناديا :
- يامريم .
- قالت وكأنها كانت عند باب الغرفة :
- نعم بابا .
- تعالى سلمى على أستاذك .
- قال شريف مبتسما :
- أستاذها ؟ إننى مازلت معيدا صغيرا .
- سوف تصبح أستاذا عظيما ، اسمك دائما على لسان مريم ، لا تكف عن الثناء عليك .
- وأنا معجب بتفوقها فى التشريح واجتهادها ودقة رسمها .
- وهى تقول عنك إنك ممتاز فى كل شيء .
- دخلت مريم واتجهت نحو شريف مبتسمة وصافحته قائلة :
- أهلا وسهلا .
- أهلا بك ، سلامات .
- الله يسلمك .
- قال والد مريم :
- الأستاذ شريف يبنى عليك كثيرا ، يقول إنك مجتهدة .
- جلست مريم ثم قالت وهى مطرقة للأرض :
- هذه شهادة أعتز بها ، ومادام الأستاذ ممتازا فلا بد أن تكون تلميذته مجتهدة .

- قال شريف :
- ليس بالضرورة . فالأستاذ يدرّس لعدد كبير من الطلبة ، منهم من ينجح ومنهم من ينجب .
  - وهل تعتبرى حضرتك من المجتهدين ؟
  - أنت ممتازة فى كل شىء .
  - أشكرك جزيل الشكر على حسن ظنك .
- قال والد مريم :
- أتمنى أن تظلى مجتهدة ليستمر رضاء الأستاذ شريف عنك .
  - حانت اللحظة الحاسمة فشعر شريف بشىء من الرهبة ، قال لوالد مريم :
  - أنا الحقيقة جئت اليوم لأمر يهمنى .
  - ثم أطرق لحظة نحو الأرض وأردف قائلاً :
  - أود أن أقول شيئاً ل حضرتك .
  - استشعرت مريم ماسوف يقوله شريف فاستأذنت وغادرت الغرفة . قال والد مريم :
  - ماذا تود أن تقول ياأستاذ شريف ؟
  - جئت لأطلب من حضرتك يد الآنسة مريم .
  - لم يستطع الأب إخفاء الفرحه التى جاشت فى أعماقه وبدت فى ملامح وجهه ، قال :
  - وهل ستجد مريم من هو أحسن منك ؟ أنا أعرفك منذ كنت تلميذى .
  - المهم رأى مريم .
  - اطمئن من هذه الجهة ، الثناء عليك الذى أسمع منه يدل على إعجابها الشديد بك . أتمنى لكما السعادة من كل قلبى وأدعو لكما بالتوفيق .
  - إذا كان الأمر كذلك فهل من الممكن تحديد موعد للخطوبة ؟
  - كما تريد ، متى تحب أن يكون ؟
  - خيرُ البرِّ عاجله ، فليكن يوم الخميس القادم .
  - هل من الممكن تأجيله للخميس الذى يليه ؟
  - وهو كذلك ، لا مانع لى .
  - كانت مريم طوال هذه الفترة تسترق السمع خلف الباب . هزتها الفرحه ونجّلت من دخول الغرفة ، فانطلقت تنقل النبأ إلى أمها .

- ٣٢ -

ظل شريف متكئا تفاصيل زيارته لمريم وقال مختار إن الغرض منها لم يكن سوى مجرد السلام على والدها باعتباره أحد أساتذته ، وظل من آن لآخر يزور مريم في بيتها دون أن يخبر مختارا بذلك . في الموعد المحدد تمت إجراءات الخطوة وفي اليوم التالي فوجئ مختار برؤية الدبلة في إصبع شريف الذي برر تكتمه للنبا قائلا :

- أنا الحقيقة رأيت أن تتم جميع الإجراءات في السروفي أضيق نطاق ، إذ أنني حتى الآن لا أدري ماذا سيكون وقعها بالنسبة للطالبات والطلبة والأساتذة ، فهذه أول حالة خطوة تتم بين معيد وطالبة في الجامعة .

- هل أخبرت عبد الحميد ؟ .

- لا ، لم أخبره بعد .

صاح مختار مناديا :

- يا عبد الحميد ، عبد الحميد .

أقبل عبد الحميد مهرولا ، قال له مختار :

- بارك لشريف .

- مبروك يا شريف ، لكن أبارك له على ماذا ؟

- شريف خطب ولبس الدبلة .

لم يبد على عبد الحميد أىّ حماس للنبا وقال :

- ألف مبروك ، ولو أنني لا أدري سر هذه اللهفة على الزواج . ألم يكن من الأفضل أن تنتظر حتى أتزوج أنا أولا ؟ الزواج كالترقية في الوزارة ، لا بد أن يتم بالأقدمية المطلقة .

قال شريف :

- كله قسمة ونصيب يا عبد الحميد ، عقبالك إن شاء الله . لو كنا من الشبان إياهم لما فكرنا في الزواج بهذه السرعة .

قال مختار :

- ينجيل إلى أن هذا الخبر عندما يشيع في الكلية سيكون كانهفجار قنبلة .

كان في غرفة الطالبات بالكلية يوم إعلان النبا خمس طالبات يثرثون .

دخلت طالبة وقالت :

- ألم تعلمن ؟ .

قالت إحدهن :

- نعم ماذا ؟ .

- مريم خطبت ولبست الدبلة .

ظهرت الدهشة على وجوه الطالبات وقالت إحداهن بعد أن هدأت صدمة المفاجأة :

- خطبت لمن ؟

- لشريف المعيد بقسم علم الحيوان

قالت إحداهن :

- مسكينة .

قالت أخرى :

- ألم تجد غير هذا المعيد ثقيل الظل ؟ .

قالت أخرى :

- ولماذا تسرعت ؟ ألم يكن من المستحسن التأمي ؟

قالت الطالبة التي حملت إلبين النبأ :

- هيا نهشها .

قالت أخرى :

- نهشها أم نغزبها ؟

- لست أدري ماذا أعجبها فيه .

- أو ماذا أعجبه فيها .

وضحك جميعا ضحكات عصبية .

بجئ عنها فوجدتها واقفة تاكل شطيرة أمام بوفيه نادى الكلية . قالت لها إحداهن بسخرية :

- مبروك يا مريم ، كنا ننتظر منك أن تدعينا في حفلة الخطوبة .

- كانت حفلة عائلية بسيطة . سأدعوكم إن شاء الله عند عقد القران .

قالت إحداهن :

- لكن ، ما الذى أعجبك في شريف هذا ؟

وضحكت ضحكة مفتعلة . قالت مريم :

- لا أرى أى عيب في شريف .

قالت إحداهن :

- إنه ثقيل الظل .

انفجرت يضحكن وتجهم وجه مريم وتمنت أن تطلق عليهن الرصاص . ولكنها سيطرت على مشاعرها

وقالت بهدوء :

- شريف ثقيل الظل ؟ على العكس ، إنه ظريف للغاية ومهذب إلى أقصى حد .

- واحدة مثلك كان من الممكن أن تتزوج من هو أفضل منه .

قالت مريم :

- لو أن شريفا تقدم لخطبتك أنتِ يا عزيزة ، هل كنت ترفضينه ؟ .



قالت وهي تحرك رقبته بيينا وشيالا :  
- طبعا كنت أرفضه ، من هو شريف هذا ؟  
قالت مريم بانفعال لم تستطع كبح جياحه :  
- إنه الحقد والغيرة . أنتن بالصراحة غياري متى .  
قالت ذات الرقبة المتحركة :  
- أنغارُ منك نحن ؟ يبدو أنك مغرورة للغاية .  
- أنا لا أعرف المغرور . أنتن بالصراحة غياري لأن شريف اختارني ولم يختَر واحدًا منكن ، هذه هي الحقيقة المرّة .  
شعرت مريم بجفاف في حلقها فلم تستطع الاستمرار في الأكل . تركت ما تبقى من الشطيرة وغادرت النادي غاضبة .

### - ٣٣ -

بدأ شريف يفكر في العمل على تحقيق أمنية مختار ، فلقد شعر بعد إتمام إجراءات خطوبته لمريم وكأنه كان يسير مع مختار في طريق موحش طويل ، يأتس كل منها بالآخر ، ثم تخلى عنه بغتة وتركه وحيدا يقاسي من الوحدة ووحشة الطريق .  
ذات مساء ، عندما كان شريف عائدا من زيارة خطيبته مريم ، وجد مختاراً جالسا في السرير مستندا بظهره وفي يديه إحدى الكراسيات ولكنه شارد الذهن .  
سأله شريف :  
- وأنت يا مختار ، ألا تنوى خطبة درية .  
قال مختار وقد بدا وكأنه ينظر إلى لا شيء :  
- خائف .  
- مم ؟ .  
- لا أدري حقيقة شعورها نحوي . كلامها معي لا يدل على وجود أية عاطفة .  
- اسمع . سأطلب من مريم أن تكلمها ونجس نبضها . مريم ودرية لا تخفى إحداهن شيئا عن الأخرى .  
نظر مختار إلى شريف وفي عينيه نظرة رجاء واستعطاف وقال :  
- لينها تفعل ذلك ، إنها أعظم خدمة تقدمها لي .  
- اطمنن ، سأحمل إليك الخبر اليقين .  
في مساء اليوم التالي عندما كان شريف في بيت مريم قال لها :  
- شريف يريد أن يخطب درية .

- قالت مريم بفرحة صادقة :
- أحقيقة؟ وهل عرّفت درية؟
- لا ، مختار خجول وشديد الحساسية ولا يجرؤ على التحدث معها في هذا الموضوع ، فهو حتى الآن لا يعرف حقيقة شعورها نحوه .
- درية بنت رائحة ، سُسِّعِد مختاراً .
- وأنا على يقين من أنها ستكون سعيدة معه ، فهو إنسان ممتاز .
- اترك هذه المسألة على الله وعلىّ أنا .
- انتهرت مريم فرصة انفرادها بدرية في غرفة الطالبات وقالت لها :
- عندي خبر سعيد لك يادرية .
- قالت درية بلهفة :
- ماهو يا ترى؟
- مختار يريد أن يخاطبك .
- شعرت مريم بشيء من خيبة الأمل عندما قالت لها درية :
- ظننته خبراً أهم من ذلك ، وكيف عرّفت؟
- أبدي رغبته هذه لشريف ، مارأيك؟
- أنا الحقيقة يامررم لا أفكر في الزواج الآن . أنا التحقت بالكلية لأتعلم لا لأتزوج . التفكير في الزواج في الوقت الحالي سابق لأوانه .
- هل أفهم من هذا أنك ترفضين طلبه؟
- افهمي كما تريدن يامررم ، وعلى أية حال من المفروض في مثل هذه الأمور أن يذهب إلى البيت ويكلم والدى .
- حيرتيني ، أنا لا أفهم ماذا تريدن بالضبط .
- لا شيء ، كل ما أستطيع قوله لك هو أنني لا أفكر في الزواج ، بل أفكر في الدراسة . الدراسة في نظري أهم من كل شيء .
- قولي لي بالصراحة ، هل يوجد شخص آخر في حياتك؟
- لا شيء في حياتي سوى الدراسة والمذاكرة والعلم .
- ثم أردفت قائلة :
- فهمت الآن شيئاً .
- ماذا فهمت؟
- عرفت لماذا يكلمني كثيراً في المعمل ويتطوع بتفهمي أشياء لست في حاجة إلى من يشرحها لي . أنا على أية حال لا أفكر إطلاقاً في موضوع الزواج .
- الإنسان ، أحياناً ، يندم بعد ضياع الفرصة .

- أنا لن أندم ، مازالت أمامي فرص عديدة ، مازلت صغيرة ، لم أبلغ سنَّ اليأس .  
- لن تجدي إنساناً يحبك كما يحبك مختار ، لقد أحبك منذ اللحظة التي رأك فيها في حديقة الأندلس .  
كان يسير في شوارع القاهرة يبحث عنك . الإنسان لا يعثر بسهولة على شخص يحبه كل هذا الحب .  
- هذا شعوره هو ولا شأن لي به ، المهم شعوري أنا نحوه . إنه بالنسبة لي ماهو إلا معيد كجميع المعيدين ، لا يتميز عن أى واحد منهم .

شعرت مريم بحزن عميق وعطف شديد على مختار . قالت وكأنها تحدث نفسها :  
- ستكون صدمة عنيفة لمختار . مسكين يا مختار .  
تفصّد العرق من وجه مختار وشعر بدوار خفيف عندما سمع تفاصيل هذا الحديث من شريف وغمغم قائلاً بصوت مرتجف :

- هل أعتبر هذا رفضاً لطلبي ؟ .  
قال شريف محاولاً تخفيف وقع الصدمة :  
- لا ، إطلاقاً ، لا يمكن اعتباره رفضاً ، يخيل إليّ أنه نوع من الدلال ، لا تود أن تبدو بمظهر الملهوفة على الزواج .  
- أتظن ذلك ؟ .

- أجل ، وأنت أيضاً لا ينبغي أن تُشعرها بلهفتك عليها . البنات عندما يستشعرن اللهفة والحب العنيف من أحد الرجال ، يحولهنّ التلذذ بتعذيبه . جميع النساء في أعماقهنّ ميولٌ سادية .

- هل يعنى هذا أن درية تود تعذيبى ؟ .  
- لا أقصد ذلك . إنها تريد التأكد من حبك لها .  
فزع شريف عندما رأى الشحوب الذى طرأ على وجه مختار فصاح قائلاً :  
- لماذا اصفرَّ وجهك هكذا ؟ ينبغي أن تتصرف تصرف الرجال لا تصرف الأطفال .  
حاول مختار السيطرة على مشاعره بكل ما يملك من إرادة ولكنه لم يستطع التغلب على الحزن وخيبة الأمل فقال :

- كنت أعتقد أن الأقدار جمعتنا ليكون بيننا رباط مقدس .  
ثم تهدج صوته عندما أردف قائلاً :  
- لكن اعتقادى هذا تلاشى . بدأت أشعر باليأس .  
صاح شريف قائلاً :

- ماذا دهالك يا مختار ؟ ماهذا اليأس الذى تتحدث عنه ؟ إفرض يا أخى أنها لا تود أن تتزوج ، فى ستين داهية ، من الممكن أن تتزوج أنت من هى أحسن منها . الدنيا لم تجذب من البنات الممتازات .  
- لا يا شريف ، المسألة ليست مجرد رغبة فى الزواج ، إنه شىء لم أشعر به من قبل ولا أستطيع السيطرة عليه . لا أحتمل تصور الحياة بدونها .

- اسمع يا مختار ، أقسم لك أنني لو كنت شعرت بأن مريم غير مهتمة بي لما أعرتها أى اهتمام ، ألا يوجد في البلد سوى درية ؟.
- هذا هو شعورى ، إنها بالنسبة لى البنت الوحيدة فى الدنيا . عيناى لا ترى سواها . مجرد مرورها أمامى فى أى مكان يُسرّع دقات قلبي .
- على أية حال لم يحدث ما يستدعى الحزن ، كل هذا مجرد كلام لا يقدم ولا يؤخر . أقترح أن تزورهم فى بيتهم وتحدث مع أبيها وأنا متأكد أن الموضوع سينتهى بالموافقة .  
ثم أردف مستدركا :
- قبل الإقدام على خطوة زيارتهم فى منزلهم ، لماذا لا نتحدث معها هى شخصيا ، فقد تسمع منها غير ما قالته لمريم ، كل ما أخشاه أن يصفرَّ وجهك ويخضر وتضطرب وتفقد النطق .  
- أحاول ذلك ، فقد تكون هى فى انتظار هذه الخطوة .
- مر أسبوع دون أن يمرؤ مختار على استطلاع رأى درية . كان شريف ومختار جالسين فى شرفة نادى الكلية المطللة على إحدى الأشجار الضخمة بجوار الجبلابة . قال شريف :
- متى ستكلم مع درية ؟.
- فى أقرب فرصة .
- قال شريف ساخرا :
- ومتى ستحين هذه الفرصة ؟.
- قريبا ، قد أفتحتها اليوم فى الموضوع .
- قال شريف :
- ربنا يقويك .
- ثم أردف قائلا بعد فترة تردد :
- على أية حال أنا مضطر لنقل خبر إليك أتمنى ألا يسبب لك أى إزعاج .
- انزعج مختار قبل سماع الخبر ، ولكنه قال :
- ماهو؟ قل ولا تخف . أصبحت لا أخشى شيئا فلقد وضعت على رأسى مانعة للصواعق .
- اثنان من المعبدین ينافسانك فى الإعجاب بدرية ، ويفكران فى التقدم لخطبتها . لم تستطع مانعة الصواعق منع تلك الصاعقة من الوصول إلى قلب مختار ، فانتفض كما ينتفض من تعرض لشحنة كهربائية وابتد ملامح وجهه ونظراته غير مألوفة لشريف الذى قال بانفعال :
- لماذا كل هذا الفزع والاضطراب ؟ ماذا حدث ؟ هل قامت القيامة وانتهى الكون ؟ لا ينبغي أن تكون بهذا الضعف .
- قال مختار بصوت مكسور :
- من هما ؟.
- سعد وحسين .

- ولكن المعروف أن حسينا يرغب في خطبة نبيلة .
- يبدو أن سوء التفاهم الذي نشب بينها لا أمل في علاجه . إنه يفكر الآن في الزواج من درية .
- وسعد أيضا ؟ .
- أجل ، هما الاثنان .
- وكيف عرفت ذلك ؟
- لا تسألني كيف عرفت ، ولكن الخبر صحيح .
- قال مختار وكأنه يتحدث نفسه :
- هذا ما كنت أخشاه ، سترداد غرورا .
- من رأيي أن تحمل هذه البنت ولا تفكر فيها .
- لا أستطيع ، أنت عاجز عن فهم مشاعري . هل تعتقد أن الحب كمفتاح الكهرباء ، أحركه بينما فيضئ المصباح وأحركه يسارا فيطفأ النور؟ ألا تريد أن تفهم ؟ .
- لا والله ، إنني أفهم ، ولكن لا أحب لك أن تحزن وتيأس من الحياة . الحياة ما زالت ممتدة أمامك والبنات كثيرات .
- أطرق شريف للأرض لحظة ثم أردف قائلا :
- وهناك خبر آخر أحزننا جميعا .
- لم يشعر مختار بأية رغبة في معرفة هذا الخبر ، فلقد فقد اهتمامه بأى شيء آخر ، قال بلا اكتراث :
- يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى .
- إسماعيل صدق باشا أوقف جميع العلاوات لمدة أربع سنوات بسبب الأزمة الاقتصادية .
- هل يعنى هذا أننا سنظل أربع سنوات لا يزيد فيها مرتبنا على أحد عشر جنيها وسبعين قرشا ؟ .
- أجل ، وَصَّعَ جميعَ المرتبات في ثلاثة .
- الله يبشرك بالخير . منذ فترة طويلة لم أسمع منك سوى الأخبار التي مثل وجهك .
- مثل وجهي ؟ ماله وجهي ؟ وماذنبى ؟ لست أنا الذى جعلت سعد وحسين يفكران في خطبة درية ولا أنا الذى جمّدت المرتبات .
- ومن تظن أن درية تفضله ؟ .
- هذا ما لا يمكننى التنبؤ به . هل تحب أن تستطلع مريم رأى درية ؟ .
- لا ، سأحدث أنا مع درية .
- قال شريف ساخرا وغير مصدق :
- متى يأتى ؟ بعد أن يتقدم لخطبتها جميعُ المعيدين ؟ .

- ٣٤ -

كانت درية في طريقها إلى نادى الكلية في فترة الظهيرة لتناول بعض الشطائر ، وعندما وصلت إلى الشجرة الضخمة القريبة من شرفة النادى أسرعَت دقائق قلب مختار وكاد يعدل عما هو مصمم عليه ، ولكنه تغلب على نخجله وناداهما :

- درية .

توقفت والتفتت إليه قائلة :

- نعم يا أستاذ مختار؟.

- أتسمحين لي بالتحدث معك دقيقة واحدة؟.

- بشأن ماذا ياترى؟

- أَلَدَيْكِ مانع من حضوري لزيارتكم في بيتكم؟.

دون أى انفعال أو اهتمام قالت :

- أهلا وسهلا ، ولكن لأى غرض؟.

قال بعد فترة تفكير :

- الحقيقة أنا .. أنا أريد أن أطلب يدك ، ما رأيك أنت ؟ رأيك أهم عندي من رأى أى إنسان آخر .

قالت درية وهى مطرقة للأرض وقد ازداد وجهها احمرارا :

- أنا حضرت إلى الكلية لأتعلم ، لا لأى غرض آخر .

- أعرف ذلك ، وأنا أيضا تعلمت . التعليم لا يمنع الإنسان من الزواج .

- لقد حضرت لأتعلم .

- هل يعنى هذا أننى لو زرتكم وطلبت يدك فسيكون نصيبي الرفض؟.

- أنا حضرت إلى الكلية لأتعلم ولا شىء غير ذلك .

تهدج صوته على الرغم من بدل أقصى ما في مقدوره للسيطرة على مشاعره وقال :

- أنا .. أنا متشكر .

تركها وسار مطرقا للأرض . عندما رآته متجها نحو نادى الكلية غيَّرت اتجاهها وذهبت إلى غرفة الطالبات . كانت مريم هناك جالسة في أحد أركانها منهمكة في استكمال محاضرة الكيمياء مستعينة بكراسة استعارتها من إحدى زميلاتهما . دهشت عندما رأت درية عابسة الوجه غاضبة الملامح ، ابتدرتها مريم قائلة :

- ما بك يادرية؟.

- اسكتي يامر ، أنا في شدة الضيق .

قالت مريم وقد شعرت بذعر :

- مم ؟ ماذا حدث؟.

- مختار .
- قالت مريم بلهفة :
- ما به مختار؟ .
- تصوّري ، يستوقفني تحت الشجرة وسط الكلية ليسألني إذا كنت أقبل خطبته لي ؟ .
- لا أرى في هذا ما يدعو للضييق أو الغضب ، بل على العكس ، إنه خبر مفرح .
- ماذا يظن هؤلاء المعيدون ؟ هل يعتقدون أننا حضرنا إلى الكلية للتزوج ؟ أنا لم التحق بهذه الكلية إلا لكي أتعلم وأحصل على بكالوريوس العلوم .
- وأنا قررت ألا أستكمل تعليمي .
- قالت درية بدهشة :
- غير معقول ، أنا لا أصدق ذلك .
- لقد حضرت إلى الكلية لأحصل على بكالوريوس العلوم ، وهأنذا سأتزوج بكالوريوس علوم ، وسوف يحصل على الماجستير والدكتوراه ، ماذا أطمع في أكثر من هذا ؟ .
- لا ، أفكارك لا تتفق مع أفكارى . المهم عندي أن أحصل أنا على الشهادة ولا أكتفى بشهادة زوجي .
- قالت مريم مبتسمة :
- أنا وزوجي واحد ، يكفي أن يحصل أحدنا على البكالوريوس .
- هل أفهم من هذا أنك ستفرغين للبيت ؟ .
- بمجرد الانتهاء من فرش الشقة سأتفرغ للبيت وأصبح ( ست بيت ) .
- لا ، أنا لا أحب هذا إطلاقاً ، لا بد من الحصول على البكالوريوس ويتفوق .
- لن يمنعك عن ذلك أحد ، احصلي على البكالوريوس كما تريدني ، مختار لا مانع لديه من حصولك على أعلى الدرجات .
- على أية حال ...
- لم تستكمل درية حديثها وبدا أنها مترددة في الإفصاح عن شيء في صدرها .
- قالت مريم :
- أكمل حديثك .
- يوجد اثنان غير مختار يفكران في طلب يدي .
- قالت مريم بلا اكتراث :
- أعلم ذلك ، إنها سعد وحسين .
- كيف علمت ؟ .
- لا شيء يبقى سرا في الكلية . وما رأيك أنتِ ، من تفضلين من الثلاثة ا .
- قالت درية بعد فترة تردد :

- بلغنى أن سعدا مرشح فى بعثة إلى إنجلترا .
- وما معنى هذا بالنسبة لك ؟ .
- معناه أنى لو اخترت سعدا فسأسافر معه إلى إنجلترا .
- هل هذه طريقة بتقديرك للناس ؟ المفضل لديك هو الذى سيسافر فى بعثته لتسافرى معه ؟ .
- وبأية وسيلة تطلبين متى أن أقدر الناس ؟ أليس الثلاثة فى وظائف متشابهة ؟ .
- هل يعنى هذا أن مختارا لو كان هو المرشح للبعثة لأصبح هو المفضل لديك ؟ .
- هذا طبيعى ، الظروف المحيطة بالإنسان لها أهميتها .
- لم أكن أتصور أنك تزين الناس بهذا الميزان .
- اسمعى يامرهم ، أنا لا أعتقد فى وجود ما يسمونه عواطف ومثل هذا الكلام الفارغ . لابد أن يحكم الإنسان عقله ويختار الأصلاح والأفيد له .
- ومن أدانا أن مختارا لن يسافر فى بعثة هو أيضا فى يوم من الأيام ؟
- عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة .
- يجيل إلى يادرية أن حياتك لن تكون سعيدة . الشخص الذى يحسب كل شىء بهذه الطريقة ، قد تحطى حساباته فى يوم من الأيام ويتعس فى حياته .
- سأسألك سؤالا يامرهم ، افرضى أن شريف لم يخطبك ، وخطبك الثلاثة ، من كنت تختارين منهم ؟
- أختار مختارا بلا تردد .
- لماذا ؟ .
- إنه أرق شخص فيهم ، خاصة لو عرفت أنه يجبنى كل هذا الحب الكبير ، وبينى وبينك كنت أفضله أيضا على شريف .
- يبدو أننا نختلف فى أشياء كثيرة ، أفكارك مختلفة عن أفكارى تمام الاختلاف .
- يبدو ذلك .
- لم تحتمل مريم مواصلة الحوار مع درية فأشاحت بوجهها عنها واستأنفت مراجعة محاضرة الكيمياء .
- لم يتناول مختار غداء فى ذلك اليوم ، بل جلس وحده فى ركن شبه منعزل من أركان النادى شاعرا بحزن عميق ونحجل شديد متحاشيا التقاء عينيه بعينى أحد . بغتة سمع صوت سعد يقول :
- لى معك كلام يا مختار .
- وسحب كرسيًا وجلس بالقرب منه . شعر مختار بأن هذا الكلام ذا علاقة بدرية ، قال :
- ماذا تريد أن تقول .
- رأيتك الآن واقفا تحت الشجرة تتحدث مع درية ، ماذا كنت تقول لها ؟ .
- وما شأنك أنت بذلك ؟ .
- لى شأن بالموضوع .
- بأية صفة ؟ .



- بصفتي خطيبها .  
- أنا متأسف ، لم أكن أعرف ذلك ، مهروك ، ولكنني لا أرى في يدك دبلة .  
- الدبلة لاتهم ، الذي يهمني ألا تسمم أفكار هذه البنت البريئة بكلامك المعسول .  
- لست شخصا من الشارع ، يبدو أنك نسيت أنها طالبة عندي ومن المفروض أن أتحدث معها  
وتتحدث معي .

- تكلمها وتكلمك في المعمل في حدود مايتطلبه العمل ، وليس تحت الأشجار .  
- وهل تلك الشجرة في مكان مهجور ، أليست في وسط الكلية ؟ .  
دخل حسين متجها نحو البوفيه . قال مختار لسعد :  
- يبدو أنك لا تدرك معنى ماتقول ، سأستطلع رأى حسين في هذا الموضوع .  
رفع صوته مناديا :

- يا حسين .  
أقبل نحوهما حسين قائلا :  
- ماذا ؟ يبدو أنكما كنتم تشاجران .  
قال سعد :  
- لا شيء ، لا يوجد مايدعو للتشاجر .  
قال مختار :

- سأروى لك سبب غضب سعد ، إنه يؤنّبني لأنه رأى أني أتحدث مع إحدى الطالبات اللاتي أدرس  
لهن .

- وما شأنه هو بذلك ، هل هو وليّ أمرها أو وليّ أمرك ؟ .  
قال سعد :

- لست وليّ أمرها أو وليّ أمره ، ولكنها خطيبي .  
قال حسين :

- من هي هذه الطالبة ؟ .

قال سعد :

- درية .

قال حسين :

- درية حسن رضوان ؟ .

قال سعد مؤكدا :

- أجل ، درية حسن رضوان .

تجهّم وجه حسين وقال :

- شيء جميل ، هل وصلت المسألة إلى هذا الحد ؟ ومنذ متى أصبحت درية خطيبتك باسعد ؟ إنها

خطيبتي أنا ، ومادمت تغضب إذا تكلم معها أحد ، فلو رأيتك تتحدث معها خارج المعمل فلن يمر ذلك بسلام .

ظل مختار يتابع حوارهما وكأنه يتفرج على مشهد مسرحي . شعر براحة لم يكن يتوقعها ، تشبه راحة اليأس ، فانسحب قائلاً :

- عن إذنكم ، سأذهب إلى المعمل .

غادر مختار النادي واستمر الحوار بين حسين وسعد ، قال سعد :

- ومنذ متى أصبحت خطيبها ؟

- من قبلك .

- أنا أحذرك من الاقتراب من هذه البنت .

- من العار أن تحدثت زميلا لك بهذه اللهجة ، ولا ينبغي أن ننسف صداقتنا بسبب مسألة كهذه .

- ليست مسألة تافهة على ما أعتقد ، هل يوجد ما هو أهم من اختيار الإنسان لشريكة حياته ؟

- البنات كثيرات يا أخى ، ألا يوجد سوى درية ؟

- قل هذا لنفسك .

## - ٣٥ -

جلس مختار أمام المتضدة التي في غرفته لمراجعة درس العمل الذي سيشرح للطلبة غدا ، وعلى الرغم من الجهد العنيف الذي كان يبذله للتركيز ، إلا أن فكره كان يشرد منه في مسارب يكتنفها ظلام اليأس .

كان عبد الحميد مبتهجا يدندن بأنغام بلا كلمات . اقتحم غرفة مختار قائلاً :

- ينخيل إلى أنى سأسهر للصباح في هذه الليلة .

قال مختار بفتور :

- لماذا ؟

- شيء عجيب ، ألا تعلم أن غدا أول الشهر ؟

- لا ، لم أكن أعلم .

- أنت وشريف مدعوان غدا للعشاء على نفقتي في أى مطعم تختارانه .

- لا يا عبد الحميد ، الدور الآن علينا نحن .

- لا ، الوليمة ستكون على نفقتي أنا ، أنسى أنني سأقبض غداً خمسة جنيهات ؟

فزع عبد الحميد عندما رأى عيني مختار مبتللة بالدموع . قال بلهفة :

- ما بك يا مختار ؟

- لا شيء .

- لا ، بل يوجد شيء . ليس هذا منظر شخص سيتسلم مرتبه غدا . في عينيك حزن . صارحنى بما يكدرك فقد أستطيع مساعدتك .
- لا أحد يستطيع مساعدتى .
- من يدري ؟ قد أتمكن من مساعدتك . يضع سره في أفقر خلقه .
- قال مختار باذلا مجهودا عنيفا لئلا ينفجر باكيا :
- درية ...
- ما بها درية ؟ كنت تسير على غير هدى باحثا عنها بلا جدوى ، وأرسلها الله إليه لتصبح تلميذتك ، هل كنت تطمع في أكثر من ذلك ؟
- ليتها ما التحقت بالكلية .
- قال عبد الحميد بفرح :
- لماذا ؟ هل حدث ، لا سمح الله ، شيء سيى ؟
- لو أنها ظلت بعيدة عني ، ربما كان من الممكن نسيانها مع مرور الأيام ، ولكن وجودها معى فى الكلية ينكأ جرحى ويعملنى غير قادر على النسيان .
- ولماذا تريد أن تنساها ؟
- الشيء الوحيد الذى أطلبه من الله الآن هو أن يعينى على نسيانها .
- لمعت الدموع فى عيني عبد الحميد وقال :
- ذكرتنى يا مختار ، ذكرتنى بروحية . أنا أيضا لم أستطع نسيانها .
- ستنساها فى يوم من الأيام لأنك لاتراها ، ولكننى أنا ، كيف أنسى إنسانة أراها كل يوم ؟ عندما كنت أفكر فيها فيما مضى كنت أشعر بشوة الأمل ، ولكننى الآن لم يعد عندى أمل . تحطم أملى .
- لماذا ؟ ما عاش من يحطم أملك .
- ثم أردف قائلا بما يشبه الهمس وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :
- هل اتضح أنها سيئة السلوك ؟
- ليتها كانت سيئة السلوك لأفنع نفسى بأنها غير جديرة بحبى . إنها ممتازة فى كل شيء ولكنها لا تحبى ، وهذا لا يعيبها .
- وبأية صفة تطلب منها أن تحبك الآن ؟ عندما تحطها وتتزوجها ستحبك . هكذا يفعل البنات المهلذبات ، يحبون من يتزوجهن
- لا تريد أن تتزوجنى . ليست من نصيبى .
- وهل هذا معقول ؟ وأين تجد من هو أحسن منك ؟
- فى الكلية . يبدو أن كثيرين أفضل منى ، فى نظرها على الأقل .
- هل رأيت منها ما يدل على ذلك ؟
- أجل ، كلمتها فى الكلية .

- هذا غير كافٍ. كم الساعة الآن؟ سأشتري ساعة غدا بمجرد استلام مرتبي.
- الساعة الآن الرابعة.
- هل تعرف بيتنا؟
- أجل، إنه في الدق.
- قم الآن ارتدي ملابسك واذهب إلى بيتنا واخطبها من أبيها. ماذا تنتظر؟ هيا، لا تضيع الوقت.
- كانت مشيرة، صغرى أخوات درية، جالسة في شرفة البيت فاسترعى انتباهها شاب يدور حول بيتهم ناظرا من آن لآخر إلى نوافذ وشرفة شقتهم. أسرع إلى درية قائلة:
- (أبلة) درية، (أبلة) درية.
- كانت درية في هذه الأثناء تسير جيئة وذهابا في بهو المنزل محاولة حفظ نشيد ستلقيه في حفل بالكلية.
- توقفت عن القراءة وقالت لمشيرة:
- ماذا تريدان؟
- تعالَى انظري، واحد أفندي يدور حول بيتنا منذ ساعة وينظر نحو شقتنا، ماذا يريد منا؟
- نظرت درية من النافذة فدهشت وقالت:
- ما الذي أتى به إلى هنا؟ إنه معيد عندنا في الكلية، البسى بسرعة وانزلي قولي له «(أبلة) درية تقول لحضرتك تفضل».

أنا خائف وحائر. لست أدري هل أذهب إليهم أم أرجع؟ أخشى أن يجرحوا شعوري. كان أبي يعلم أنني سريع التأثر، فكان يعاملني معاملة خاصة ويحذر أخوتي من أن يجرح أحدهم مشاعري. في المدرسة الابتدائية، كنت في أثناء الفسحة لا أميل للعب مع الأطفال وأنزوي في أحد أركان المدرسة أقرأ قصائد شعر. ذات يوم سمعت والدتي تقول عني لأحد إخوتي، دون أن تدري أنني كنت منصتا لحديثها، «هذا الولد لن يعيش طويلا، أنا خائفة عليه، فهو يحزن من أجل جميع الناس ويتأثر لو رأى أحدا يضرب قطعة أو كلبا». الجو جميل، وبيتهم أيضا جميل. يُجبل إلى أنه أجمل بيت في الدنيا. إنها تعيش فيه. هل سأظل أدور حول البيت إلى الأبد؟ لا، لن أجد الشجاعة الكافية لزيارتهم. لو جرح إحساسي أحد فلن أستطيع السيطرة على دموعي فأنا سريع البكاء. الشعر المؤثر يبكيني.. بكيت في امتحان الشفوي عندما كنت اتلو قصيدة عائشة التيمورية التي ترى فيها ابنتها ولم أستطع إتمامها وأعطاني الممتحن الدرجة النهائية. يبدو أنني لن أحتمل مواجهة الموقف. متى أتمكن من التخلص من هذا الحجل الذي يعذبني. لا، لن أزورهم. ليس لي نصيب.

- فوجئ بطفلة جميلة تقرب منه قائلة:
- أختي درية تقول لحضرتك تفضل.
- أذهلته المفاجأة فقال متلعنا:
- أنا؟ من أنت؟
- أنا مشيرة. أختي درية تقول لحضرتك تفضل عندنا.

قال بدهشة :

- درية ؟!

- أجل ، تقول لحضرتك تفضل عندنا .

- أنا متشكر . هل رأيتي ؟

- أنا رأيتك أولا ، ثم رأتك هي . كانت تحفظ النشيد وتغنيه بأعلى صوتها لأن بابا مسافر . كيف أزورهم وأبوها غائب ؟ ليس هذا من اللائق . ولماذا أرسلت لي أختها تدعوني لزيارتهم ؟ كان من الممكن أن تتجاهلني . لا بد أنها كانت تنتظر مني هذه الخطوة لقد ظلمتها .

- بابا مسافر؟ سأحضر في يوم آخر عندما يعود بابا من السفر

- لا ، درية قالت لي أن أطلب من حضرتك أن تفضل بزيارتنا .

- هل هي التي قالت ذلك ؟

- أجل ، عندما رأتك من الشباك عرفتُك في الحال ، قالت لي انزلي واطلبي منه أن يتفضل عندنا . ثم أردفت قائلة وقد نفذ صبرها :

- هيا تفضل .

شعر بإجهد شديد في أثناء صعود السلم لم يشعر بمثله من قبل ، إذ ازدادت سرعة دقات قلبه فألقى هذا عبثا إضافيا على القلب . عندما وصل إلى شقتهم كان الباب مفتوحا ، فدخل وقادته مشيرة إلى غرفة الصالون . جلس في مكان بعيد عن باب الغرفة . لم يحاول تأمل محتوياتها ، بل ظل مطرقا للأرض . قالت له مشيرة :

- درية ستحضر الآن لتسلم عليك ، هل تعبت من صعود السلم ؟

- لا ، لم أتعب .

- لماذا إذن اصفر وجهك ؟ عندما رأيتك تحت لم يكن وجهك أصفر هكذا .

- سيعود الآن كما كان .

- ماما تقول إن الذي لا يأكل جيدا يصفر وجهه ، لا بد أنك لا تأكل جيدا .

- لا ، أنا آكل جيدا . أين سافر بابا ؟

- لا أدري ، إنه يسافر كثيرا .

ماذا يعمل ؟ ماهي مهنته ؟

- مهندس ، يبني بيوتا كثيرة .

لم أكن أعرف عنه أي شيء . أخشى أن يكون غنياً فيظنون أنني أطمع في أموالها . أدر الله أن تكون فقيرة ليعرفوا أنني لا أطمع لي في أية أموال .

- هل هو مهندس مبانٍ ؟

- أجل .

- ومتى سيعود من السفر ؟

- قد يعود اليوم ، وقد يعود غدا أو بعد غد . لست أدري .

- ترامى إلى سماع مختار في هذه اللحظة صوت أغنية أم كلثوم « انظري ، هذى دموع الفرح جالت في عيونى » منبعثة من بيت قريب منهم . همَّ مختار بالوقوف قائلاً :
- سأقوم الآن وأعود عندما يرجع بابا بالسلامة .  
اعترضت مشيرة طريقه رافعة ذراعها في وضع أفقى قائلة :  
- لا ، اجلس مكانك . درية أختى ستحضر الآن لتسلم عليك .  
- ما اسمك ؟  
- اسمى مشيرة ، ولى أخت أخرى اسمها مرّفت ، وأخ اسمه سمير .  
- ألك إخوة آخرون ؟  
- لا ، درية هى أكبرنا ، دخلت الجامعة هذا العام ، فى كلية العلوم .  
- وأنت ، عندما تكبرين ، ماهى الكلية التى ستلتحقين بها ؟  
- لن أدخل كليات ، أنا لا أحب المذاكرة . عندما أكبر سأتزوج ، لكن درية أختى نحب المذاكرة ، تريد أن تحصل على شهادة كبيرة ولا تريد أن تتزوج .  
صفحته تلك الجملة الأخيرة ودفعته للوقوف بحركة شبه انعكاسية شاعرا بياس شديد ، قال :  
- سأخرج الآن وأرجع فى يوم آخر .  
دفعته مشيرة بكل قوتها للجلوس قائلة :  
- لا ، اجلس ولا تخرج . درية ستحضر لتسلم عليك ، هاهى ذى قادمة ، لا ، ليست هى ، هذه أختى مرّفت .
- كانت مرفت فى نحو الرابعة عشرة ، دخلت مبتسمة ولاحظ مختار أنها هى أيضا جميلة ، ولكن جمال درية كان طاغيا فى ذهنه على أى جمال آخر . قالت وهى تصافحه :
- أهلا وسهلا .  
- أهلا بك .  
قالت مشيرة .  
- هذه أختى مرفت .  
قال مختار :  
- وأين درية ؟  
قالت مرفت :  
- ستحضر الآن ، وسيحضر خالى أيضا ، ماما كلمته فى التليفون وطلبت منه أن يحضر .  
قال مختار بدهشة :  
- خالك ؟  
- أجل ، لأن أبى غير موجود .  
- وهل سيحضر خالك الآن ؟

- سيحضر حالا ، هامي ذى درية .  
عندما دخلت درية شعر مختار وكأنه يراها لأول مرة في حياته ولم يعد يرى في الغرفة سواها . صافحت  
مختار قائلة :  
- أهلا وسهلا .  
- أهلا بك . لك أخوات جميلات جدا يادرية .  
ابتسمت قائلة :  
- متشكرة .  
- مرفت قالت إن خالك سيأتي الآن .  
- أجل ، سيأتي سريعا فيبته قريب منا ، لا تستغرق المسافة أكثر من ثلاث دقائق بالسيارة . خالى وكيل  
وزارة الزراعة .  
وكيل وزارة الزراعة ؟ شىء مخيف . لن يصدق أحد أنني جئت أطلب يدها دون أن أعرف أى شىء  
عن عائلتها ، وأحببتها قبل أن أعرف اسمها .  
- خالك وكيل وزارة الزراعة ؟ شىء عظيم .  
- ألم تكن تعرف ؟ .  
- لا ، أنا لا أعرف أى شىء عن عائلتك ، ولم أحاول أن أعرف . لا أعرف إلا أنتِ .  
- خالى مغرم بالحشرات ، لديه مجموعة حشرات هائلة .  
- أنا أيضا مغرم بالحشرات ، ليتنى أستطيع رؤية مجموعته .  
- اطلب منه ذلك ، إنه يجب أن يريها للناس . كلما زرته يتحدثني عن الحشرات .  
- وأنتِ ، هل تحبين الحشرات ؟ .  
- لا ، أنا أحب الكيمياء .  
- أتودين أن تصبحي كيميائية ؟ .  
- أريد أن أصبح دكتورة في الكيمياء . أحب الكيمياء جدا .  
- وعلم الحيوان ، ترى هل تحبينه ؟ .  
- لا أميل إليه كثيرا ، ولكنني أذاكره جيدا لأحصل على درجات عالية .  
بعد لحظة صمت أردفت قائلة :  
- سمعت أنك تجيد قراءة الكف .  
ضحك مختار وقال بدهشة :  
- أنا أقرأ الكف ؟ من قال لك هذا الكلام الغريب ؟ .  
- مريم قالت لي إن لديك قدرة هائلة على قراءة الكف .  
قامت مشيرة وجلست جنبه ومدت له يدها قائلة :  
- اقرأ كنى .

أمسك مختار يد مشيرة وقال :

- كفك صغير .

- غدا سيكبر .

وهل لو كنت قادرا على قراءة الكف ومعرفة الغيب كنت أجلس هكذا خائفا لا أدري مايجئته لي

القدر ؟!

- حظك هائل . عندك سكة سفر .

قالت مشيرة بفرح :

- أحقيقة ؟ لا بد أن أبى سياخذنى معه عندما يسافرا المرة القادمة ، وماذا ترى أيضا فى كنى ؟ .

- سنتنجدن فى الامتحان ويكون ترتيبك الأولى .

قالت بسخرية وقد بدأت تشك فى كلامه :

- الأولى ، انظر واقرا جيدا من الكف .

- لماذا ؟ هل أخطأت ؟ يبدو فى كفك أن شخصا أغضبك .

قالت بإعجاب :

- هل أمكك رؤية هذا فى الكف ؟ أنت هائل . لقد أغضبتنى ماما أمس ، وماذا ترى أيضا ؟ .

- ستتزوجين وأنت صغيرة السن ، سيكون سنك ست عشرة سنة .

سأتزوج من ؟

- ستتزوجين رجلا .

ضحكت وقالت :

- لا بد أن يكون رجلا ، وهل سأتزوج سيدة ؟ .

- أقصد أنك ستتزوجين شابا ممتازا .

أسرعت برقت بالجلوس جنب مختار ومدت له كفها قائلة :

- اقرأ لى كنى .

قال مختار ناظرا لدرية :

- سارى كف درية أولا ، هل ترغبن فى قراءة كفك يادرية ؟ .

- لا مانع لى .

- تعالى هنا جنبى .

قامت درية وجلست بجوار مختار ومدت له كفها ، فامسكه برفق وكأنه يتذوق طعاما لذيذا وأخذ

يتفرد فيه ثم قال :

- كفك ملىء بأشياء كثيرة .

صاحت مشيرة قائلة :

- وجهك اصفر مرة أخرى .



قالت درية :

- أشياء كثيرة مثل ماذا ؟.

- خط القلب عندك غير واضح ، وهذا يدل على أنك لست عاطفية ، إنك تحكّمين عقلك أكثر من عاطفتك .

- أنا كذلك بالفعل .

رسم مختار على شفّيته ابتسامة كاذبة وقال :

- هذا يبرهن لك على أنني قارئ ماهر للكف .

- وماذا ترى أيضا ؟.

- ستكونين سعيدة مع شخص يحبك . يحبك من كل قلبه حبا عميقا . صورتك لا تفارق خياله ، وسيكون لك من الأبناء ثلاثة ، ابتان وولد ، وهذا الشخص الذى يحبك لا يمكنه الحياة بدونك .

- هل يمكنك وصف هذا الشخص ؟.

- طويل ونحيل وقمى اللون . وهذا الشخص يحبك منذ مدة طويلة قبل أن تلتحقى بالكلية . رآك أول

مرة في حديقة الأندلس ، ومنذ رآك لم تفارقى خياله لحظة واحدة . أنت الإنسانة الوحيدة التى أحبها من أعماق قلبه .

قالت مشيرة بدهشة وإعجاب :

- أترى كل هذا فى كفّها ؟!

استمر مختار فى حديثه قائلا لدرية :

- هذا الشخص كلما رآك تسرع دقات قلبه ، وهذا دليل على قوّة الحب .

قالت درية وهى تسحب كفّها من يد مختار :

- يبدو أن هذا الشخص مازال فى عالم الغيب .

قال مختار بجزن وبأس :

- هكذا ؟.

دق جرس الباب فقالت درية :

- لا بد أنه خالى .

وأسرعت لفتح الباب . قالت مرفت لمختار :

- وأنا ، ألن تقرأ كفى ؟.

قال مختار وهو شاردهم الذهن :

- مرة أخرى إن شاء الله .

دخل خال درية غرفة الصالون ، رجل طويل مهيب ممتلئ الجسم بلا ترهل ، ولم تدخل معه درية ،

قال لمختار الذى وقف لمصافحته :

- أهلا وسهلا ، الأستاذ مختار ، أليس كذلك ؟

- أجل .
- تفضل اجلس ، كيف حالك ؟
- الحمد لله .
- أنت المعيد الذى تدرّس لدريّة ، أليس كذلك ؟
- أجل ، أدّرّس لها علم الحيوان العملى .
- وهل بدأت بحث الماجستير ؟
- أجل ، أنا أدّرس بعض الحشرات المائة تحت إشراف الأستاذ أفلاطون بك .
- لا بد أنك مغرم بالحشرات .
- أنا أهوى دراسة الحشرات
- عندى مجموعة حشرات لا بأس بها . هل تعيش هنا مع عائلتك ؟
- لا ، عائلتى فى الريف .
- وأين تسكن هنا ؟
- فى حارة البحرى بشبرا .
- حارة البحرى ؟ أين هذه الحارة ؟ لم أسمع عنها .
- متفرعة من شارع جزيرة بدران .
- ولماذا لم تسكن فى بيت قريب من الكلية ؟
- سأنتقل قريبا إن شاء الله إلى بيت فى حدائق القبة .
- هذا أفضل .
- أطرق خال درية لحظة إلى الأرض ثم قال :
- بلغنى أنك تفكر فى الزواج .
- أجل ، أنا فكرت فى الزواج لأننى صادقت فتاة أحلامى التى أتمنى أن أتزوجها .
- التفت الخال إلى مرفت ومشيرة وقال :
- اذهبي يامرفت أنت ومشيرة إلى ماما ، اجلسا مع درية .
- أسرع مرفت بالخروج قائلة :
- حاضر ياخالى .
- وتلكأت مشيرة قليلا وكأنها لا تود مغادرة الغرفة . قال الخال :
- بلغنى أنك ترغب فى خطبة درية .
- هذا هو أملى فى الحياة .
- بكل أسف والد درية سافر اليوم ، ولكننى فى منزلة والدها بالضبط . اسمح لى أن أسألك بعض الأسئلة بدون إحراج .
- أسرع دقائق قلب مختار وقال :

- تفضل .
- كم مرتبك الآن ؟
- مازلت في أول السلم ، وكما تعلم سعادتك أول مرتب لنا هو إثنا عشر جنيها .
- وهل تظن يا ابني ، اسمح لي أن أكلمك بصراحة ، هل تظن أن اثني عشر جنيها تفتح بيتا ؟ .
- سيرتفع المرتب في يوم من الأيام .
- تفضل اشرب قهوتك حتى لا تبرد .
- متشكر .
- أمسك مختار فنجان القهوة ورشف منه رشفة واحدة ثم وضعه ولم يلمسه بعد ذلك . قال خال درية :
- لست أدري إذا ما كان والد درية يوافق على مساعدتكما ماليا أم لا ، هذا شيء لا أعرفه . ولكن ما الذي دفعك إلى التفكير في الزواج في هذه السن المبكرة ؟ الزواج يا ابني كله مشكلات ومسئوليات .
- لا أعتقد أنني كنت سأفكر في الزواج في الوقت الحالي لو لم أر درية . أنا أحب درية حبا عميقا ولا أستطيع الحياة بدونها ، وإن لم أتزوجها فقد أعيش طوال حياتي بلا زواج .
- يا ابني ، اسمع نصيحتي ، أنا أكبر منك سنا وتجاربي في الحياة أكثر من تجاربك . الحب ليس كل شيء . لا تجعل مسألة الحب هذه تسيطر عليك وتغير معالم مستقبلك . لا تجعل عاطفتك تسيطر على عقلك . يبدو أنك شاب عاطفي ، خيالي . كن واقعيًا .
- شعر مختار بصدمة عنيفة لم يكن يتوقعها ، فغمغم قائلا :
- هل أفهم من هذا . أن طلبي مرفوض ؟ .
- ضحك الخال ضحكة قصيرة وقال :
- لا يا ابني ، لم أقصد ذلك . إنها مجرد نصيحة ولك أن تقبلها أو ترفضها . ماقلت لك هو رأي الخالص وقد يكون لأبيها رأي آخر .
- ما يهمني هو رأي درية .
- قال الخال ضاحكا :
- درية مازالت صغيرة . منذ سنوات قلائل كنت أجلسها على فخذي وأعطيها شوكولاتة ، وهل لئلتها رأي ؟ .
- بالتأكيد لها رأي ، ورأيها هو الذي يهمني .
- يجيل إلي أنها في الوقت الحاضر لا تفكر إلا في الدراسة . ومارأيك فيها ؟ هل هي متفوقة في دراستها ؟ .
- أجل ، إنها مجتهدة ومتفوقة .
- قام مختار وأردف قائلا :
- أنا متأسف إذا كنت أضعت بعض وقت سعادتك عن إذنك .

- ٣٦ -

كان عبد الحميد جالسا يفكر في مختار متعجلا عودته عندما فُتح الباب ودخل مختار . لم يكن منظره يبشر بالخير ، فلقد كان مطرقا للأرض شاحب الوجه حزين الملامح . ابتدره عبد الحميد قائلا :

- سبع أم ضيع ؟

غمغم قائلا :

- أرنب .

وسار نحو غرفته وبدأ يستبدل بملابس الخروج ملابس البيت لحن به عبد الحميد وقد انتابه القلق وقال بلهفة :

- ماذا حدث ؟ ألم يوافقوا على الخطبة ؟

- لست أدري . سأقص عليك كل ماحدث بالضبط وقل لي ماذا تفهم من ذلك . أين شريف ؟

- ذهب لزيارة خطيبته .

حكى مختار لعبد الحميد تفاصيل مارآه وسمعه منذ رؤية مشيرة حتى مغادرته بيت درية . قال عبد الحميد :

- لا أرى في هذا مايدل على رفضهم لطلبك . مازال باب الأمل مفتوحا .

لم يكن من عادة مختار أن ينام في أثناء النهار ، إذ أن طبيعة عمله لا تسمح بذلك ، فالدراسة في الكلية مستمرة من الثامنة والنصف صباحا حتى الخامسة مساء ، وعلاوة على ذلك فمختار يعاني من الأرق ولا ينام بسهولة ، ولكنه في هذا اليوم شعر برغبة في النوم عقب عودته من عند درية ، وصحا من نومه بعد نحو ساعتين ، فقام وجلس مع عبد الحميد في انتظار عودة شريف . عندما فتح الباب ودخل شريف ابتدره مختار قائلا :

- لماذا تأخرت ؟ لقد انتظرتك طويلا وأود أن أحكى لك أشياء في غاية الأهمية .

- أنا أعرف كل ماحدث .

قال مختار بدهشة :

- تعرف ماذا ؟

- أنت زرت درية في بيتها اليوم لتخطبها .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- درية اتصلت بمرم تليفونيا في أثناء وجودى هناك وقصت عليها كل ماحدث . أنصحك يا مختار بالابتعاد عن طريق هذه البنت . حاول أن تنساها ولا تفكر فيها على الإطلاق .

قال مختار وقد شعر بقشعريرة تسرى من جسده إلى رأسه :

- ماذا قالت لمرم في التليفون ؟

- إنها الآن في انتظار تقدم حسين وسعد لخطبتها .

- هل تنوى الزواج من ثلاثة؟ .
- يبدو أنها تود أن يطلب يدها جميع من في الكلية .
- غمغم مختار قائلا :
- هذا يعنى أننى لا أهمية لى فى نظرها .
- قلت لك إنس هذه البنت وابتعد عنها . ستجد من هى أفضل منها .
- لا قدرة لى على نسيانها .
- ثم تهدج صوته وهو يقول :
- لينتى ما ذهبت .
- لا يا مختار ، يجب أن تكون أقوى من ذلك . كنى رجلا .
- قالت طالبة لإحدى زميلاتها :
- هل سمعتِ آخر الأخبار؟ .
- ماذا؟ .
- مختار بدر الدين ذهب إلى بيت درية ليخطبها ولكنهم رفضوا طلبه .
- ممّنى سمعتِ الخبر؟
- من كثيرين .
- أمن أجل هذا دخل لنا اليوم معيد غيره؟ .
- هذا طبيعى ، لم يعد يمرؤ على دخول المعمل .
- هيا بنا نسأل درية لنعرف حقيقة ما حدث .
- قالت درية :
- أجل ، الخبر صحيح . زارنا فى البيت وخطبنى ، ولكننى لا أفكر الآن فى الزواج .
- إذن رفضتِ طلبه .
- ليس هو أول من تقدم لى ، كثيرين يتقدمون لطلب يدى . ولن يكون هو آخرهم .
- أنت على حق ، لا يوجد ما يدعو للسرعة . كل تأخيرة فيها خيرة .
- كان مختار جالسا فى أحد أركان النادى عندما أقبل سعد وسأله :
- ما بك يا مختار؟ لماذا تجلس وحدك فى هذا الركن؟ هل تغديت؟ .
- أكلت شطيرة .
- جلس سعد جنب مختار وقال وفى لهجته نبرة سخرية :
- يبدو عليك التحجل الشديد كمن عمل عملة سوداء . ماذا فعلت؟ .
- أنا أعرف ما تقصده ياسعد . إذا كنت تلمح لموضوع خطيبتى لدرية فيبدو أن كل الناس عرفت ، لم يبق سوى أن يكتبوها فى الصحف ، وأظن أنه لا داعى لذكر هذا الموضوع . أنا لم أقترف ذنبا ولم أرتكب عملا فاضحا .

- نصحتك ولم تستجب لنصيحتي . لم يكن هناك ما يدعو لوضع نفسك في هذا المأزق المحرج .  
- ليس هناك ما يدعو للمحرج . وإذا كنت ترغب في خطبتها لنفسك فلتخطبها وسأكون أول من يهتلك .  
- أعلم تماما مدى كرم أخلاقك يا مختار . ولا يضايقني الآن سوى حسين الذي حشر نفسه في الموضوع .  
لست أدى ماذا يريد بالضبط . أكلم رأى فناة يفكر في الزواج منها؟ .  
أقبل حسين ووقف خلف سعد منصتاً لحديثه . ولم يتبه سعد لوجود حسين إلا عندما فوجئ به يقول :  
- كلام فارغ ، توجد بنات عديدات لا أفكر في الزواج منهن .  
شعر سعد بشيء من الحجل وقال :  
- هل عرفت أن مختاراً ذهب لخطبة درية؟ .  
- أجل ، عرفت ، وهل يوجد شخص في الكلية لم يعرف ذلك ؟ وعلمت أنهم رفضوا طلبه .  
غمغم مختار قائلاً :  
- شيء عجيب . هل نشروا الخبر في الصحف؟ .  
قال حسين :  
- لا شيء . يظل خافياً .  
قال مختار :  
- لست أدري من الذى نشر الخبر .  
قال حسين :  
- درية هي التي نشرت الخبر . حكى الموضوع بالتفصيل لكل من عنده تليفون من الطالبات .  
تمم مختار قائلاً :  
- ألهذه الدرجة؟ .  
قال حسين :  
- وماذا كنت تنتظر؟ لو كانت تعزك لما ذكرت أى شيء لأى مخلوق عن زيارتك لها . إنها تفخر بأنك  
ذهبت لخطبتها ورقت طلبك .  
لم يشعر مختار بأية فرحة لاستلام مرتبه في هذا اليوم . كان يسير مطرقاً للأرض متحاشياً النظر إلى أى  
إنسان . فقد تصور أن جميع العيون تنظر إليه بسخرية واستهزاء . وفي أعماقه إحساس بأنه قد أصبح كإناء  
من الزجاج تحطم ولا سبيل لإصلاحه . وعلى غير العادة استقل تاكسيا انطلق به نحو حارة البحري .  
وعندما دخل شريف الشقة لم يكن عبد الحميد قد عاد وكان مختار مستلقياً على الفراش ناظراً إلى سقف  
الغرفة . جلس شريف على كرسي بالقرب منه وقال :  
- أتعشم ألا تعبر هذا الكلام الفارغ الذى سمعته في الكلية أى اهتمام . إنها مجرد ترثرة لن تقدم أو تؤخر  
قال مختار بصوت خافت :  
- يجيرنى شيء .  
- ماهو؟ .

- لماذا أرسلت أختها تدعوني لزيارتهم مادامت تنوى رفض طلبي؟
- سبق أن قلت لك إنها ترغب في ذهابك لطلب يدها . أما كونها توافق على طلبك أو ترفضه فهذه مسألة أخرى . تريد أن تقول إنك ذهبت لتخطبها .
- أهذا كل مافى الأمر؟
- يجيل إلى ذلك . وعلى أية حال هذه مجرد فروض واستنتاجات وقد أكون مخطئا .
- فتح الباب ودخل عبد الحميد واضعا يده في جيب سترته . بادره شريف قائلا :
- لماذا تأخرت يا عبد الحميد؟ أخشى أن تكون أنفقت كل مرتبك .
- طوال الطريق وأنا في التزام كنت واضعا يدي في جيبى قابضا على الجنيهات الخمسة خوفا من أن تنتقل إلى جيب أحد اللصوص فتكون كارثة كبرى .
- أين هذه الجنيهات الخمسة؟ أريد أن أسعد برؤياها .
- اكتشف عبد الحميد أنه لا يزال قابضا على النقود فأخرجها من جيبه وناولها لشريف قائلا :
- هاهي ذى . عشر ورقات جديدة . كل ورقة من فئة الخمسين قرشا
- تصفحها شريف وأعادها إلى عبد الحميد قائلا :
- مبروك يا عبد الحميد . بارك الله لك فيها .
- الله يبارك فيك .
- كان مختار طوال هذه الفترة صامتا ناظرا إلى لاشيء . ثبت عبد الحميد نظره فيه وقال :
- أنا أدعوكما أننا الاثنين للسهرة هذه الليلة في أى مكان تختارانه . أحوال مختار في هذه الأيام لاتعجبني ، نريد أن نُفَرِّج كربه وننسيه الهموم الجاثمة على صدره . أما زلت متألما يا مختار؟
- لا ، لست متألما ، كل إنسان يأخذ نصيبه .
- هكذا تعجبني . ولو أنني بنى وبينك أعلم أنك متألم وحزين . فأنا مثلك . جربت الحب . لكن ما باليد حيلة ، إنها إرادة الله . مارأيكم لو ذهبنا الليلة إلى سينا حديقة الأزيكية؟
- قال مختار :
- فليكن . ولكن على نفقتى أنا .
- لا . بل على نفقتى أنا ولا أحد غيرى . وسنذهب في تاكسى ونعود في تاكسى .

- ٣٧ -

- قبل عرض الأفلام . انبعث من مكبرات الصوت بالسبينا صوت أم كلثوم فى أغنية « انظرى ، هذى دموع الفرح جالت فى عيونى » . قال شريف :
- أنا لم أنبئه للبرنامج . ماهى الأفلام التى ستعرض الليلة ؟ .  
قال عبد الحميد :
- فيلم « سجين زندا » وفيلم « لن تأخذك معك عندما تموت » .  
لم يسمع مختار حديثها فلقد كان منصتا لأغنية أم كلثوم . قال :
- هذه الأغنية تذكرنى بدريّة .  
قال عبد الحميد :
- ماهذه المصيبة ؟ لقد أحضرتك هنا لتسى دريّة لا لتذكرك بها الأغنية .  
قال مختار :
- سمعت هذه الأغنية عندما كنت فى بيتهم .  
قال عبد الحميد :
- اعمل معروفًا يا مختار لاتعرها أى اهتمام . انسها ولا تفكر فيها . كل الحشاش كل . بالهنا والشفا .  
- أحاول نسيانها ولكننى أتذكرها غضباً عني . وأحاول تجنّب رؤيتها ولكننى أراها على الرغم منى . كل شىء يذكرنى بها . الربيع والأزهار والأغاني .  
قال عبد الحميد وقد تهدج صوته :
- وأنا . كل شرفة وكل صينية قلل تذكرنى بروحية . حتى الموت يذكرنى بها .  
صاح شريف غاضباً :
- ماذا جرى ؟ أفى حفلة تأبين نحن أم فى حفلة سبينا ؟ كفى كلاما فى هذه الموضوعات .  
قال عبد الحميد :
- أنت لا تعرف هذه المشاعر يا شريف لأنك لم تجرب الحب .  
- كيف تقول إننى لم أجرب الحب ؟ ألم أحب مريم ؟ .  
- أجل جربت الحب ولكنك لم تجرب عذابه . الفاتحة على روح روحية .  
وعندما بدأ عرض الفيلم كان الثلاثة يقرأون الفاتحة .



- في غرفة الصالون بمنزل مريم جلس شريف بالقرب منها وقال :
- ماهي آخر أخبار درية ؟ .
- لا شيء . لم يتقدم لها حتى الآن لا سعد ولا حسين .
- أنا متأكد أن هذه البنت لم يحبها ولن يحبها أحد كما أحبها مختار . أنا خائف عليه . أخشى أن يحدث له كما حدث لسعيد عزت .
- من سعيد عزت هذا ؟ .
- طالب . كان رقيقا كـمختار . أحب طالبة زميلتنا حبا عنيفا وذهب ليخطبها فطرده من بيتها لم يحتفل الصدمة فأت . يبدو أن البنات لا يملن للشخص الرقيق النحيل .
- لماذا ؟ لقد أحبيتك .
- لست أدري . فلقد بدأت أشك في كل شيء . لماذا يتعذب أرقّ الناس كل هذا العذاب ؟ .
- هل يعني هذا أنك تشك في حيي ؟ .
- لا . ولكنني تذكرت بيتوفن .
- قالت بدهشة :
- بيتوفن ؟ ! وما علاقة بيتوفن بالموضوع ؟
- هل تصورين أن بيتوفن الفنان العظيم العبقري المرفه الحس . لم يعثر طوال حياته على الفتاة التي تبادلته الحب . وعاش ومات بلا زواج ؟ .
- دعنا من بيتوفن . عندي لك خبر مفرح .
- ماهو ؟ .
- أتمنا شراء جميع أثاث الشقة . لم يكن باقيا سوى الستائر التي اشتريناها بالأمس .
- منذ شهرين وأنا أدفع الإيجار بلا فائدة . نريد أن ننتهي .
- قالت مريم بامتناع :
- ننتهي ؟ ! وهل هذا كلام تقوله بهذه المناسبة ؟ المفروض أن تقول نريد أن نبتدي . لا أن ننتهي .
- أنا متأسف . أقصد نريد أن ننتهي من مسألة الأثاث .
- هانحن قد انتهينا من هذه المسألة .
- إذا كان الأمر كذلك فلنبدأ نحن . ماذا يعطلنا ؟
- ولماذا العجلة ؟ هل سـطير الدنيا ؟ مازالت أماننا سنين عديدة . الفترة التي نعيشها الآن هي أجمل أيامنا . إنها فترة السعادة التي سنحيا على ذكرياتها طوال عمرنا .
- أنا حزين من أجل مختار . فهو محروم من هذه السعادة . مسكين لن تكون له ذكريات سعيدة .
- هل سنعود للحديث عن مختار ؟ إنه هو الذي يعذب نفسه . كان في إمكانه أن يختار أية فتاة أخرى

غير درية ويسعدان معا . ألا يوجد في الكون سوى درية ؟ لا أعتقد أنها قادرة على إسعاده لو تزوجها . إنها كالوعاء الجميل الذى نراه في الصيدليات . وعندما نفتح هذا الوعاء الجميل نجده مليئا بالسم .  
- لا تتسنى أن للسم فوائد . وإلا لما وضعوه في الصيدليات .

## - ٣٩ -

بعد أسبوعٍ ظهرت مجلة الكلية وجلس عدد كبير من الطلبة في النادي يتصفحونها ويطلبون بعض ما فيها . كانت مريم ودرية واقفتين عند بوفيه النادي تأكلان بعض الشطائر . قالت مريم :  
- هل اشتريت مجلة الكلية ؟  
- أجل ، اشتريتها .  
- هل قرأت الموضوعات التي كتبها مختار ؟  
- لا . لم أقرأ أى شيء . سأقرؤها عندما أعود إلى البيت .  
- مختار كاتب معظم ما في المجلة . مسرحية وأشعار ومقالات وفكاهات .  
قالت درية بسخرية :  
- كتب كل هذا ؟ يبدو أنه فائق ورائق .  
- على العكس . مختار معذب . معظم الكتاب كتبوا أروع أعمالهم وهم تعساء وفي ظروف قاسية لا يمكن أن يحتلمها أى إنسان . إنها موهبة وليست خلوبا بال .  
- وكيف استطعت قراءة كل هذه الموضوعات والمجلة لم تظهر إلا اليوم ؟  
- هل من المعقول أن يكتب مختار شيئا ولا أقرؤه على الفور ؟  
دخل مختار النادي فرأى مريم ودرية . أسرعت دقات قلبه فغادر المكان متجها نحو غرفة المعيدين . وجد شريفا جالسا أمام الميكروسكوب يفحص شيئا .  
قال شريف لمختار :  
- أين كنت ؟ بحثت عنك فلم أجلك .  
- كنت أبحث عن شقة خالية . وعثرت على شقة جميلة .  
- كم إيجارها ؟  
- جنيهان في الشهر .  
- كم غرفة ؟  
- أربع غرف فسيحة وبهو . وبها مطبخ فاخر وحمام ملون .

عندما عاد مختار إلى البيت لم يكن به سوى عبد الحميد الذى كان واقفاً فى المطبخ يطهو الطعام . قال مختار :

- فى خلال أسبوع سأترك هذه الشقة وأنتقل إلى شقة جديدة بخدائق القبة بالقرب من الكلية . وسأشتري أثاثاً جديداً .

قال عبد الحميد بعد تردد :

- هل من الممكن أن تترك لى هذا الأثاث القديم أم ستبيعه ؟

- ألن تأتى معى فى الشقة الجديدة ؟

- لن أنقل عليك . لقد أصبح لى الآن والحمد لله مرتب شهري لا بأس به يسمح لى بالحياة هنا بفردى . الحياة فى خدائق القبة فوق مستوى .

- هل هذا كلام تقوله ؟ ستعيش معى . أتوقع أن يتركنا شريف فى أية لحظة ويذهب إلى بيته الجديد مع عروسه مريم ولن يبقى سوانا هنا نحن الاثنين . ولا يمكننى أن أتركك وحدك . الشقة الجديدة جميلة جداً وفى وسط راق . جيراننا باشاوات .

قال عبد الحميد بفرح :

- باشاوات ؟ ! لا يا مختار . أنا لم أعتد السكنى جنب الباشاوات . ومن يحشرنى أنا الصعلوك بين الملوك ؟

- أنت شاعر عظيم وتستحق السكنى فى أجمل مكان .

بدا على عبد الحميد وكأنه انتقل بفتة إلى دنيا أخرى . فقال مبتسماً :

- الإذاعة اشترت منى اليوم أغنية جديدة سيلحنها أحمد صدق ويغنيها كارم محمود .

- وكم أعطوك ثمنها لها ؟

- أعطوني جنيتها بالتمام والكمال .

- أريد أن أسمعها .

- اسمع ياسيدى :

على شط الغدير وردة	ربيع الحسن ودّعها
عيونها م الأسى شارده	بتروى الأرض بدموعها
ولسّه فاكره خلانها	وليه أحبابها نسيوها ؟
عشان الحسن غاب عنها	سابوها الناس ويكّوها

\* \* \*

• الأشعار التى فى هذه الرواية وفى جميع روايات وقصص المؤلف من نظمه .

عرفتك وانتِ فرحانه  
وياما وانتِ خجلاته  
وشفتك ع الغصون اليوم  
ماهانش على ادوق النوم  
جمالك لسه في عيني  
حاقصى العمر أهواك  
وكنتِ في ربيع عمرك  
رويتِ عيوننا من خمرك  
ماين الزهر دبلانه  
واسيبك وانتِ سهرانه  
عبيرك لسه في ايدي  
وس ازاى رح أنسالك؟

\* \* \*

جمعتِ الحسن والخفة  
وكان ماأحلاك في اللفة  
ولما راح زمن حسبك  
وليه الزهرة لو دبتك  
دى برضه الورد لو نشفت  
جمالك لسه في عيني  
حاقصى العمر أهواك  
وكنتِ الفتنة والمهجة  
ياروح القلب والمهجة  
ماحدث جه سأل عنك  
تيتها الناس وترميها؟  
ريحتها رح تكون فيها  
عبيرك لسه في ايدي  
وس ازاى رح أنسالك؟

قال مختار:

- هذه الأغنية وحدها تعطيك حق السكنى في أجمل مكان في العالم .  
أطرق عبد الحميد للأرض مبتسما وقد شعر وكأنه كان محلقا في السماء ثم هبط فجأة في المكان الذى كان فيه ، فقال :

- وكم سيكلفك الأثاث الجديد؟

- شاهدت غرفة نوم ممتازة وغرفة مكتب فاخرة . وغرفة صالون جميلة ، وغرفة طعام من خشب الزان . كل هذا سيكلفنى حوالى اثنين وأربعين جنيها سأسدها على أقساط شهرية .  
عندما صبحا مختار في الصباح وجد شريفا من المطبخ يعمل الشاى ويُعدُّ الفطور ، وهى الأشياء التى عودهم عبد الحميد على القيام بها كل يوم . قال مختار :

- أين عبد الحميد؟

- مازال نائما .

- ليس من عادته التأخر في النوم إلى هذه الساعة . قد يكون هذا بسبب السهر الطويل ليلة أمس .  
ظللنا نتظر عودتك حتى الواحدة صباحا ولما يشنا أننا ، لماذا تأخرت كل هذا التأخير؟  
- ذهبت مع مريم للسبينا . إنها أول مرة نخرج معا ونذهب للسبينا . اذهب وأيقظ عبد الحميد ، فهو يغضب لو تركناه نائما أكثر من اللازم .

عندما ذهب مختار وجد عبد الحميد نائما فوق الحصيرة في ركن الغرفة كعادته ولكنه لاحظ شدة شعوب وجهه . رفع صوته ليوقظه قائلا :

- قم يا عبد الحميد بقينا الظهر .  
ولما لم يجد أية استجابة انحنى وأخذ يهزه قائلاً :  
- قم يا عبد الحميد . عبد الحميد . عبد الحميد .  
شعر بانقباض . وضع يده على جبهة عبد الحميد فوجدتها باردة . وبلهفة واضطراب وضع يده على قلبه فلم يشعر بنبضاته . أمسك يده ورفعها ثم تركها فسقطت على الحصى ففعل الجاذبية سرى في جسده رعب شديد ووجد نفسه يصبح قائلاً :  
- يا شريف . شريف .  
أقبل شريف مهزولاً فرأى مختاراً واضعاً أذنه على صدر عبد الحميد في محاولة لسماع دقات قلبه . فصاح في دُعر :  
- مابه ؟ مابه عبد الحميد ؟  
قام مختار ومسح دموعه طفرت من عينه وقال :  
- يبدو أنه ...  
لم يستطع اتمام الجملة ، وفي حركات عصبية أخذ شريف يهز عبد الحميد وكأنه ساعة توقفت عن العمل . ثم باس جبهته عدة مرات وغادر الغرفة .  
بدا مختار كالمدحول . تتحرك يداه حركات لا إرادية وأخذ يغمغم قائلاً :  
- لماذا مات ؟ هذا غير معقول . كان يكلمني مساء أمس . هل يموت الإنسان بهذه السهولة ؟ كان سعيداً عندما طلبت منه أن يسكن معي في الشقة الجديدة . أنا لا أصدق أنه ميت . لا بد أنه نائم . انه يتسّم . لا بد أنه كان يحلم . لقد عثر على الوظيفة التي طالما تمنّاها . أخذ يناديه قائلاً :  
- عبد الحميد . عبد الحميد . قم اقض الخمسة جنيتا .  
عاد شريف ومعه ملاءة غطى بها عبد الحميد من رأسه إلى القدم قائلاً :  
- لا فائدة يا مختار . عبد الحميد فارق دنيانا .

## - ٤١ -

انتهى شريف من تأثيث شقتها الجديدة هو ومريم . كانت في الدور الرابع من عمارة جميلة بشارع الملك قرب اتصاله بشارع الملكة نازلى ولا تبعد كثيراً عن شقة مختار الجديدة . في المساء . بعد عشرة أيام من وفاة عبد الحميد غريب . كان شريف في زيارة لمرم وكان مختار جالساً بمفرده في الشقة بجارة البحرى يكتب قصيدة رثاء لعبد الحميد وظل في انتظار عودة شريف ليقرأ عليه القصيدة ، ولكنه عدل عن فكرة قراءتها لشريف ، فلقد رأى أنه من غير اللائق أن يقرأ عليه قصيدة رثاء وهو عائد لتوه من منزل خطيبته والفرحة تملأ قلبه .

بعد فترة قصيرة دخل شريف وقال لمختار :

- سأعمل لنفسى فنجان شاي . هل ترغب أنت أيضا في فنجان ؟

- أجل . مع الشكر

عمل شريف فنجانين من الشاي . أعطى لمختار أحدهما وجلس بالقرب منه يحتسى فنجانه . قال بعد

فترة تفكير :

- أنا مقبل على تغيير في حياتى يحتاج لوقت طويل حتى أتكيف معه . فلقد ألفت الحياة معك . ولكن

ما باليد حيلة . سنتقل الأسبوع القادم إلى شقتنا الجديدة .

أبدى مختار سروره بهذا النبا على الرغم من الألم الذى اعتمل في أعماقه وقال متظاهرا بالبهجة :

- ألف مبروك . أتمنى لكما السعادة من صميم قلبي .

- هذه سنة الحياة . كل شيء يتغير . ويؤلمنى أن أتترك هنا بمفردك .

- على أية حال سأنتقل قريبا أنا أيضا إلى الشقة الجديدة .

- سأزورك هناك إن شاء الله .

أطرق مختار للأرض وسادت فترة صمت ثم قال دون أن يرفع رأسه وكأنه يتحدث نفسه :

- سأشعر بوحدة قاسية .

- وماذا نصنع ؟ إنها إرادة الله . كنت أتمنى أن تكون أنت أيضا مع عروسك درية . ولكن يبدو أنها لا

نصيب لها في الطيب . على أية حال . الإنسان لا يستطيع معرفة الغيب . عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير

لكم . ألم تفكر في الزواج من فتاة أخرى طيبة تنسيك التفكير في درية ؟ .

- لا . لم أفكر في أية فتاة أخرى .

بعد نحو ثلاثة أسابيع ذهب مختار لزيارة عروس شريف في شقتها وأبدى إعجابها بالشقة وحسن تنسيقها .

قال شريف لمريم .

- مختار هو أيضا انتقل إلى شقة جميلة وأثاثا رائعا . فهو معروف بارتفاع مستوى تذوقه الفنى .

قالت مريم :

- لا بد أن يكون على درجة عالية من التذوق الفنى والإحساس بالجمال فاختياره لدرية يدل على ذلك ،

إنها في منتهى الجمال .

استاء شريف من ملاحظة مريم هذه فقال ممتعضا :

- ما هذا يا مريم ؟ ما الداعى لمثل هذا الكلام الآن ؟ .

- أنا لم أقل شيئا يغضبه . إننى أمتدح ذوقه .

قال مختار :

- الحديث عن درية لا يضايقتنى ، بل على العكس . أحب سماع اسمها . لست غاضبا منها ، كل شيء

قسمة ونصيب .

قالت مريم :

- أنا في الحقيقة قلت هذا لأطلعكم على آخر الأخبار .  
قال مختار محاولاً إخفاء لفته على معرفة تلك الأخبار :  
- وماهي آخر الأخبار ياترى ؟ .  
- سعد خطب درية .  
شحب وجه مختار وبذل كل جهده لإخفاء حقيقة مشاعره فقال متظاهراً بعدم الاكتراث :  
- كنت أتوقع سماع هذا الخبر في أية لحظة .  
قال شريف :  
- متى حدث ذلك ؟ لم تذكرى لى شيئاً عنه .  
قالت مريم :  
- منذ يومين زارهم في بيتهم وتقدم لخطبتها .  
قال شريف :  
- وهل وافقوا على طلبه ؟ .  
- لا ، لم يوافقوا .  
قال مختار بهدوء محاولاً إخفاء الانفعالات المسجونة في رأسه :  
- ولماذا لم يوافقوا ؟ ألم تقل لك إنها تفضل سعداً لأنه مرشح للسفر في بعثة ؟ .  
- هذه هي المسألة ، فلقد اتضح لها أن موضوع البعثة لم يكن سوى مجرد إشاعة .  
قال مختار وكان الأمر لايغنيه :  
- هكذا ؟ .  
وقال شريف :  
- ومن أجل هذا رفضته ؟ .  
قالت مريم :  
- أجل ، لم تعد له أية ميزة في نظرها . إنها تتوق للسفر إلى الخارج .  
قال شريف :  
- شيء عجيب ، أعتقد يا مختار أن عدم زواجك من بنت كهذه يدل على أن الله يجبك .  
غمغم مختار قائلاً :  
- الغريب أنني مقتنع بأن لدرية بعض الصفات السيئة ، ولكن على الرغم من ذلك مازلت أحبها  
وعجزت عن نسيانها .  
صاحت مريم قائلة :  
- أسمعت يا شريف ؟ هذا هو الحب .  
قال شريف متجاهلاً ملاحظة مريم وموجها حديثه لمختار :  
- لو كنت في مكانك لاحتقرتها ولما شغلت فكري بها لحظة واحدة .

قالت مريم :

- لم يبق سوى حسين ، والشئ الذى يضايقها هو أنه لم يذهب لخطبتها حتى الآن .

قال شريف :

- لكى ترفضه هو أيضا .

قال مختار :

- من يدري ؟ قد يكون هو الشخص الذى تريده .

قالت مريم :

- أنا متأكدة من أنها سترفضه هو أيضا لو تقدم لخطبتها . وعلى الرغم من ذلك فهى تمنى أن يذهب ليطلب يدها . لقد عرّفتُ درية معرفة كافية .

قال شريف :

- هذه البنت ستعيش طوال عمرها بلا زواج .

قالت مريم :

- لا ، أنا متأكدة من أنها ستزوج . ألم تسمع مقاله مختار ؟ قال إنه يعترف بصفات السيئة ومع ذلك يحبها . ستجد كثيرين يحبونها . العديد من البنات السيئات يتزوجن وبنات فضليات رائعات لا يعيرهن أحد أى اهتمام .

قال شريف :

- لذا يقولون إن الحب أعمى .

قالت مريم :

- الحب ليس أعمى . على العكس . الحب ليس به سوى عيون .

قال شريف :

- ماذا تقصدين بهذا ؟ .

- ليس الحب أعمى ، بل أهدل ، غبي . للحب عيون ولكن لا عقل له .

قال مختار :

- عجب أن أسمع منك هذا الكلام وأنا أعرف أن شريفاً أحبك حبا عظيما .

قالت مريم :

- شريف لا يستطيع أن يحب حبا عظيما . ألم يقل إنه لو كان فى مكانك لاحتقر درية ولم يفكر فيها ؟ .

قال شريف :

- هذا لأن حبي ليس أهبل ولا غيبا ، حبي له عقل .

قالت مريم :

- الحب ذو العقل لا يمكن أن يكون حبا كبيرا .



شعر مختار بأن الحوار بين شريف ومرم قد بدأت ترتفع درجة حرارته فخشى أن يلتهم فقال محاولاً تغيير مجرى الحديث :

- هل شاهدتم فيلم عبد الوهاب الجديد؟

قالت مريم :

- دموع الحب ؟ لا ، لم نشاهده .

- إنهم يعيدون عرضه ، وأرجو أن تقبلوا دعوتي لكما لمشاهدته غدا . ألدركم مانع ؟

قال شريف :

- لا مانع لدينا ، مع جزيل الشكر .

وهم خارجون من دار السينما في طريقهم لركوب الأتوبيس قال مختار :

- هل أعجبكم الفيلم ؟

قالت مريم :

- فيلم جميل ولكنه محزن .

قال شريف :

- أنا شخصياً أميل إلى الأفلام ذات النهاية السعيدة .

قال مختار :

- ليس كل مافي الحياة ينبغي أن تكون نهايته سعيدة ، لقد أعجبتني الفيلم ، إنه مقتبس من رواية كنت

قرأتها منذ سنوات اسمها « ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون » .

ضحكت مريم وقالت :

- الزيزفون ؟ ! وما هو الزيزفون هذا ؟

قال مختار :

- نوع من الأشجار .

قالت مريم :

- هل تحب الأفلام الحزينة بأستاذ مختار ؟

قال مختار :

- يحتاج الإنسان أحياناً لشيء من الحزن .

قالت مريم :

- ولماذا يحتاج الإنسان لمزيد من الحزن ؟ ألا تكفيه أحزان الحياة ؟

قال مختار :

- عندما يكون الإنسان حزينا يشعر ببعض الراحة النفسية عندما يرى أحزان غيره من البشر .

قال شريف :

- لا بد من بعض الأحزان ليصبح للحياة طعم .

- قالت مريم :  
- ولماذا لا تكون الحياة سعادةً وأفراحاً؟  
قال شريف :  
- هل تستيغين أكل الملوخية بدون ملح؟  
قال مختار :  
- الحزن قد يكون سبباً للفرح .  
قالت مريم بدهشة :  
- كيف؟  
- ألا يشعر الإنسان بالفرحة عندما تزول أسباب الحزن؟  
كانوا قد وصلوا إلى ميدان العتبة الخضراء فوقفوا ينتظرون قدوم الأوتوييس . قال شريف :  
- قل لي يا مختار ، ماذا تفعل في مشكلة الطعام وأنت بمفردك في الشقة؟  
- صاحبة البيت تسكن في الشقة التي تحت شقتي ، أعطيتها كل يوم خمسة قروش صاغ لشراء الطعام وإعداده ، تمد لي لحماً بالدمعة وخضاراً وأرزاً أو مكرونة وسلطة خضار وسلطة طحينة وفاكهة ، ويتبقى من الخمسة قروش في معظم الأحيان ملبان أو ثلاثة تقول لي اشتر بها ليمونا .  
قالت مريم :  
- أى أن الطعام يكلفك نحو جنيه ونصف في الشهر .  
- أجل ، هذا بالإضافة إلى نحو عشرين قرشاً في الشهر اشترى بهم الجبن الرومي والحلاوة الطحينية والبيض والزيتون والبسطرمة .  
قال شريف :  
- نحن أيضاً ننفق في بند الطعام مثل هذا المبلغ .  
قالت مريم :  
- بكم تشتري أفة اللحم؟  
- بستة قروش .  
- نحن نشترها بخمسة قروش . والدجاج والحمام بكم تشتريهم؟  
- زوج الحمام بخمسة وعشرين ملباً ، والدجاجة الكبيرة بستة قروش .  
- والبيض؟  
- البيضة بمليم .  
- نحن نشترى الست بيضات بخمسة ملبات ، يبدو أن المكان الذي تسكن فيه مرتفع الأسعار .  
أقبل الأوتوييس وكان شبه خال فاستقلوه وانطلق بهم نحو حدائق القبة .

- ٤٢ -

أوشك شهر مارس على الانتهاء ، وتذكر مختار أنه في مثل هذه الأيام رأى درية لأول مرة في حديقة الأندلس ، لقد دارت الأيام وازدحمت في ذهنه ذكريات معظمها شديد المرارة . كان جالسا في غرفة المعيدين يفحص إحدى الحشرات المائية تحت الميكروسكوب وتوالت الذكريات التي يراها بعين خياله في لقطات لا تخضع للتسلسل الطبيعي للزمن مختلطة بما يراه تحت الميكروسكوب . كان شريف قد غادر الغرفة ولم يعلم مختار وجهته ، فقام وفكر في الذهاب إلى نادي الكلية لتناول إحدى الشطائر . ولكنه بعد أن وصل إلى النادي وشاهد سعدا جالسا في أحد أركانه يتناول غداءه ، غير خطط سيره وخرج من الباب الخلفي للكلية متجها نحو منزله لتناول الغداء الذي أعدته له صاحبة البيت مفضلا العزلة التي أصبح يميل إليها .

في أثناء تناول سعده طعامه مر بالقرب منه حسين دون أن يتبه لوجود سعده ناداه سعده ، فتوقف حسين ناظرا إلى سعده الذي قال :

- أريد التحدث معك بضع دقائق .

جلس حسين حول المائدة التي يجلس عندها سعده وقال :

- خيرا ، ماذا تريد أن تقول ؟

- لا أحب أن ينتهي العام الدراسي وفي نفس أهدنا أى شعور غير مريح تجاه الآخر .

- ليس في نفس أى شعور سيئ نحوك فلا شىء يدعو لذلك .

قال سعده بعد لحظة تفكير :

- أقصد فيما يتعلق بمسألة درية . لقد عدلت عن التفكير في خطبتها وخطبت فتاة أخرى .

- ولكنني علمت أنك تقدمت لخطبتها ورفضوا طلبك .

أحمر وجه سعده ووقفت اللقمة في حلقه فشرب جرعة ماء ولاذ بالصمت ناظرا نحو سطح المنضدة .

قال حسين :

- على أية حال مبروك ، ومن هي الفتاة التي خطبتها ، هل هي من الكلية ؟

- لا ، ليست من الكلية ، إنها ابنة لواء في الجيش ، وعقدنا العقد .

- بالتوفيق إن شاء الله . مبروك .

- الله يبارك فيك . وماذا تنوى أنت ، أما زلت مصمما على درية أم تفكر في نبيلة ؟

- لا أفكر في درية ولا في نبيلة ، درية هي التي تفكر في .

قال سعده وقد شعر بشىء من الألم :

- كيف ؟

- هل تصدق أن والدتها زارتنا في بيتنا ؟

- غير معقول ، متى حدث ذلك ؟

- من حوالى أسبوع .  
- وبأية مناسبة ؟ .  
- جاءت خصيصا لتطلب منى الابتعاد عن ابنتها لأننى ، كما تدعى ، أشغل تفكيرها بمسألة الزواج ! .  
- شىء عجيب . وهل هذا صحيح ؟ .  
- بل محض افتراء ، فلقد ابتعدت عنها منذ مدة طويلة ولم أحاول التحدث معها على الإطلاق ، حتى المجموعة التى هى فيها استبدلت بها مجموعة أخرى ولم أر وجهها منذ أكثر من شهر .  
- إذا كان الأمر كذلك فأعتقد أن أمها زارتكم لتحثك على خطبتها .  
- ليس هذا بمستبعد ، ولكننى حسمت الموضوع وسأتزوج من خارج الكلية ، إنها فتاة من الإسكندرية .  
- خيرا تفعل ، درية ركبها الغرور .  
عندما عاد مختار إلى البيت وجد خطابا فى صندوق البريد ، فتحه بلهفة فوجده من والده يخبره بأن محمودا شقيق مختار مريض واحتار الأطباء فى علاجه بمدينة الزقازيق ، وسوف يحضر للعلاج بالقاهرة بصحبة والدته وشقيقته فاطمة .  
حزن مختار لمرض أخيه ، ولكنه فى الوقت ذاته فرح لقدومهم . ذهب إلى المحطة لانتظارهم فى القطار الذى أشار إليه والده فى الخطاب . عندما رآهم يهبطون من القطار أسرع إليهم وساعدهم على النزول . كانت بصمات الحزن واضحة على وجهى الأم وفاطمة ، وبدا محمود هزيلا شاحب الوجه يسير بصعوبة مستندا على ذراع فاطمة ، فأمسك به مختار وسار معه ببطء واستقلوا تاكسيا اتجه بهم نحو بيت مختار .  
أسرع مختار بشراء سرير لمحمود وسرير لوالدته وشقيقته فاطمة ، وأصرت والدته على إعطائه ثمن الأسرة والمراتب وغيرها ، وعندما انفرد بوالدته سألتها عن مرض محمود فقالت :  
- لا أحد من الأطباء فى الزقازيق تمكن من معرفة حقيقة مرضه ونصحوا بعلاجه هنا .  
- ومن سيعالجه ياترى ؟ هل ذكروا اسم طبيب بالذات ؟ .  
- بعض أصدقاء والدك اقترحوا علاجه عند الدكتور جعفر ، وقالوا إنه سيلزم عمل تحاليل طبية .  
- سأقتصل بالدكتور جعفر ليحضر للكشف عليه وسنتفد ما يأمر به .  
بكت الأم وقالت وهى تجفف دموعها :  
- أنا خائفة عليه .  
- إن شاء الله سيشفى ، الله هو الشافى .  
- لو شفاه الله سأصوم الستة البيض طوال حياتى .

تولى الدكتور جعفر علاج محمود ، وفى خلال نحو شهر بدأت حالته تتحسن وسمح له بتناول أنواع من الطعام لم يكن أطباء الزقازيق يسمحون له بتناولها . فرح عندما علم أنه سيأكل اللحم والدجاج والبيض ، وجلس مختار جنبه يحدثه عن قرب شفائه وعن الأماكن التى سيزورها فى القاهرة عندما يسمح

له الطبيب بالخروج من البيت ، سوف يأخذه إلى دور السينما وحديقة الحيوان وإلى أماكن أخرى كثيرة .  
ضحك محمود ضحكة لا إرادية من فرط الفرح وقال :

- أحقيقة؟ أنا لا أصدق أنني سأعود كما كنت

- ستعود أحسن مما كنت .

- ليتك تشتري راديو يسلمني .

- سأشتري لك راديو .

عمت الفرصة البيت عندما اشترى مختار الراديو ، إذ لم تقل فرحة فاطمة عن فرحة محمود به . بعد نحو أسبوع ، بينما الجميع منصتون لأغنية « عينيّ فيها الدموع » لأم كلثوم انقطعت إذاعة الأغنية فجأة .  
قالت فاطمة :

- لماذا قطعوا إذاعة هذه الأغنية الحلوة؟

قال مختار :

- لست أدري .

انبعث من الراديو صوت المذيع يقول :

- ألقى الملك جورج السادس ملك بريطانيا كلمة في الراديو أعلن فيها الحرب على ألمانيا ...

وقال الملك في حديثه إن إنجلترا كانت قد أُنذرت ألمانيا بإعلان الحرب عليها لو غزت بولندا ، وتجد إنجلترا الآن نفسها مضطرة لتنفيذ هذا الإنذار بعد إقدام ألمانيا على هذا الغزو ، إذ أن بريطانيا لا تستطيع البقاء مكتوفة اليدين حتى تلتهم ألمانيا جميع دول أوروبا دولة بعد أخرى ..  
وأذيعت عقب ذلك موسيقى عسكرية . قالت فاطمة بذعر شديد :

- أعلنوا الحرب؟ إنها مصيبة .

ثم أذاعوا بعد ذلك نص حديث الملك جورج باللغة الإنجليزية ، ولاحظ مختار أن صوت الملك تهدج عندما قال إن إنجلترا تجد نفسها مضطرة لتنفيذ هذا الإنذار .

بعد أيام ، بينما كانت فاطمة مطلة من النافذة رأت شيئا غريبا لم تدرك معناه ، صاحت قائلة :

- يا مختار ، تعال لترى ماذا يفعلون .

هرع مختار إليها ونظر من النافذة ورأى ما رأيته فقال :

- إنهم يدهنون فوانيس النور باللون الأزرق حتى لا يستطيع الطيارون رؤية المدينة في أثناء الغارات الجوية .

قالت فاطمة بدهشة :

- الغارات الجوية؟ وماهى هذه الغارات الجوية؟

- عندما تأتي الطائرات لتضربنا بالقنابل .

سرى الرعب في جسد فاطمة وقالت :

- ولماذا يضربوننا بالقنابل؟ ما ذنوبنا؟

- وربما يلقون علينا أيضا غازات سامة ، ولذا فلقد طلبوا من المواطنين ضرورة الذهاب إلى أقسام البوليس لاستلام الكمامات الواقية من الغازات السامة .
- وهل لو لبسنا هذه الكمامات لا تقتلنا الغازات السامة ؟ .
- الكمامات تحميها من هذه الغازات .
- كان نوم فاطمة في تلك الليلة يقطعه الأرق وتصله الكوابيس ، فكان فزعها في النوم لا يقل عن رعبها . في اليقظة . كانت تتوقع وصول الطائرات في أية لحظة لتلقى قنابلها على المدينة ، ولكن عندما مرت الأيام ولم تحدث أية غارة جوية بدأ رعبها يخف تدريجيا إلى أن تلاشى . ذات يوم قالت لمختار :
- أريد أن أسألك سؤالا يا مختار .
- خيرا يافاطمة ، ماهو السؤال ؟ .
- منذ حضوري إلى هنا ولى رغبة في سؤالك هذا السؤال ولكنني خجلتة .
- لا بد أنه سؤال خطير ، ماهو ياترى ؟ .
- من هذه البنت الحلوة التي تضع صورتها فوق المكتبة ؟ .
- ضحك مختار وقال :
- هل هذا هو السؤال الذي خجلت من توجيهه لي منذ حضورك ؟ .
- أجل ، واللى أيضا كانت تود سؤالك عن الشيء نفسه .
- المسألة لا تستحق كل هذا الاهتمام . كانت الكلية قد أقامت معرضا علميا لنشر بعض الثقافة العلمية بين الجماهير ، وأشرف على هذه التجارب أساتذة الكلية وبعض الطلبة والطالبات ، وانتشر المصورون في أنحاء الكلية يسجلون هذا النشاط العلمي ، وهذه صورة لإحدى هذه التجارب وظهرت هذه الطالبة في الصورة . كانت هناك صور كثيرة فاخترت منها هذه الصورة تذكارا للمعرض .
- هل عندكم في الكلية بنات بهذا الجمال ؟ هذه البنت جميلة جدا ، هل تعرف اسمها ؟ .
- أجل ، اسمها درية .
- ولماذا اخترت صورة هذه البنت ؟ لا بد أنها أعجبك .
- بالصرحة ، أعجبني .
- لقد أحبا قلبي عندما رأيت صورتها ، لماذا لا نخطبها مادامت تعجبك ؟ .
- وهل تعتقدن أنني أستطيع الزواج من أى بنت تعجبني ؟ .
- أنت تتزوج ابنة السلطان ، وهل ستجد من هو أحسن منك ؟ .
- يبدو أن كثيرين أحسن مني .
- في هذه اللحظة انطلقت زمارة الإنذار ، وكانت قد انطلقت قبل ذلك عدة مرات على سبيل التجربة . قالت فاطمة :
- أليس هذا صوت زمارة الإنذار ؟ .
- أجل ، إنها تنذر بغارة جوية .

ارتفعت في الشارع أصوات تصيح :

- اطفئوا النور ، اطفئوا النور .

قال مختار :

- لا بد من الهبوط إلى البدروم في الخبأ .

وأردف صائحا :

- يابنيه ، هيا اهبطا للمخبأ أنت وفاطمة وسأحضر معي محمودا . أسرعوا قبل أن أطفئ النور .

ارتفعت الأصوات مرة أخرى تطلب إطفاء الأنوار . كانت الوالدة وفاطمة قد وصلا إلى الخبأ ،

فأسرع مختار بإحضار مفتاح الشقة ثم ذهب إلى محمود فوجده جالسا في فزع شديد ، ينغم قاتلا :

- لا أريد البقاء هنا . أريد الذهاب إلى البلد .

- لا وقت لهذا الكلام ، هيا معي يا محمود ، لا بد من الذهاب إلى الخبأ .

تعال الأصوات في الشارع تنادى :

- اطفئ النور . اطفئ النور .

أطفأ مختار أنوار الشقة وأخذ معه محمودا برفق ، وفي أثناء هبوطها السلم دوى صوت أحد المدافع

لأول مرة ، إذ أنهم في الغارات السابقة لم يسمعو أصوات مدافع أو انفجار قنابل . أحسن مختار بخوف

محمود على الرغم من الظلام الذى يلتف حولها . صاح محمود بصوت مرتجف :

- إنها قنابل .

قال مختار محاولا تهدئة محمود في حين أنه هو لا يقل عنه رعبا :

- ليست قنابل ، إنها المدافع المضادة للطائرات تحاول إسقاط الطائرات المغيرة . لا تخف .

دخل مختار بصحبة محمود إلى الخبأ مخترقا الظلام فلم يستطع رؤية والدته أو أخته ، ولكنه عرف

مكانها عندما سمع صوت فاطمة تقول لوالدها :

- هل تقوم الحرب ياربي في أول مرة أحضر فيها إلى هنا ؟ .

قالت الوالدة :

- ربما تتوقف الحرب يابنتي لو تركنا هذا المكان وعدنا إلى البلد .

اتجه مختار ساجبا محمود إلى مصدر الصوت قاتلا :

- شىء يقرف ، كل ساعة نازلين طالعين .

دوى من جديد صوت المدافع وانبعث من الشارع صوت كلب ينبح .

قالت فاطمة :

- أرئى لحال هذا الكلب المسكين الهائم في الشارع في وقت كهذا .

قال مختار :

- بالصراحة ، أنا أرئى لحالكم أنتم .

قال محمود بصوت ضعيف :

- هل ستطول هذه الحرب ؟.

قال مختار :

- من يدري ، قد تستمر شهرين أو ثلاثة .

قالت فاطمة بدهشة وفتح :

- هذا غير معقول ، هل نستطيع الحياة في هذا الرعب ثلاثة شهور؟.

قالت الوالدة :

- لكل شيء آخر .

اشتد صوت المدافع وبدت كما لو أنها تنطلق فوق سطح البيت ، وسمع صوت الطائرات واضحا .

التصق محمود بمختار قائلا :

- أنا خائف .

قال مختار وقد أحاط كني محمود بذراعه :

- لا تخف ، إنها مدافع وليست قنابل .

قال محمود :

- وهل المدافع لانتحيف ؟ ألا تنطلق منها قنابل ؟.

شق الظلام من أحد جوانب الحجاب صوت غاضب يقول :

- اعملوا معروفًا يا جماعة ، لا داعي للكلام ، الطائرات تحوم فوق رموسنا .

قال مختار :

- وهل سيسمع من في الطائرات أصواتنا ونحن نتحدث هنا في قاع العمارة ؟.

صاح صاحب الصوت الغاضب قائلا :

- لا داعي للكلام الآن ، ليس هذا وقت كلام ، كني كلاما .

ساد الصمت فترة طويلة . قالت فاطمة :

- طالت مدة هذه الغارة ، هل سبق هنا حتى الصباح ؟.

قال محمود :

- لا أريد البقاء هنا . أريد الذهاب إلى البلد .

قال مختار :

- لا تخف ، لقد توقف إطلاق المدافع منذ فترة طويلة ، الغارة على وشك الانتهاء .

قالت الوالدة :

- ولماذا إذن لا تنطلق زمارة الأمان .

في هذه اللحظة انطلقت زمارة الأمان التي لم تكن تتوقعها فاطمة فانتفضت وندت منها صرخة خوف

خافتة . قال لها مختار :

- مابلك يا فاطمة ؟ لماذا فزعت هكذا ؟ إنها زمارة الأمان . انتهت الغارة يا محمود .



أضياءً المحباً وبدأ الناس يرون بعضهم حدثت ضجة وهممة ، وسحب الرجال والنساء أطفالهم وغادروا المحباً وصعد مختار بصحبة محمود وخلفها الوالدة وفاطمة . فتح مختار الباب ودخلوا . قال مختار لمحمود :

- هل ارتحت الآن يا محمود؟.
- لا ، إنني خائف من الغارة القادمة .

### - ٤٣ -

كان مختار يرتدى ملابس الخروج استعداداً للذهاب إلى الكلية ، ومحمود نائماً في سريره يستمع إلى الراديو الموضوع على المصعدة بالقرب من السرير ، والوالدة وفاطمة في المطبخ . قالت فاطمة وهي تقف البيض :

- يخيّل إليّ أن في صدر مختار حزناً يكتمه عنا ولا يبوح به لأحد . فهو كعادته ، لا يجب الشكوى من أى شيء .

قالت الوالدة وهي تعبئ المرعى في برطانات :

- قد يكون غير مرتاح لوجودنا معه .

قالت فاطمة بدهشة واستنكار :

- مختار لا يرتاح لوجودنا معه ؟ وهل هذا معقول ؟ على العكس ، أعتقد أن وجودنا معه يخفف أحزانه . أمس أبدى محمود رغبته في السفر إلى البلد وظل مختار يقنعه بضرورة البقاء ولم يتركه إلا بعد أن عبّر رأيه وهدل عن فكرة السفر .

- وكيف عرفت أنه حزين مادام لم يُطلع أحداً على أسراره ؟.

- كلما دخلت غرفته وجدته ساهماً وكأنه في دنيا غير الدنيا ، وأصبح ميالاً للعزلة والصمت . مختار لم يكن هكذا .

- أسأليه عن سبب حزنه .

- يخيّل إليّ أن باله مشغول بالبنت صاحبة الصورة الموضوع على المكتبة ، يقول إن اسمها درية .

- درية ؟ هل سألتيه عنها ؟.

- أجل ، علمت منه أنها بنت عندهم في الكلية ، ولما استفهمت منه عنها شحب لونه وتلعثم ، وأمس عندما دخلت غرفته لأغبر ملاءة السرير وجدته ممسكاً بالصورة يتأملها ، ولما رآني أسرع بدسها تحت المخدة .

- لو كان فكره مشغولاً بشيء كهذا لما أخفاه عنا ، مختار لا يفكر في مثل هذه الأشياء .

أدرك مختار أنه تأخر عن الكلية فأسرع إلى المطبخ لتناول فنجان من الشاي . دخل في أثناء حديث

الأم وفاطمة اللتين فوجئتا برؤيته فقال :

- ماذا تقولان ؟ .
- تورد وجه فاطمة وخشيت أن يكون قد سمع حديثها ، وعلى الرغم من معرفتها أنه ذاهب إلى الكلية كمادته وجدت نفسها تقول :
- إلى أين أنت ذاهب ؟ .
- إلى الكلية طبعاً يافاطمة .
- ماكاد مختار يغادر البيت حتى سمعت الأم أننا منبعا من غرفة محمود فأسرت إليه وهولت فاطمة خلفها . سألته الأم بلهفة :
- ما بك يا محمود ؟ ما بك يا حبيبي ؟ .
- بطني تُوجعني وجعا شديدا .
- بمجرد عودة مختار سأطلب منه أن يستدعي الطبيب . سأغلي لك الآن بعض النعناع .
- كان مختار جالسا في شرفة نادى الكلية عندما أقبل شريف وفي يده خطاب سلمه لمختار قائلا :
- هذا خطاب مرسل إليك وجدته في إدارة الكلية .
- اختطف مختار الخطاب بلهفة ونظر إلى المظروف محاولا معرفة المرسل منه ولكنه لم يجده مكتوبا . فتح المظروف وما كاد يقرأ بضعة أسطر حتى لاحظ شريف شحوب وجه مختار فسأله :
- ماذا في الخطاب ؟ لماذا اصفر وجهك ؟ .
- إنه خطاب عجيب ، لن يخطر مُرسله على بالك .
- من مرسله ؟ .
- والد درية .
- قال شريف بدهشة :
- والد درية ؟ ! وماذا يقول ؟ .
- يقول إنه يرغب في رؤيتي ، ويدعوني لزيارتهم لأنه هو صاحب الرأي فيما يختص بزواج درية .
- وأنا حتى الآن لم نتحدث معا في هذا الموضوع .
- مامعنى هذا الكلام ؟ .
- لست أدري .
- وماذا ستفعل ؟ .
- مارأيك أنت ؟ .
- قابله لتعرف ماذا يريد .
- هل تظن أن درية على علم بهذا الخطاب ؟ .
- يخيل إليّ ذلك ، إذ ليس من المعقول أن يرسل أبوها خطابا كهذا دون معرفة رأيها .
- وما الذى جعلها تغير رأيها ؟ .
- سعد رفضوا طلبه وخطب فتاة غيرها وحسين لم يتقدم لها وخطب غيرها هو أيضا ، ولم يبق سواك .

- هل تعتقد أنني لو زرتهم سيوافقون على خطبتي في هذه المرة؟.

- هذا هو التفسير الوحيد المعقول .

عندما عاد مختار إلى البيت للغداء فوجئ بازدياد وطأة المرض على محمود . نسي كل شيء عن الخطاب واستدعى الدكتور جعفر الذي حضر بعد نحو نصف ساعة . كتب علاجاً . فأسرع مختار بشرائه من أقرب صيدلية ، وبعد نحو ساعتين هدأ الغضب وعادت الابتسامة إلى وجه محمود وبدأ يستمع إلى الراديو .

تذكر مختار الخطاب الذي وصله من والد درية ، فاعتكف في غرفته وأخذ يقرؤه من جديد ويعيد قراءته .

ترى هل أذهب لزيارتهم ؟ لابد من ذلك ، إذ لا ينبغي أن أعتمد على آراء وأفكار خال درية . يقول والدها في خطابه أنه هو صاحب الرأي . لدى شعور بأن المسألة ستتم اليوم على أحسن وجه . خرج من البيت ولم يخبر أحداً بوجهته . مرَّ عليه تاكسي خال فناده واستقله . شعر بنشوة مشوبة بقلق وهو منطلق نحو بيتها . عندما ضغط على زر الجرس فتحت له الباب مشيرة التي فرحت عندما رآته وقالت :

- بابا موجود في هذه المرة ، تفضل .

قادته إلى غرفة الصالون التي جلس فيها في المرة السابقة وجلس على الكرسي الذي سبق أن جلس عليه . تركته وأسرعت لإخطار العائلة . شعر برهبة وأخذ يتصور منظر والد درية تصوره طويل القامة نحيلاً أحمر الوجه أخضر العينين كثيف الشارب ، ولكن عندما دخل الغرفة وجده أميل إلى القصر حليق الشارب أسود العينين أقرب إلى البدانة . قال :

- أهلا وسهلا يا أستاذ مختار .

- أهلا بك .

جلس الوالد فجلس مختار . قال الوالد :

- شرفت وآنت .

تبخرت الرهبة التي كان يشعر بها مختار عندما سمع هذه الجملة وقال :  
- متشكر .

قال الوالد :

- أنا متأسف إذ لم يسعدني الحظ برؤيتك عندما شرفتنا في المرة السابقة ، كنت مسافراً ، الذي قابلته هو خال درية ، ورأيه بطبيعة الحال لا يعبر عن رأيي . ماذا قال لك ؟ أخشى أن يكون قد جرح شعورك .

شعر مختار بمزيد من السعادة والاطمئنان وقال :

- لا ، لم يرح شعوري ، كل ما حدث هو اعتراضه على مرتبي ، قال إنه لا يكفي لفتح بيت .  
قال الوالد بانفعال :

- لا حق له في هذا الاعتراض . لماذا يقول لك مثل هذا الكلام ؟ كل إنسان يبدأ صغيراً ثم يكبر . أرجو ألا تكون قد تضايقت أو تأثرت من كلامه .

أطرق مختار إلى الأرض ولزم الصمت . فأردف الوالد قائلاً :  
- أنا في الحقيقة رغبت في رؤيتك لأشكرك على عنايتك واهتمامك بدرجة في الكلية لقد اقترب الامتحان ودرجة تظلم في الحصول على مجموع كبير .

- درجة مجتهد وممتازة في دراستها .

قال الأب وكأنه يتحدث نفسه :

- لماذا لم تأت ؟

ثم رفع صوته منادياً :

- يادرية . درية ..

- نعم يا بابا .

- لماذا لم تحضري لتسلمي على أستاذك ؟

- ثم التفت إلى مختار وقال :

- درية مصممة على استكمال دراستها .

دخلت درية مبتسمة متألقة واتجهت نحو مختار وصافحته قائلة :

- أهلاً وسهلاً .

- أهلاً بك .

جلست بالقرب من مختار . واستطرد والدها قائلاً :

- مسألة الزواج يابني قسمة ونصيب . وعلى الرغم من أن لسان درية يلهج بالثناء عليك لاهتمامك

بها . إلا أنها غير متحمسة للزواج في الوقت الحالي .

دخلت الخادمة حاملة صينية القهوة . أخذت درية فنجاناً وضعت أمام مختار وآخر قدمته لوالدها

وغادرت الغرفة . استأنف الأب حديثه قائلاً :

- كنت أقول إن كل اهتمامها الآن منصب على الدراسة والرغبة في التفوق . إنها بنت طموحة ، تود

الحصول على أعلى الشهادات .

كانت الصدمة قاسية على مختار الذي بذل مجهوداً عنيماً ليبدو متماسكاً . قال بصوت ضعيف :

- لن يتعارض الزواج مع الدراسة .

- الزواج له مشاغله ومشاكله ، وهي لاتود أن يشغلها أى شيء عن الدراسة .

قال الأب وقد لاحظ شحوب وجه مختار :

- أرجو يا بني ألا يكون لهذه المسألة أى تأثير على رعايتك لها في الكلية ، إنها لا تحب أن يكون هذا

الموضوع سبباً في أى سوء تفاهم بينكما قد يؤثر على درجات العمل في مادة علم الحيوان ، أأنت أنت

الذي تقدر درجات الامتحان العملي ؟

شعر مختار وكأنه تلقى صفة قوية أوشكت أن تطيح بصوابه ، وود لو يترك البركان الذى يغلى فى أعماقه يقذف بحممه ليخف الضغط عن رأسه الذى أوشك أن ينفجر . ولكنه تمالك نفسه لبيد هادئا وقال :

- إذا كنت أرسلت لى هذا الخطاب لتطمئن على درجات درية فى الامتحان فأرجو أن تكون مطمئنا من هذه الجهة كل الاطمئنان ، فالمعيدون لا يصححون أية أوراق امتحان . لا نظرى ولا عملى ، الذى يتولى هذه المهمة هم أعضاء هيئة التدريس . وحتى لو كنت أنا الذى أقدّر لها درجات الامتحان العملى فأرجو أن تعلم سعادتك جيدا أن أى سوء تفاهم بينى وبين أى طالب أو طالبة لا تأثير له إطلاقا على تقدير درجاته . كل طالبة أو طالب ينال ما يستحقه من درجات بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

قال الأب وقد شعر بشيء من الخجل :

- على أية حال ، كل ما يهمنى ألا تكون غاضبا أو متأثرا ، والزواج يابنى قسم ونصيب ، لا أحب أن تغضب من درية فهى محتاجة لرعايتك .

- درية طالبة مجتهدة وليست فى حاجة لرعايتى أو رعاية غيرى . وإذا احتاجت لأية مساعدة فأنا على أتم استعداد لمساعدتها كما أساعد أى طالب أو طالبة ، عن إذنك .

قام مختار استعدادا لمغادرة المنزل فقال الأب :

- إلى أين ؟ لماذا لاتبقى معنا بعض الوقت ؟

- أخى مريض وأريد العودة إلى البيت لأطمئن عليه .

## - ٤٤ -

شعر مختار برغبة شديدة فى زيارة شريف والتحدث معه فى هذا الموضوع الذى لن يستطيع ذكر أى شيء عنه لأفراد أسرته . عندما دق جرس الباب فتح له شريف الذى هاله الحزن البادى على وجهه مختار . قال له وهما متجهان نحو غرفة الصالون :

- لو لم تحضر لحضرت أنا الليلة لزيارتك فى بيتك . هل زرت درية ؟

غمغم مختار قائلا :

- سأقص عليك كل شيء .

شعر شريف بانقباض . ترك مختار ثم عاد إليه ومعه زجاجة مياه غازية فأخذها مختار ووضعها أمامه وقال :

- ماذا تظن السبب الذى دفعه لإرسال خطابه ؟

- ماذا ؟

- لا يمكن أن يخطر على بالك ولا على بال العفريت الأزرق .

- كيف ؟
- لقد أرسل لي ذلك الخطاب لا لشيء سوى رغبته في الاطمئنان على درية . إنه يخشى عليها مني .
- يخشى عليها منك ؟ ماعنى هذا الكلام ؟
- بتصورون أنني سأضطهدها وأتسبب في رسوبها في الامتحان أو أُنخسها حقها عند تقدير درجاتها .
- لقد شعرت بمنتهى المهانة .
- هذا غير معقول ، وماذا قلت له ؟
- أطرق مختار نحو الأرض وقال بلهجة يمتزج فيها الحزن والسخرية :
- طمأنته .
- شيء عجيب . هذا آخر ما كنت أتوقع .
- ثم أردف قائلاً وكأنه يحدث نفسه :
- عدت من عندهم في هذه المرة أيضا محطم النفس .
- لا يا شريف ، لن تنطم نفسى أبدا ، لن أفكر في درية بعد اليوم . سأجعلهم في يوم من الأيام يندمون على رفضهم طلبي . لا ينبغي أن يُعامل إنسانٌ مثل هذه المعاملة . لن أذل نفسي لأى إنسان مهما كان .
- كل هذا لأنهم رأوك ملهوبا عليها ، تكاد تعبدها .
- وهل التفتاني في الحب يقابل بهذه القسوة ؟ هل هذا جزءا المحب المخلص ؟ لقد بدأتُ الآن أشعر بالراحة ، راحة اليأس . الإنسان عندما يأس يأسا تاما من الحصول على شيء يرتاح . الأمل الكاذب هو الذى يسبب العذاب . كنت أرى شعاعا من الأمل لا وجود له ، من أجل هذا تعبت ، تعبت جدا ، تعبنا شديدا فوق طاقة البشر ، ولكن اليوم انتهى كل شيء وشعرت بالارتياح عندما فقدت كل الأمل . على الرغم من بذل كل ما لديه من طاقة ليبدو قويا حاسما ، إلا أن صوته تهدج في نهاية حديثه .
- قال شريف :
- تأكد يا مختار أنك ستعثر على الإنسانية الجديرة بك وسيندمون على رفضهم طلبك .

## - ٤٥ -

كان القمر بدرا ، ولكن لا أحد ينظر إليه متأملا مجال طلعه كما اعتاد مختار أن يفعل في قريته ، فالتاس في المدينة ينظرون إلى الأرض أكثر مما ينظرون إلى السماء ، وكان مختار جالسا خلف مكتبه مرتديا (البيجامة) يقرأ أحد البحوث العلمية ويدون بعض الملاحظات ، ومن آن لآخر ينظر إلى غصن شجرة يبدو من خلال نافذة غرفته كان يجلو له النظر إليه عندما ينعكس عليه ضوء القمر مختلطا بضوء أزرق خافت يطل بصعوبة من مصباح الشارع .

دخلت فاطمة الغرفة حاملة فنجان شاي مختار . وضعت فنجان الشاي أمامه . وعند خروجها لاحت  
منها الفتاة نحو المكتبة فلاحظت اختفاء صورة درية فقالت :

- أين الصورة التي كانت فوق المكتبة؟

قال مختار دون أن يرفع عينيه عن الأوراق التي أمامه :

- لم يعد لها لزوم ، لقد انتهى معرض الكلية . انتهى كل شيء .

دق جرس الباب فظل مختار جالسا وكأنه لم يسمعه . قالت له فاطمة :

- قم يا مختار افتح الباب .

- أنا مشغول ، افتحي أنت ، أرجوك .

نظرت فاطمة إلى الملابس التي ترتديها لترى ما إذا كانت لائقة أم لا ينبغي أن يراها أحد غريب .  
استمر رنين الجرس فذهبت وفتحت الباب . سمعها كل من في الشقة تصبح قائلة :

- أهلا وسهلا . هذه مفاجأة سارة .

سمعت فاطمة صوت والدتها تقول :

- من يا فاطمة؟

- حامد أخي يائينة .

وحامد هو الشقيق الأكبر ويعيش في القرية ويعمل مدرسا في المدرسة الثانوية بعاصمة المديرية .

جلس حامد بالقرب من والدته ، وأسرع مختار للتحجب به ، قال له مختار :

- ماذا حدث؟ ما الذي أحضرك هكذا على غير انتظار؟

قال حامد بعد فترة صمت قصيرة :

- الذي أحضرنى شيء مهم لم أتم بسببه طوال الليل .

غمغم مختار قائلا :

- يا ساتر يارب .

اتجهت جميع الأنظار . إلى حامد في فزع وترقب .

قالت الوالدة بلهفة :

- ماذا حدث؟

- انتظروا حتى ألتقط أنفاسي .

ثم التفت إلى والدته وقال :

- كيف حالك يا نينة؟

- الحمد لله ، كيف حالكم أنتم؟

- أبي تعب .

قالت الأم وفاطمة بلهفة معا :

- تعب من ماذا؟.

- بعدكم عنه أتعبه . يقول لنا « هل نسوفى أم ماذا؟ » . يبدو أن الحياة هنا فى القاهرة أعجبتكم .

قالت الأم :

- أنت تعرف يا ابنى أننا لم نحضر إلى هنا للفسحة . ألم نحضر لعلاج محمود أخيك؟.

- وكيف حال محمود الآن؟.

قال مختار :

- الحمد لله . إنه فى تحسن ، لقد طمأننا عليه الدكتور عندما رآه آخر مرة .

قال حامد :

- ربنا يشفيه .

قالت الوالدة :

- آمين يارب .

قال حامد :

- أين هو؟.

قالت فاطمة :

- نائم .

قال مختار :

- إذا كنت التقط أنفاسك ، خبرنا عن ذلك الشيء الذى أقلق منامك حتى الصباح .

قال حامد وقد أطرق للأرض :

- إنها حكاية مخزنة .

قالت الوالدة بفرح :

- ما هى ؟ تكلم يا ابنى نشفت ريقنا وأتعبت أعصابنا .

- وصل خطاب من إنجلترا ، من عادل .

قالت فاطمة بلهفة وفرح :

- ما به ؟ هل جرى له شيء؟.

- ياريت .

قالت فاطمة بدهشة :

- ياريت ١٩ ماذا جرى؟.

قال حامد وكأنه يميضغ الكلام :

- ياريت الذى جرى ما كان .

قالت الأم بصبر نافذ :



- ماذا حدث ؟ تكلم .

- حضرته تزوج هناك .

قالت الوالدة غير مصدقة :

- تزوج !؟ كيف يحدث هذا ؟ وفاطمة التي عقد قرانه عليها ما مصيرها ؟ ماذا يقول في خطابه

بالضبط ؟ .

- يقول إنه اضطر ، تحت ظروف قهرية . إلى الزواج من بنت إنجليزية وإنه لن يستطيع الجمع بين

زوجين .

- هل يعنى أنه يريد ترك فاطمة :

ارتعشت شفتا فاطمة وكأنها كانت تود أن تقول شيئا ثم آثرت ألا تقوله وساد صمت حزين . ثم

غمغمت قائلة بصوت متهدج مرتجف :

- شعرتُ بذلك في الصيف الماضي . في آخر زيارة لنا .

ثم اختنقت بالبكاء فقامت واعتكفت في إحدى الغرف . قالت الوالدة :

- لقد أضاع منها ثلاثة عرسان .

بللت الدموع عيني مختار وأطرق للأرض مغمما بكلمات غير واضحة وقالت الأم موجها حديثها

لحامد :

- أنت يا ابني لم تحضر لنا معك سوى الأخبار المحزنة ، ألا يوجد لديك خبر واحد يفرح القلب ؟ .

مكث حامد في القاهرة ثلاثة أيام ، وفي مساء اليوم الرابع بينما كانوا جالسين في غرفة نوم محمود قال

حامد :

- أبي طلب مني ألا أعود إلى البلد بدونكم يا نينة ، فما رأيك ؟ .

- أنا أتمنى العودة اليوم قبل الغد ، ولكن المهم صحة محمود . ما رأيك يا مختار ؟ هل من الممكن أن

نأخذ محمودا معنا ونعود للبلد ؟ .

- أخذتُ رأى الدكتور في هذه المسألة فقال إن محمودا الآن في طريقه للشفاء ، ومن الممكن أن

يسافر ويوظب هناك على تناول الأدوية التي كتبها له على أن أطلعه أولا بأول على حالته - ما رأيك أنت

يا محمود ؟ هل تفضل البقاء معي هنا أم السفر إلى البلد مع والدتك ؟ .

في هذه اللحظة انطلت زمارة الإنذار ، فسأل حامد الذي لم يسبق له سماعها :

- ما هذا ؟ .

قال مختار :

- زمارة الإنذار ، تنذر بغارة جوية .

قال محمود بانفعال :

- أريد الذهاب إلى البلد ، لا أريد البقاء هنا .

- قبل أن يطفئوا الأنوار ويهبطوا إلى الخبأ بدأت أصوات المدافع تنبث من جهات متفرقة من المدينة .  
قال حامد بفرع :  
- ما هذا ؟ إنها قنابل  
قال مختار وهو ممسك بمحمود في طريقه نحو باب الشقة :  
- هيا بسرعة يا جماعة نهبط إلى الخبأ .  
قالت فاطمة بصوت متهدج :  
- لن أترك الشقة ، سأبقى هنا .  
اشتد صوت إطلاق المدافع واهتز زجاج النوافذ ، فقال مختار بعصية :  
- هيا يا فاطمة اعلمي معروفًا .  
ارتفعت أصوات تنادى :  
- اطفئوا النور . اطفئوا النور .  
أسرع مختار بإطفاء الأنوار قائلا :  
- يا للمصيبة ، نسينا إطفاء النور .  
أخذوا يتحسسون طريقهم وهم يهبطون السلم . قال حامد :  
- أنا لا أستطيع المشى ، لا أرى شيئا . أنتم تعيشون هنا في رعب ، ما الذى يقيقكم هنا ؟ نحن  
لا نشعر في البلد بشيء من هذا ، لا مدافع ولا غارات جوية ، ولا كان في الدنيا حربا .  
كانوا قد وصلوا إلى الخبأ عندما قال محمود وقد بدأ يرتجف :  
- أريد العودة إلى البلد .  
قال مختار :  
- لا تخف يا محمود ، ستسافر إلى البلد .

## - ٤٦ -

منذ صباح اليوم التالى بدأ الاستعداد للسفر إلى القرية . استعدت الوالدة وحامد ومحمود الذى بدأ سعيدا لمغادرة القاهرة ، أما فاطمة فقد ظلت قابعة في ركن غرفة نومها بدت ساهمة مطرقة للأرض واضعة كفها على خدها ساجدة في بحر من الذكريات التى كانت ، فيما مضى ، يحلوها تذكُّرها وتحولت الآن إلى سياط عذاب تمنى لو تمحى من ذاكرتها . لم تلاحظ دخول حامد غرفتها إلا عندما سمعته يقول :

- ما هذا يا فاطمة ؟ أذن تسافرى معنا إلى البلد ؟  
بوغتت عندما سمعت صوته فالتفت نحوه ثم عادت إلى الوضع الذى كانت عليه وقالت :

- سابقى هنا مع مختار ، لا أريد أن أتركه وحده .
- أطيعنى ، تعالى معنا ، لا يوجد في البلد «اطفئوا النور» ولا غارات جوية .
- من أجل هذا أريد البقاء مع مختار ، لن أتركه وحده في هذا الحجم
- ولماذا لا يسافر مختار معنا؟ .
- عندما سمع مختار اسمه دخل الغرفة . قال له حامد :
- لماذا تبقى وحدك هنا يا مختار؟ أليست الآن في إجازة الصيف؟ .
- لا ، الدراسة ما زالت مستمرة . وحتى في إجازة الصيف لن أستطيع السفر إلى البلد .
- لماذا؟ .
- أنا مرتبط بالبحث الذى أجريه في الكلية للحصول على الماجستير توجد حشرات أقوم بتربيتها في الكلية ولا بد من ملاحظتها ورعايتها يوميا .
- أيرنَ الضرورى أن تمكث هنا من أجل الحشرات ؟ وهل توجد حشرات أكثر من التى عندنا في البلد ، أنت هناك تشبع حشرات ترعى نفسها بنفسها ولا تحتاج لمن يرهاها .
- ولكن لا توجد هناك معامل وأدوات
- أنتم الجانون على أنفسكم ، هيا يا نينه ، هيا يا محمود .
- سأحضر معكم ونستقل تاكسيا معا حتى باب المحطة لأودعكم .
- عندما عاد مختار إلى البيت وجد فاطمة في المكان نفسه الذى كانت فيه .
- قال :
- ما بك يا فاطمة ؟ لماذا تضعين يدك على خدك هكذا ؟ لماذا كل هذا الحزن؟ .
- قالت فاطمة بصوت مختق بالبكاء :
- دواعيه كثيرة .
- لا أحب أن أراك حزينة . أعلم أن ذلك الخطاب الذى ورد من إنجلترا هو الذى أحزنتك ، لكن تأكدى أن ربنا يعمل ما فيه الخير . إنت إنسانة طيبة وسيكون من نصيبك شخص طيب مثلك .
- ليس هذا وحده الذى يهزنى .
- وماذا يهزلك غير؟ .
- أنا حزينة من أجل محمود . كان قلبي يتقطع عندما رأيتَه اليوم وهو يبسط السلم . أنا خائفة عليه .
- الدكتور قال إنه يتحسن بسرعة وسوف يشفى إن شاء الله ويصبح على ما يرام . ما رأيك لو نخرج معاً نتفرج على مدينة الملاهى : أنت لم تخرجى من البيت منذ حضورك .
- لا رغبة لدى في الخروج ، اذهب أنت إذا كنت تريد .
- ذهابي من أجلك أنت ، هيا البسى بسرعة .
- كانت هذه أول مرة ترى فيها فاطمة مدينة الملاهى . استلقت انتباهها الضجة المنبعثة من أماكن متفرقة ، ومن خلال الموضوعاء التقطت أذناها أغنية « إن كنت أسامح وأنسى الأسى ، ما اسلمش عمري

من لوم عينيّ» لأم كلثوم تنساب مجلجلة من مكبرات الصوت . سارت فاطمة مع مختار يشقان طريقها بين أمواج من البشر ، و خيول من الخشب امتطاها أطفال وصبيّة بنين وبنات وفتية وفتيات يدورون مع الخيل في مستوى أفقى دورانا سريعا . ولقت نظر فاطمة شيئا في نحو السعيرين يمتطى إحدى هذه الخيول وقد وضع أمامه طفلا صغيرا يسكه بكلتا يديه ، وسيارات تسير بالكهرباء يسيطر على عجالات قيادتها خليط من مختلف الأعمار محاولين تجنب التصادم ولكنهم يتصادمون كثيرا . عندما وصلت الأغنية إلى المقطع الذى تقول فيه أم كلثوم « دبل جفونها طول النواح ، فاضت شجونها ونومعها راح » كان مختار وفاطمة قد وصلا إلى العجلة الكبرى المعلق بها مقاعد مزدوجة تدور في مستوى رأسى ، بدت لعيني فاطمة وكأن قمتها تلمس السحاب . قال مختار لفاطمة .

- ما رأيك لو نركب هذه العجلة العالية التى تلف .
- وهل من المعقول أن أركب أشياء كهذه ؟ هل أنا طفلة ؟.
- ألا ترين الراكبين ؟ إن معظمهم أكبر منا سنا .
- لا أستطيع ركوبها ، فقاعدها ترفع في السماء . أخشى أن يعتربنى دوار .
- لن تشعري بأى دوار ، هيا تعانى .

بدأت العجلة تخفف من سرعتها تدريجيا ، وكلما وصل زوج من المقاعد إلى الأرض تتوقف العجلة ليهبط من هذه المقاعد من عليها من الركاب ويحتل مكانهم ركاب جدد . جذب مختار شقيقته فاطمة من ذراعها فلم تستطع منع نفسها من دخول المكان المعد للركوب . اشترى تذكرتين وركب مع فاطمة في مقعدين متقابلين .

وجدت فاطمة نفسها تعلقو تدريجيا حتى وصلت إلى قمة العجلة فشعرت وكأنها مسوقة إلى حبل المشنقة ، فأغمضت عينيها حتى لا تشعر بالارتفاع الهائل الذى وصلت إليه ، وبدأت العجلة تسرع في الدوران شيئا فشيئا فارتفع الصراخ من أماكن كثيرة وقبضت فاطمة بكل قوتها على قضيب معدنى أمامها ولكنها لم تصرخ لأن الصوت احتبس في حلقها ، وبعد نحو ثلاث دقائق مرت على فاطمة وكأنها ثلاثة أعوام شعرت بأن سرعة الدوران بدأت تبطئ . ففتحت عينيها فوجدت نفسها عند قمة العجلة فأسمرت . بإغماض عينيها حتى يخيل إليها أن العجلة لن تستأنف الدوران قال لها مختار بعد أن وضعها أقدامها على الأرض :

- ما رأيك ؟ هل خفتِ ؟.
- كنت سأموت من الخوف . كان يخيل إلى أنني سأطير في الهواء .
- سارا نحو السيارات التى بالكهرباء ، وبعثة امتقع لون مختار وبدا مرتبكا وقال لفاطمة بلهفة :
- تعالى ، تعالى بسرعة :
- فزعت فاطمة وخشيت أن يكون أخوها قد شعر بتعب مفاجئ ، قالت :
- ما بك ؟ هل تعبت من الدوران ؟.
- لا شىء ، لا شىء ، هيا نغادر هذا المكان بسرعة .

- قالت فاطمة بدهشة :
- لماذا ؟ ماذا جرى ؟.
- قال وهو يجرها بعيدا عن المكان :
- هل تذكرين الصورة التي كانت فوق المكتبة ؟.
- صورة درية ؟
- أجل ، ماها ؟.
- صاحبة الصورة ، درية ، مرت من أمامنا الآن .
- ولماذا فزعت هكذا ؟ هل هذا شيء يدعو للفرع ؟
- لا أريد أن أراها .
- ولكنني أريد أن أراها .
- ها هي ذى قد عادت مرة أخرى .
- إنها جميلة جدا ، أجمل من الصورة . ومن هؤلاء الذين معها ؟.
- أخواتها .
- ولكن لماذا لم تسلم عليك ؟ ألا تعرفك ؟.
- لا أود أن تعرفني أو أعرفها .
- حاولت أختها الاتجاه نحوك لتسلم عليك ولكنها جذبها من يدها . شيء عجيب . لماذا فعلت ذلك ؟.
- حدث سوء تفاهم بيننا .
- وهل من المعقول أن يُحدث أحد سوء تفاهم مع بنت حلوة كهذه ؟.
- هيا نجلس في هذا الكازينو ، تعبت من المشي .
- ماكان يتجهان نحو الكازينو حتى انطلقت زمارة الإنذار . قالت فاطمة بفرع :
- ما هذا ؟ أليست هذه زمارة الإنذار ؟.
- أجل ، هي بعينها .
- قالت فاطمة وقد شعرت برجفة تسرى في جسدها :
- وماذا ننتظر ؟ ألا يوجد هنا مخبأ ؟ هيا بسرعة .
- أرى الناس يجرّون في هذا الاتجاه .
- نجري معهم .

أسرعا بالجرى مع من يجري ، وفي أثناء ذلك انطلقت المدافع تدوى من أماكن شتى فازدادت سرعة دقات قلبي فاطمة ومختار وبدأ يشعران بتعب شديد ويلهتان في أثناء الجرى وجدا نفسيهما أمام مبنى من طابقين امتلأ الدور الأرضي منه بالنساء والرجال والأطفال ، ولاحظا وجود سلم وعددا كبيرا من الناس يهبّون ذلك

السلم الذى اتضح أنه يؤدي إلى بدروم . فضّل مختار وفاطمة البقاء في الدور الأرضي خوفاً من الزحام الشديد في  
البدروم . استأنفت المدافع طلقاتها ، قالت فاطمة :

- أنا خائفة .
- لا تخافى ، سليمة إن شاء الله .
- ليتنا ما خرجنا من البيت .
- لا أحد يدري أين الأمان ، قد يكون الأمان هنا أكثر من البيت .
- همست فاطمة قائلة :
- درية وأخواتها يقفن خلفنا .
- لا أريد أن أراهن .
- ثم أردف قائلاً بعد فترة صمت قصيرة :
- أصبح مصيرنا في هذه اللحظة كمصيرهن .
- ازداد ارتفاع صوت طلقات المدافع ، قالت فاطمة :
- القنابل اقتربت منا .
- أنا سامع صوت الطائرات فوق رؤوسنا بالضبط .
- استر يارب . لماذا لا نساfer إلى البلد يا مختار؟ .
- لا أستطيع ، لابد من مواصلة البحث العلمى الذى أقوم به لأحصل على الماجستير .
- وهل ستموت لو لم تستمر في هذا البحث؟ .
- لا ، يبدو أننى سأموت لو واصلت المضى فيه .
- استمر إطلاق المدافع ، أخذت فاطمة تنغمم قائلة :
- أشهد إلا إله إلا الله ، أشهد إلا إله إلا الله ، ياساتر يارب ، لا أستطيع إيقاف الرعشة  
التي في جسدى .

- لا تخافى ، العمر واحد والرب واحد ، كل إنسان سيأخذ نصيبه .
- طالت الغارة على الرغم من توقف صوت المدافع . قالت فاطمة بصبر نافذ :
- هل سنظل واقفين هنا حتى الصباح ، ألن تنتهى هذه الغارة؟ .
- لكل شيء نهاية ، لاشيء يستمر إلى الأبد .
- في هذه اللحظة انطلقت زمارة الأمان ، قال مختار :
- ها هي ذى الغارة انتهت ، وها نحن أولاء على قيد الحياة ، ألم أطلب منك إلا تخافى؟
- قال هذا وهو يعلم جيداً أنه كان أكثر منها رعباً . عادا إلى البيت وكأنهما عائدان من ميدان القتال .
- وجدوا قطعة جالسة أمام باب شقتهم وقطيطاتها الثلاث منهمكات في الرضاعة .
- أنظر يا مختار ، هل تذكر القطعة التي كانت نحبو أمام منزلنا؟ .
- ما بها؟ .

- لقد كبرت ، وما هي ذى جالسة بأولادها .
- كل شيء يكبر . كل شيء يتغير . شيء يبحر .
- وما الذى يبحر فى ذلك ؟
- هناك شيء يبحرني ويشغل بالي .
- أنا أعرفه .
- شيء آخر غير الذى تعرفينه .
- ماهو؟ .
- مشكلة الوجود والعدم ، كيف جاء كل هذا الوجود من العدم؟ وما معنى وجودنا فى الدنيا . ولماذا يتحتم على كل كائن حى أن ينجب ذرية؟ .
- ألا تريد أن يتزوج الناس؟ .
- لا أقصد زواج الناس فقط ، أريد أن أعرف لماذا تتزوج جميع الكائنات الحية وتنجب ذرية .
- وكل ذرية تكبر وتموت وتحمل محلها ذرية أخرى ، ما معنى هذا وما الهدف منه ؟ نحى يكاد ينفجر عندما أفكر فى هذه الأشياء؟ .
- وما تعلمته فى المدرسة والجامعة طوال هذه السنين لم يستطع أن يفسر لك هذه الأشياء؟
- كلا ، ما تعلمته لم يستطع تفسير هذه الألغاز .
- إذن ما فائدة التعليم ؟ هذا يدل على أن المتعلم تساوى مع من لم يتعلم .
- لا ، بل الذى لم يتعلم أصبح أفضل من الذى تعلم .
- كيف؟ .
- الذى لم يتعلم لا يوجع رأسه فى التفكير فى مثل هذه الألغاز ، إنه يجامى ليأكل وينام وينجب ذرية . من الذى علم القطة الحنان على أولادها؟ . هذه مسألة أخرى تحيرني لم يفسرها العلم .
- وهل هذا يحتاج لتعليم؟ هكذا خلقها الله . الذى علمها إنجاب الذرية علمها محبة أبنائها .
- سأذهب لأحضر طعاما لهذه القطة ، مسكينة ، لا بد أنها جوعانة .

## - ٤٧ -

- كان مختار يهبط السلم الداخلى للكلية فى طريقه إلى غرفة أفلاطون أستاذ علم الحشرات عندما تقابل مع شريف صاعدا السلم للوصول إلى غرفة المعيدين بقسم علم الحيوان ، وقفا فى منتصف السلم يتحدثان ، قال شريف :
- مبروك يا مختار ، لماذا أخضيت عنى هذا النبأ السعيد؟ .
- قال مختار بدهشة :

- أى نبأ هذا ؟ لا توجد فى حياتى أنباء سعيدة .
- درية رأئتك مع خطيبتك فى مدينة الملاهى ونقلت الخبر لمرم . تقول إن خطيبتك جميلة جدا .  
ضحك مختار وقال :
- لا يا شريف ، البنت التى رأتها درية معى هى أختى .
- لم أكن أعلم أن لك أختا بهذا الجال لكن قل لى ، درية قالت لمرم إنك حتى الآن مازال وجهك يشحب عندما تراها ، ألم تقل لى أنك لم تعد تفكر فيها ؟ .
- أنا لا أفكر فيها مطلقا . لقد قتلت العاطفة التى كانت بيننا . كل شىء انتهى . طردتها من قلبى شر طردة .
- دق جرس الإسعاف دقات شبه متواصلة ، فأسرع شريف ومختار إلى باب المبنى وتمكنا من رؤية السيارة وهى تمرق متجهة نحو معمل الكيمياء . قال مختار :
- ترى لماذا حضرت هذه السيارة إلى الكلية ؟ لقد وقفت عند معمل الكيمياء .
- أقبل زميلها كمال واصف قادما من المكان الذى وقفت عنده السيارة . نادى شريف كمالا وسأله عن سبب مجيئها . قال كمال :
- وقع حادث لإحدى الطالبات فى معمل الكيمياء .  
قال شريف :
- من هى هذه الطالبة ؟ .
- بنت اسمها درية .
- قال مختار بفزع :
- ماذا حدث لها ؟ .
- ابتلعت سمأ .
- كيف ؟ .
- كانت تمتص بالماصة سائلا به مادة سامة فى أثناء إجراء إحدى التجارب فتسرب إلى معدتها غصبا عنها .  
انطلق مختار مهرولا نحو معمل الكيمياء وقد فقد السيطرة على أعصابه صائحا :
- لا بد أن أراها ، لا بد من رؤية درية .
- أسرع شريف خلف مختار خوفا عليه عند مواجهة الموقف ، وقبل وصولها بأقل من دقيقة تحركت السيارة وأسعدت نحو باب الخروج فجرى مختار خلفا وهو لا يدرى لماذا يجرى ، ورنين أجراسها يلطم أذنيه ، ولكنه توقف عن الجرى عندما أسعدت السيارة واختفت عن الأنظار وتلاشى تدريجيا صوت جرسها ، فأسرع بالاتجاه نحو معمل الكيمياء للاستفسار عن حالة درية وظل شريف واقفا فى مكانه ناظرا إلى مختار بإشفاق . رأى مختار نبيلة خارجة من معمل الكيمياء فسأها بلهفة :
- ماذا حدث لدرية يا نبيلة ؟ أين هى ؟ .
- نقلوها فى سيارة الإسعاف إلى المستشفى ؟ .



- أين هذه المستشفى؟
- لست أدرى ، يُخيل إليّ أنها مستشفى قصر العيني
- كيف حالها؟ هل رأيتها؟
- يبدو أن حالتها خطيرة ، فهي لا تستطيع النطق .
- وهل من الممكن أن تشفى؟
- صاح شريف وفي حديثه رنة تأنيب وامتنكار :
- ما بك يا مختار؟ لماذا ترتعش هكذا؟ يبدو أنك أنت أيضا محتاج لسيارة إسعاف .
- ظلت نبيلة ناظرة إلى مختار مدهوشة لما أصابه من اضطراب . قال مختار :
- من قال إنني أرتعش؟ أنا لا أرتعش .
- قال مختار منفعلا :
- بل ترتعش ووجهك اصفرّ .
- إنني أتألم لأى إنسان يصاب .
- لا ينبغي أن تبدو بهذا الاضطراب المحجل . لماذا لا تسيطر على مشاعرك؟ أنت لا تدرك ما تفعله
- ثم أردف صائحا :
- يا مختار أوقف هذه الرعشة ، سوف يُجرون لها غسيل معدة وتشقى . أنا خائف عليك أنت .
- سارت نبيلة متجهة نحو قسم النبات ، وسحب شريف مختارا من يده واتجها معا نحو قسم علم
- الحيوان .
- فزعت فاطمة عندما رأت مختارا عند عودته للبيت فى ذلك اليوم ، سألته بلهفة :
- ما بك يا مختار؟ هل تشعر بتعب؟
- لا أشعر بأى تعب .
- لا ، لست فى حالة طبيعية ، ماذا حدث؟
- أنا مريض . يخيل إليّ أن حرارتي مرتفعة .
- اذهب واسترح فى السرير ، هل تحب أن أعمل لك شيئا؟
- أريد فنجان شاي .
- حاضر .
- شرب مختار فنجان الشاي وابتلع اسبريتين وشعر برغبة فى النوم فنام .
- عندما صبحا من نومه بعد نحو ساعة قالت له فاطمة :
- كيف حالك الآن؟
- أشعر بتحسن .
- نسيتُ شيئا ، ورد لك خطاب اليوم .
- أين هو؟

- عندك في درج الكومودينو .
- فتح الدرج فوجد الخطاب ، أسرع بفتحه ثم قال :
- إنه من حامد أخى .
- ماذا يقول :
- أخذ يقرأ الخطاب في صمت ثم قال :
- يقول « ولقد تم بحمد الله يوم الخميس الماضي عقد قرانى على فتحية ابنة خالتى .. »
- الحمد لله . كنت أتمنى أن يتزوج . عقبالك
- عقبالك أنت يا فاطمة ، يبدو أنى لن أتزوج .

## - ٤٨ -

كانت فاطمة منهكة في تجميع البامية بالمطبخ عندما دخل مختار وفي يده أقة لحم وضعها على المنضدة قائلاً :

- ارتفع سعر اللحم يا فاطمة .
- لماذا ؟ أصبح بكم ؟
- تسعة قروش للأقة
- قالت فاطمة بدهشة :
- تسعة قروش !؟ ولماذا ارتفع سعرها ؟.
- إنها الحرب ، وأتوقع أن يرتفع سعرها أكثر من ذلك .
- صاحت فاطمة قائلة :
- غير معقول ، هل يرتفع سعر الأقة عن تسعة قروش ؟.
- ربما . من يدري ؟ لقد أفلت الزمام ، قد يصل سعرها في يوم من الأيام إلى عشرين قرشا .
- تكون كارثة لو حدث ذلك .

## - ٤٩ -

بعد نحو أسبوع وصل إلى مختار خطاب من والده يفيد بأن حلمى قبل بكلية الطب وأنه سوف يعيش مع مختار وفاطمة ، فأسرع مختار بشراء مكتب متوسط الحجم من خشب الزان بمبلغ خمسة وسبعين قرشا ليذاكر عليه دروسه عندما يحضر ووضعه في الغرفة التي كان يشغلها محمود .

- ما رأيك في هذا المكتب يا حلمى ؟.
- هائل .

- إنه مكتبك ، وهذا سريرك ، والمهم الآن أن تهتم بدروسك وتذاكرها أولاً بأول فالدراسة في إعدادى الطب تحتاج لمجهود كبير . وماهى أخبار محمود ؟
- سيستأنف الدراسة هذا العام بعد أن أجبره المرض على الانقطاع عنها عاما كاملا .
- نسى مختار جميع أحزانه وهزته الفرحة من الأعماق وصاح قائلا :
- يا فاطمة ، فاطمة .
- هرولت فاطمة إليه قادمة من المطبخ قائلة :
- خيرا يا مختار ، ماذا حدث ؟ .
- قال مختار وفي صوته فرحة :
- محمود شنى وسيذهب إلى المدرسة .
- شعرت فاطمة بسعادة لم تشعر بها من مدة طويلة وقالت :
- أحقيقة؟ الحمد لله ، كنت نذرت جنبها للفقراء ودستى شمع لضريح السيدة زينب لوشنى .
- انطلقت زمارة الإنذار . صاح حلمى بدهشة وفزع قائلا :
- ماهذا ؟
- قال مختار متظاهرا بعدم الاكتراث :
- لاشيء ، إنها مجرد غارة جوية .
- قال حلمى :
- غارة جوية ؟ .
- أجل بعض الطائرات الإيطالية جاءت لتلقى علينا بعض القنابل .
- صاح حلمى قائلا وقلبه يكاد يقفز من صدره :
- قنابل ؟ .
- لانتحف ، لماذا فزعت هكذا ؟ هيا معنا نسرع بالتزول إلى الخبأ ، هيا يا فاطمة .
- ارتفعت الأصوات كالعادة تنادى من الشارع :
- اطفئوا النور . اطفئوا النور .
- دوت أصوات المدافع تحترق السكون من أماكن متفرقة وكأنها سيمفونية مرعبة تعزفها شياطين مجنونة . صاح حلمى قائلا :
- إنها قنابل .
- اندفع الجميع يبهطون السلم وقد ارتفع صوت وقع أقدامهم كغصنة نشاز . انفلتت من قدم حلمى فردة خف فلم يفكر فى البحث عنها وواصل هبوطه بفردة واحدة فى قدمه اليمنى ، ولم يشعر بأن هذه الفردة هى الأخرى قد انفلتت إلا عندما وصل إلى الخبأ واكتشف أنه حافى القدمين .
- قال مختار محاولا تهدئة حلمى :
- لانتحف ، القنابل بعيدة عنا .

- وهل تحدث هذه الغارات كثيرا ؟  
- لا . لا تحدث كثيرا .  
- وكيف يستطع الإنسان المذاكرة في هذا الجو ؟  
- ستعتاد ذلك وتكيف معه .  
- غير معقول . لا أعتقد أنني قادر على التكيف مع هذا الرعب .  
- الحياة صراع وكفاح .  
صاح حلمى نائرا :  
- ولماذا تكون الحياة كفاحا وعذابا وصراعا مريرا بهذا الشكل ؟ لماذا لا تكون الحياة جميلة يستمتع بها الإنسان ؟

علا صوت المدافع . فصاح حلمى قائلا :  
- الله الله ! إنها قريبة جدا في هذه المرة .  
قالت فاطمة وفي صوتها رجفة :  
- إنها شديدة هذه الليلة . أشد من الغارات السابقة .  
قال حلمى :  
- في أول ليلة لي هنا يحدث كل هذا ؟  
قال مختار محاولا السيطرة على الرعب الذى لا يقل عن رعبها :  
- لو علم الإيطاليون أنك ستحضر هنا اليوم لما قاموا بهذه الغارة  
اشتد زئير المدافع فلم تستطع فاطمة السيطرة على أعصابها وصاحت قائلة :  
- اللهم إني لا أسألك رد القضاء ، بل أسألك اللطف فيه .  
سرت همهمة بين رواد الخبأ وارتفع عويل الأطفال ، واخترق الظلام صوتُ طفل يقول مختنقا بالبكاء :  
- أنا خائف يا ماما .

قالت الأم التى نَمَّ صوتُها على أنها أكثر رعبا من ابنها :  
- لا تخف يا حبيبي ، لا تخف .  
قال الطفل :

- أنا ارتعش يا ماما .  
قالت الأم التى كانت هى أيضا ترتعد :  
- لا ترتعش يا حبيبي ، لا ترتعش .  
ارتفع صوت فى الشارع يصبح :  
- اطفئوا النور ، أنتم يا من فى الدور الثالث .  
ازداد بكاء الأطفال فقال مختار :

– هل تعلمين يافاطمة أن الإنسان أشد الحيوانات وحشية؟ إنه الحيوان الوحيد الذى يُلْتذُّ بتعذيب بنى جنسه

قالت فاطمة :

– ذكرتنى . نسيت إطعام القطط اليوم

صاح مختار قائلا :

– هل هذا معقول يافاطمة؟ لا أحد منا الآن يضمن حياته لحظة واحدة وأنت تفكرين فى القطط؟

قالت فاطمة :

– وما ذنب القطط؟ هل هى التى أشعلت الحرب؟.

غمغم مختار قائلا :

– أجل ، ليست القطط هى التى أشعلت نيران الحرب . الذين أشعلوها ناس مجانين .

انطلقت بعض المدافع من أماكن قريبة فاهتز المنبى هزا عنيفا وكأنه زلزال .

ارتفع صراخ الأطفال وبال بعضهم وتبرز البعض الآخر وقد أفقدهم الخوف السيطرة على هاتين

العمليتين .

قال حلمى :

– لست أدرى كيف أستطيع المذاكرة وسط هذه المصائب

قال مختار :

– أنت مثل ملايين الناس ، هل تُغيّر الطائراتُ عليك وحدك؟.

– ٥٥ –

لم يتسع وقت مختار للذهاب إلى البيت لتناول غذائه فذهب مع شريف للغذاء فى مطعم « الوردية البيضاء » القريب من الكلية . كان مختار يحين لتناول الطعام فى ذلك المطعم الذى يذكّره بأيام الدراسة ، فلقد كان مطعمه المفضل لنظافته واعتدال أسعاره فضلا عن خفة ظل صاحبه اليونانى البدين الذى كان دائم المرح حتى فى أثناء الغارات الجوية ، ويقدم الطعام لزبائن المحل قائلا :

– كلوا بالهنا والشفا ، من غير فلوس .

وكان كوستا حريصا على راحة الزبائن فلا يرفع راديو المطعم إلا بالدرجة التى تسمح بسماعه دون إزعاج . فى ذلك اليوم ، فى أثناء تناول الطعام ، كان مختار منصتا لأغنية من تأليف أحمد رامى وغناء أم كلثوم تقول « ما دام تحب بتنكر ليه؟ دالى يجب بيان فى عينيه » . قطع شريف الصمت عندما قال :

– دريه شفيت وعادت إلى الكلية .

لم يستطع مختار إخفاء فرحته ، فقال بلهفة :

– أحقيقة؟ هل رأيتها؟.

- أجل ، رأيته صباح اليوم وصحتها على مايرام ، كأن لم يحدث شيء ، ألم أقل لك إنها ستشفى ؟ .  
قال مختار محاولا الظهور بمظهر اللامبالاة كإبحاح العاطفة في هذه المرة :  
- وما شأنى بها ؟ لم يعد يهمنى أمرها . لقد طردتها من ذهنى .  
قال شريف ساخرا :  
- طردتها من ذهنك ؟ كنت أتمنى أن ترى وجهك في المرآة عندما سمعت أنها ابتعلت السم في المعمل .  
- لا يهمنى ما إذا ابتعلت السم أو لم يتبعه فلا شأن لى بها .  
- لقد اصفرَّ وجهك عند سماع الخبر وبدا في عينيك رعب لم أر له مثيلا في حياتى . أنت مازلت تحب هذه البنت حبا عنيفا ، ولكنك تقاوم ، أنا أرى لحالك .  
- من قال إنى أحبها ؟ لقد انتهى كل شيء بيننا .  
ثم أردف قائلا بعد لحظة صمت قصيرة :  
- هل زارتها مريم ؟ .  
- زارتها في المستشفى في أثناء مرضها .  
قال مختار بعد فترة تردد :  
- ألم تقل شيئا لمريم ؟ .  
قال شريف مبيتسا :  
- شيء مثل ماذا ؟ .  
- أى شيء .  
- على أية حال لم يرد اسمك على لسانها .  
أطرق مختار للأرض وقد بدا الحزن العميق في ملامح وجهه . قال شريف :  
- ما بك ؟ لماذا هذا الوجوم ؟ ألم تقل إن كل شيء انتهى ؟ .  
غمغم مختار قائلا :  
- أجل . كل شيء انتهى .  
- أنصحك يا مختار أن تركز كل اهتمامك في البحث العلمى لتحصل على الماجستير ثم الدكتوراه في أقرب وقت لتصبح أستاذا عظيما  
- ألم تسمع أخبارا عن البعثات ؟ .  
- لا أحد يعلم ماذا سيحدث غدا . من يدرى . قد تنتهى الحرب في أية لحظة وتستأنف البعثات .  
- إنها حرب تبدو بلا نهاية .  
- لكل شيء نهاية .  
- ولكن توجد لا نهاية . أنت تعلم أن في الرياضيات مايسمى « لانهاية » .  
- أجل ، ولكن للحرب نهاية .

- مسألة اللانهاية هذه أتعبتني جئنا يا أخى .
- ولماذا تعب نفسك دائما هكذا ؟ مرة من أجل مشكلة الوجود والعدم . ومرة من أجل اللانهاية . يجب أن تتوقف عن التفكير في مثل هذه الأشياء حتى لا تفقد عقلك .
- لا أستطيع التوقف عن التفكير في مثل هذه الأشياء . إننى أجد نفسى أفكر فيها غضباً عنى . مسألة اللانهاية مسألة عجيبة .
- كيف ؟
- لو تصورنا جسماً يتطلق بسرعة رهيبية فى الفضاء دون أن يعترضه شيء ، ومستمر فى الانطلاق ، إلى أى شيء سيصل ؟
- لن يصل إلى أى شيء ، يظل منطلقاً إلى ما لا نهاية .
- هذا هو ما يتعبنى .

## - ٥١ -

- فى صباح اليوم التالى ، كان مختار حالسا إلى مكتبه بالمتزل يرتب بعض الأوراق عندما دخلت فاطمة ، قالت بدهشة :
- هل وضعت هذه الصورة مرة أخرى فوق المكتبة ؟
  - قال مختار متظاهرا بعدم الفهم :
  - صورة ماذا ؟
  - صورة درية .
  - آه ، هذه الصورة ؟ أنا الحقيقة لم أجد مكانا أضعها فيه فرميتها هنا فوق المكتبة .
  - أنا مستخسرة فيها الإطار الجميل ، لبتك تضع فيه بدلا منها صورة وردة أو قطة .
  - لا مانع لدى ، لو عثرت على صورة قطة أو وردة .
  - ويبدو أن مختارا لم يعثر على صورة أية قطة أو وردة فبقيت صورة درية فوق المكتبة .
  - بعد نحو أسبوع ، بينما كان مختار مارا بالقرب من معمل الكيمياء بصحبة شريف لاحظ شيئا عجيبا . قال لشريف :

- ماذا جرى للعالم ؟ هل هذا معقول ؟
- ما هو هذا الشيء غير المعقول ؟
- ألا ترى ؟ نيلة تسير هنا داخل الكلية متأبطة ذراع الدكتور حسين فريد ؟
- ماذا فى هذا ؟
- ألا يدعو هذا إلى العجب فى نظرك ؟ أنا لا أصدق عيني .
- يبدو أنك تعيش فى دنيا غير الدنيا ، ألم يصلك نبأ عقد قران نيلة على الدكتور حسين فريد ؟

- نبيلة عقد قرانها على الدكتور حسين فريد؟ متى حدث ذلك؟
- من حوالى شهر.
- شيء عجيب لم يكن يخطر على بالي.
- ولكنه حدث. وماذا كنت تتوقع؟ هل كنت تنتظر من نبيلة أن تتزوج معيدا؟ هاهى ذى قد تزوجت دكتورا فى الكيمياء.

- قال مختار وقد شعر بشيء من المرارة والألم:
- يخيّل إليّ أن درية هي أيضا تنتظر الزواج من أحد الأساتذة.
- لا، درية لن تتزوج أحدا من الأساتذة أو المعيدين.
- وكيف عرفت ذلك؟
- درية ستزوج طالبا من زملائها.
- قال مختار بدهول:
- هل من المعقول أن تقبل درية الزواج من أحد الطلبة؟
- هذا اللامعقول هو الذى سيحدث.
- صاح مختار قائلا بعصية:
- كيف؟ تكلم.
- وهل رأيته توقفت عن الكلام؟
- سيطر مختار على مشاعره وقال مصطنعا الهدوء:
- من هو هذا الطالب؟
- أحد زملائها الذى يذهب للمذاكرة معها فى البيت اسمه عبد الرحمن نصر، ومحضران معا إلى الكلية أحيانا.

- لا أستطيع تصديق هذا الكلام.
- إنها مسألة أصبحت معروفة لكل من فى الكلية، يبدو أنك آخر من يعلم.
- شعر مختار بجزن قاتل، ولم يكن كلامه يعبر عن حقيقة مشاعره عندما قال:
- لا شأن لى بها، فلا أنا أبوها ولا وليّ أمرها، ولا علاقة لى بها أو بغيرها من البنات.
- أدرك شريف أنه جرح مشاعر مختار بلا داع، فقال:
- أنا لم أقل هذا الكلام لأحزرك، بل على العكس، قلت لك ذلك لتعرف أن هذه البنت لا تستحق منك التفكير فيها لحظة واحدة.

فى ذلك اليوم، لاحظت فاطمة أن مختارا، على غير عادته، ظل معتكفا فى غرفة مكتبه منذ حضوره من الكلية حتى نحو منتصف الليل مغلقا باب الغرفة. فتحت فاطمة الباب فتحة استطلاعية ضيقة وأطلت منها فوجدته مسكيا بكتاب فى يده ولكن نظره كان شاردا. بحركة انعكاسية أسرع بالنظر



إلى المكتبة فلم تجد صورة درية . أصبحت هذه الصورة بالنسبة لفاطمة كمؤشريدل على حالة مختار النفسية . قالت :

- ماذا حدث يا مختار؟ أين الصورة التي كانت فوق المكتبة؟.
- ذهب في ستين داهية .

## - ٥٢ -

كانت الساعة الواحدة والنصف تقريبا عندما تجمع الثلاثة : فاطمة ومختار وحلمى ، حول مائدة الغداء يوم الجمعة . كانوا يتناولون الطعام في صمت وكلٌ منهم يفكر في شيء مختلف تمام الاختلاف عما يفكر فيه الآخر . كان حلمى يفكر في الغارات الجوية ، وتفكر فاطمة في تقديم بعض الطعام للقطعة التي اعتادت الجلوس أمام باب الشقة وقت الغداء ، أما مختار فكان يفكر في درية . قطعت فاطمة الصمت عندما قالت :

- مختار .

- نعم .

- هل أطلب منك طلبا؟.

- أنا مستعد لتلبية أى طلب .

- أريد مشاهدة فيلم «ليلي» الذي تغني فيه ليلي مراد .

- وأنا أيضا أود رؤيته . نذهب لمشاهدته نحن الثلاثة في حفلة الساعة الثالثة .

قال حلمى :

- ادعوا الله ألا تفاجئنا غارة جوية في أثناء ذهابنا وعودتنا .

قالت فاطمة :

- ذكرتني بالغارات . نكّدت علىّ .

قال مختار :

- لا داعي للثكد ، العمر واحد والرب واحد ، والخطر هنا لا يقل عن الخطر في أى مكان آخر ، كما سبق أن قلت لك .

استقل الثلاثة تاكسيا أوصلهم حتى باب السينا ، وبعد انتهاء العرض وإضاءة الأنوار لاحظ مختار أن فاطمة تمسح دموعها فسالها :

- هل أعجبك الفيلم يا فاطمة؟.

- أعجبني ولكنه أتعبني .

- كيف؟.

- أبكاني كثيرا . هل كان من الضروري أن تموت؟.

- هذا الفيلم مقتبس من رواية «غادة الكاميليا» التي أعجبتك عندما قرأتها .
- العجيب أن الرواية التي تبكىني هي التي تعجبني .
- انتقلوا إلى الرصيف المقابل ليلتقطوا تاكسيا يوصلهم إلى البيت ، وفي أثناء انتظارهم قال مختار :
- الإنسان أغرب حيوان في الدنيا ، يسعى للبكاء ليشعر بالمتعة ، وينفق المال لكي يبكي .
- قال حلمي :
- الدنيا كلها مآسى ، والناس عندما يقرأون رواية مؤثرة أو يشاهدون فيلماً محزناً يرون الدنيا على حقيقتها .
- قال مختار :
- هذا الكوكب الذي تعيش على سطحه كوكب مربع ، بشع ، الحياة عليه سلسلة من المآسى تنتهى بالمأساة الكبرى .
- قالت فاطمة :
- وما هي المأساة الكبرى ؟ .
- قال مختار :
- الموت .
- قال حلمي :
- قد يكون الموت أحياناً نهاية سعيدة .
- قال مختار :
- هذه هي المأساة .
- قال حلمي :
- ولكن لاتنس أن في الحياة أشياء جميلة .
- مثل ماذا ؟ .
- الحب .
- الحب ؟ خدعة خبيثة لحفظ النوع .
- قالت فاطمة بدهشة واستنكار :
- خدعة خبيثة ؟ كيف ؟ .
- وقال حلمي :
- إذا كان الحب في نظرك خدعة ، فلا يمكن أن يكون خدعة خبيثة ، بل خدعه للذيدة .
- قال مختار :
- الحب هو الطعم الموضوع في سنارة الزواج ، ولماذا يتزوج الناس ؟ إنهم يتزوجون ليتركوا ذرية بعد موتهم ، وهذه الذرية تكبر في السن وتتزوج هي بدورها لتنجب ذرية ، وهكذا ، أى أن الحب من مستلزمات الفناء ، لو لم يوجد الموت لما وجد الحب .
- قال حلمي :

– لا ، أنا لا أوافق على هذه الأفكار ، أنت شديد التشاؤم في هذه الأيام . الحب شيء جميل ، أجمل شيء في الدنيا .

قالت فاطمة بعد تردد .

– أنا في الحقيقة رأيت كراي حلمي .

قال حلمي :

– لو ألغيت الموت وألغيت معه الحب لما أصبحت الحياة تستحق أن نعيشها .

قال مختار :

– اتعتقد ذلك ؟

– بكل تأكيد ، تصبح الحياة مملة لا طعم لها .

– حتى ولو كان الحب من طرف واحد ؟ حب بلا أمل ؟

– الحب الذي من طرف واحد معناه أن الإنسان لم يحسن اختيار الشخص الذي منحه حبه . الحب

ليس مجرد عاطفة ، لا بد من وجود إرادة ، لا بد أن يحكم الإنسان عقله .

قال مختار بشيء من الانفعال :

– ماذا تقول ؟ الحب معناه عاطفة ، وعندما يتغلب العقل على العاطفة لا يصبح الحب حيا . هل

عندما يجب الإنسان يجلس ويفكر قائلا لنفسه : هل أحب هذه أم أحب تلك ؟ الحب في رأيي كالقضاء

والقدر ، لا يملك الإنسان رده .

انطلقت زمارة الإنذار ، فصاحت فاطمة قائلة بفرح :

– هذا ما كنت أخشاه .

وقال حلمي :

– ماذا نفعل الآن ؟

قال مختار :

– هيا نختبئ في هذه العارة .

دخلوا إحدى العارات وتواروا في مدخلها بعيدا عن الباب الخارجي وسبحت الشوارع في ظلام

أزرق شاحب واختفت الأنوار المنبثة من النوافذ وساد صمت مرعب . أدخلت فاطمة تنغمم قائلة :

– اللهم إني لا أسألك رد القضاء ، بل أسألك اللطف فيه .

وبعد نحو عشر دقائق انطلقت زمارة الأمان ولم تنطق أية مدافع في هذه المرة .

قال حلمي وهم خارجون من باب العارة :

– أخشى أن تكون هذه مقدمة لغارة شديدة .

مرر تاكسي فاستقلوه واتجهوا نحو حدائق القبة . لم يصدقوا أنهم وصلوا إلى المنزل سالمين ، فأسرعوا

بمغادرة التاكسي وأعطى مختار لسائق التاكسي أجره واندفع الثلاثة نحو البيت وكأنه معبد مقدس لا تجرؤ

القنابل على الاقتراب منه .

انتهى حلمى من امتحان النقل من السنة الثانية إلى السنة الثالثة بكلية الطب . وعلم أن اليوم موعد ظهور النتيجة . شعر بشيء من الخوف فلم يستطع تناول فطوره واكتفى بفنجان من الشاي وارتدى ملابس الخروج على عجل للذهاب إلى الكلية . دعت له فاطمة بالتوفيق وتمنى له مختار النجاح بتفوق . وبينما يهيم بالخروج ناداه مختار وطلب منه أن يحضر معه عند عودته أقة لحم وأقة تفاح وأقة موز وأعطاه عشرين قرشا .

عندما عاد مختار في نحو الثانية والنصف وجد حلمى قد سبقه في العودة . استبشر عندما رأى الفرحة بادية على ملامح وجه حلمى فسأله :

- ماذا فعلت في الامتحان يا بطل ؟

- نجحت بدرجة جيد جدا .

- مبروك .

- الله يبارك فيك .

أشبه مختار نحو غرفته ، ولكنه تذكر شيئا فتوقف وقال لحلمى :

- هل أحضرت ما طلبته منك ؟

- أجل .

- أين باقى الفلوس ؟

- لم يبق منها شيء .

قال مختار بدهشة .

- لم يبق شيء ؟ كيف ؟

- ارتفع سعر اللحم فأصبحت الأقة بائتي عشر قرشا . وأقة التفاح بخمسة قروش والموز بثلاثة قروش . وسوف نرى ما هو أعجب من ذلك . هل تظن الحرب لعبة ؟

- إذا استمرت الأسعار فى الارتفاع بهذا المعدل فليس بمستبعد أن تصبح أقة اللحم فى يوم من الأيام بخمسة وعشرين قرشا .

- لا أعتقد أن الأمور ستسوء إلى هذا الحد ، وعلى أية حال ستعود الأسعار إلى سابق عهدها عندما تنتهى الحرب .

- لست أدرى متى ستنتهى هذه الحرب الملعونة . لم يعد المرتب كافيا لضروريات الحياة .

- سمعت أنهم سيقرون علاوة غلاء لجميع الموظفين . لقد منحت الحكومة فى الحرب العالمية الأولى علاوة

غلاء للموظفين مقدارها مائة فى المائة من مرتباتهم ، ولابد أنهم سيفعلون ذلك فى هذه الحرب .

- عندما يرتفع سعر سلعة واحدة ، ترتفع أسعار جميع السلع الأخرى نتيجة لذلك ، وينخفض سعر

الإنسان .

- قالت فاطمة التي أقبلت في هذه اللحظة :
- لا بد أن الحكومة سترفع مرتبات الموظفين . لن تتركهم يموتون من الجوع .
- قال مختار :
- بالتأكيد ، ليس من المعقول أن يتركوا الموظفين يموتون جوعا .
- دق جرس الباب ، وعندما فتحه حلمى رأى حافظ إبراهيم الذى كان يدرّس له علم الحيوان العملى فى إعدادى الطب قال حافظ :
- الأستاذ مختار موجود ؟.
- قال حلمى مبتسما كما دته :
- أجل ، نفضل .
- أسرع مختار إلى حافظ فى غرفة الصالون . وماكاد يرى مختارا حتى ابتدره قائلا :
- أحمل لك اليوم بشرى عظيمة ، إنه خبر سيجعلك تقفز من الفرحة
- امتزجت الفرحة بالحزن المقيم فى قلب مختار وقال :
- ترى ما هى هذه البشرى ؟.
- فى أثناء وجودى فى غرفة الاستاذ أفلاطون بك ظهر اليوم وصله خطاب من إنجلترا بشأن رسالتك للماجستير .
- طغت الفرحة على الحزن فى هذه اللحظة وقال مختار بلهفة :
- وماذا فى الخطاب ؟.
- مبروك ، أنت حصلت على الماجستير .
- الحمد لله . كنت خائفا
- ضحك حافظ وقال :
- خائف ؟! الأستاذة المتحنون كتبوا عنك تقارير هائلة . يقولون إن رسالتك ممتازة وكان من الممكن أن تحصل بها على الدكتوراة . أفلاطون بك يرغب فى رؤيتك . سأل عنك فى الكلية فلم يبدك ويريد تهنيتك .
- أشكرك من صميم قلبي على هذه الأخبار السارة . كنت أتمنى أن أسافر فى بعثة للحصول على الدكتوراة .
- بمجرد انتهاء الحرب ستكون أنت أول من يسافر .
- لا أحد يدرى متى تنتهى الحرب . هنا شىء فى علم الغيب .
- لا أظن أنها ستطول ، فألمانيا متصرة انتصارا مذهلا ، ويخيل إلى أنه بعد شهرين على أكثر تقدير ستستسلم إنجلترا كما فعلت فرنسا . هتلر سيكتسح العالم .
- الدكتور رياض تركى عندما بدأت الحرب قال إن هتلر سيضيق ألمانيا .
- ضحك حافظ وقال بسخرية :

- هتلر يضيّع ألمانيا؟! وهل هذا معقول؟ هتلر أعظم شخص حكم ألمانيا . سيكون صاحب الفضل في عظمة ألمانيا وازدهارها
- الدكتور تركي والدكتور رشاد الطويبي والدكتور حامد جوهر يرون عكس ذلك ، يقولون إنه سيكون سببا في خراب وضياع ألمانيا .
- غير معقول ، إن فرنسا التي تمتلك أقوى جيش في أوروبا لم تصمد أمامه أكثر من أسبوعين ، وبدلا من ذهابك في بعثة إلى إنجلترا ستذهب في بعثة إلى ألمانيا ، ستصبح ألمانيا أعظم وأقوى دولة في أوروبا .
- أتظن ذلك؟ .
- هذا شيء بديهي لا يحتاج للتفكير .
- قال حلمي لفاطمة :
- يبدو أن مختارا حصل على الماجستير .
- لم تفهم فاطمة على وجه التحديد معنى الماجستير . ولكنها أدركت أنها شهادة كبيرة كان مختار يتمنى الحصول عليها . فصاحت قائلة بفرح :
- أحقيّة؟ وكيف عرفت؟ .
- سمعت الأستاذ حافظ يقول ذلك .
- الحمد لله ، أنت كريم يارب ، صبر ونال ، مختار كان محتاحا في هذه الأيام لشيء يفرحه ، فلقد لاحظت أنه في منتهى التعاسة والقرف . سأعمل الشربات واذهب قدمه للأستاذ حافظ
- قال حافظ لمختار :
- وأريد أن أهنتك على شيء آخر .
- ماهو؟ .
- على التمثيلية الرائعة التي سمعتها في الراديو ليلة أمس؟
- قال مختار بدهشة :
- هل أذيعت ليلة أمس؟
- ألم تستمع إليها؟
- لا ، لم أستمع للراديو أمس . هل أعجبتك؟ .
- كل من سمعها من أهل منزلي أعجب بها .
- دخل حلمي حاملا صينية بها كوبان من الشربات وتقدم نحو حافظ قائلا :
- تفضل .
- قال حافظ :
- يبدو أن هذا شربات الماجستير . هل سمعني وأنا أهني مختارا؟ .
- ضحك حلمي وقال :
- الحقيقة ، أجل .

- كيف حالك وى الدراسة يا حلمى ؟.

قال مختار :

- ظهرت نتيجة امتحانه اليوم وحصل على تقدير جيد جدا .

- ألف مبروك . أتعشم أن تظل متفوقا مثل أخيك مختار وتحصل على الماجستير والدكتوراه .

قال حلمى وهو يقدم كوب الشربات لأخيه :

- إن شاء الله . بعد عمر طويل .

اتجه حلمى نحو باب الغرفة . وبينما هو عند عتبة الباب قال له حافظ :

- السنوات تمر سريعا يا حلمى .

ابتسم حلمى لحافظ وخرج وأغلق باب الغرفة . قال مختار لحافظ :

- اللحظات فى هذه الأيام تمر وكأنها أجيال .

- هذه هى سنة الحياة . الحياة صراع . الحياة حرب . الحياة كفاح .

أطرق مختار للأرض وقال بصوت حزين :

- أنا لا أضمن الحياة لحظة واحدة ولا أعرف كم يوم أو كم ساعة سأستمتع بالماجستير والقنابل

تطاردنا فى جميع ساعات الليل والنهار .

- لا تكن متشائما لهذه الدرجة ، تفاءل . فى أعماق نفسى شعور غامض لأ أعرف له سببا ، بأننا

سننجو من أخطار هذه الحرب ونظل على قيد الحياة . وهذه . بطبيعة الحال . ستكون آخر الحروب .

لن تنشأ بعد ذلك أية حرب أخرى .

## - ٥٤ -

فى الصباح ، كان مختار جالسا وحده فى غرفة المعيدى بالقسم . دخل شريف وصافحه بحرارة .

فتعجب مختار ، إذ أن من عادة شريف أن يكتفى بإيماءة من رأسه وابتسامة عند دخوله الغرفة . جلس

شريف فى مكانه وفتح حقيبته وأخرج منها كتابا فتحه أمامه وبدأ شارد الذهن ناظرا إلى نافذة الغرفة .

التفت نحو مختار مرتين ، وفى كل مرة يبدو وكأنه يود أن يقول شيئا ثم يحجم عن ذلك . وأخيرا قال

وهو يقرب صفحات الكتاب :

- هل سمعت آخر الأنباء ؟.

- أخبار ؟ يبدو أنها أخبار مؤلمة كالعادة .

- درية تم عقد قرانها .

خيل لشريف أنه سمع صوت تحطم قلب مختار وكأنه إناء من زجاج . غمغم مختار قائلا وقد شعر بانهار :

- تم عقد قرانها ؟.

- أجل . ولماذا اصفرَّ وجهك هكذا ؟ أما زلت تفكر فيها ؟ .  
- اصفر وجهي ؟ لا . لم يصفرَّ وجهي . ومن الذي حمل إليك هذا النبا ؟ .  
- درية زارتنا في البيت أمس وقالت لمريم . ودُخِلَتْها يوم الخميس القادم .  
بذل مختار ما في وسعه لبيدو مِتاسكا ولكنه لم يستطع . فلقد خرجت الكلمات من بين شفثيه متقطعة  
وكأنه كان يعدو ، قال :

- تزوّجَت من ؟ هل هو أحد الأساتذة ؟ .  
- لا . بل شخص من خارج الجامعة .  
- كنتَ قد ذكرت لي أنها ستزوج عبد الرحمن نصر .  
- قلت لك إن هذه البنت تُحكِّم عقلها لا عاطفتها كانت تنتظر العثور على شخص غني . هذا النوع  
لا يصلح لك . أنت محتاج لزوجة . من نوع خاص . تكون شاعرية ورقيقة مثلك .  
- هل تعرف اسم هذا الرجل ؟ .  
- وفيهِ يُهمك اسمه ؟ أنا شخصيا لم أهتم بمعرفة اسمه . كل ما قالته عنه درية هو أنه مقاول غني .  
كأبيها ، وفي مثل سن أبيها ، وسيافران معا إلى إحدى الدول العربية . الكويت أو العراق ، أو شيء  
كهذا .

قال مختار بدهشة :

- كبير السن ؟ أهدا هو الذي قَبِلت درية الزواج منه أخيرا ؟ .  
- أجل ياسيدي ، هذا هو الذي وافقت على الزواج منه ، كل ما يهيمها الفلوس .  
- أنا لا أريد البقاء في هذه الكلية .

قال شريف بدهشة :

- ولماذا ؟ .

- كل مكان في الكلية يذكرني بدرية ، وأنا أريد أن أنساها . ولذا فلقد قررت ترك هذه الكلية .  
- درية انتهت من الدراسة وحصلت على البكالوريوس ولن تراها بعد الآن وسوف تنساها مع مرور  
الأيام ، ولا داعي لترك الجامعة وتغيير مجرى حياتك من أجل بنت لن تشعر بوجودك ولن تخطر على بالها .  
- أنت تعلم أن الحكومة ستنشئ جامعة في الإسكندرية هذا العام ، ونجيب الهلالي باشا وزير  
المعارف متحمس لهذه الفكرة ، سأطلب نقلي إلى كلية علوم الإسكندرية .  
- إذا طلبتَ نقلك إلى جامعة الإسكندرية فسأنتقل معك ، سيكون المجال هناك أكثر اتساعا ،  
ولكنني خائف من شيء

- ماهو ؟ .

- أنت تعلم بشاعة الغارات الجوية في الإسكندرية في الوقت الحاضر .  
- لم يعد يهمني ما إذا مت أو عشت . تساوى لديّ الآن الموت والحياة . سأذهب إلى الإسكندرية مهما  
كانت الظروف .



- وسأنتقل معك . الأعمار بيد الله . «أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم فى بروج مشيدة» .
- وهل تقبل مريم الانتقال إلى الإسكندرية؟ .
- كل ما يهيم مريم هو وجودها معى فى أى مكان . تقول لى دائما إبنى لو ألقيت بنفسى فى البحر فستلقى بنفسها خلقى دون أى تفكير .
- أنت إنسان سعيد اللحظة يا شريف . كنت أتمنى أن تكون درية مثل مريم .
- لا تحزن . أنت تستحق كل خير . وأنا واثق من أن الله سيعوضك ويوفقك إلى إنسانة أفضل من درية .

قال مختار بصوت متهدج :

- لا أظن أننى سأفكر فى الزواج بعد ذلك . سأظل وحيدا فى الدنيا
- ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ سوف تتزوج وتسعد فى زواجك . من هى درية هذه ؟ ملايين الفتيات الفضليات يتمنين الزواج من شخص مثلك . لو كنت فى مكانك لتزوجت على الفور .

## - ٥٥ -

ظل مختار طوال اليوم يفكر فى موضوع نقله إلى جامعة الإسكندرية . كانت المشكلة الوحيدة التى تشغل باله هى وجود حلمى معى فى البيت واعتماده عليه .

لا يستطيع حلمى الحياة بمفرده . لا بد من بقالى معى . هل يقبل الانتقال معى إلى جامعة الإسكندرية ؟ لا أعتقد ذلك ، فهو يخاف من الغارات الجوية وهى فى الإسكندرية أشعب منها فى القاهرة ، ولو حدث له شىء ، لا قدر الله ، فسأكون أنا المسئول عن ذلك . أنا لا أحب أن أكون سببا فى عذابه ، ولكن لماذا لا يبقى بالقاهرة ويعيش فى هذا البيت ؟ لقد عشت أنا طوال فترة الدراسة دون أن يكون معى أخ أو أخت . فى إمكانه أن يفعل كما فعلت أنا . يشترك مع بعض زملائه ويعيشون معا فيصبح أكثر خبرة بالحياة ويعتاد الاعتماد على النفس . ولكن عبد الحميد غريب كان يساعدهنا . لن نجدو هو من يساعده . على أية حال هذه ليست معضلة . عشرات الطلبة يعيشون بمفردهم بعيدين عن أهلهم . عندما عاد مختار إلى منزله كانت فاطمة جالسة بمفردها بالبهو . لاحظ وجود بقايا دموع فى مآقيها . شعر بعطف شديد عليها فقال :

- ما بك يا فاطمة ؟ هل كنت تبكين؟ .
- كلما جلست وحدى ، أفكر غضباً عنى فى أشياء محزنة .
- لا تحزنى يا فاطمة ، عسى أن تكرهى شيئا وهو خير لك . وعسى أن تحب شيئا وهو شر لك .
- الإنسان لا يعرف الغيب .
- لو حدث لك مثل ما حدث لى لحزنت . .

- ثم تذكرت شيئاً فأردفت قائلة .
- ساعى البريد أحضر لك خطاباً وضعته على مكتبك .
- أسرع مختار بإحضار الخطاب . فتحه وبدأ قراءته ثم قال :
- إنه من حامد أخى
- ماذا يقول ؟ .
- غمغم مختار قائلاً :
- الحمد لله . فُرجت . أمر هام كان يشغل فكرى . ولكن ربنا سهلها يقول فى خطابه إنه انتقل إلى القاهرة وسيسكن معنا هنا هو وزوجته إلى أن يعثر على شقة
- وهل سيتسع البيت لنا جميعاً ؟
- أجل . لأننى أنا لن أكون هنا .
- قالت فاطمة بدهشة وفزع :
- هل ستترك له البيت ؟ .
- أجل . سأترك لكم البيت لأننى سأنتقل من القاهرة .
- فى هذه اللحظة فتح باب البيت ودخل حلمى . قالت فاطمة :
- تعال اسمع يا حلمى مايقوله مختار :
- قال حلمى لمختار .
- ماذا تقول ؟ .
- سأنتقل إلى الإسكندرية .
- قال حلمى بدهشة :
- لماذا ؟ هل ستترك الجامعة ؟
- لا . لن أترك الجامعة . ستنشأ جامعة جديدة فى الإسكندرية وسأنتقل إلى كلية العلوم بالجامعة الجديدة .
- وهل هذا النقل مفروض عليك ؟ .
- لا . أنا الذى طلبت نقلى .
- قال حلمى وقد شعر بخيبة أمل :
- ولماذا طلبت نقلك ؟ .
- لقد قررت ذلك ولا يمكننى الرجوع فى قرارى .
- وأنا ؟ ألم تفكر فى ؟ هل سأظل هنا بمفردى ؟ .
- حامد أخى سينتقل إلى القاهرة ويسكن هنا هو وعائلته .
- لماذا فعلت ذلك ؟ لماذا ؟ كنا سعداء معاً .
- ستكون سعيداً مع حامد كما كنت سعيداً معى ولن تشعر بأى تغيير .

- كنت مرتاحا لوجودك أنت معي  
 حانت من مختار التمامة نحو فاطمة فوجدتها تبكي فقال بفرح .  
 - مابك يا فاطمة ؟ لماذا تبكين ؟  
 قالت فاطمة بصوت مختنق بالبكاء :  
 - لن أمكث هنا سأعود إلى البلد . لم أقبل البقاء هنا إلا من أجلك أنت .  
 قال حلمي :  
 - لماذا عملت هذه العملة السوداء ؟  
 - توجد ظروف معينة تدفع الإنسان لاتخاذ قرارات مهمة في فترة من فترات حياته  
 - وماهي هذه الظروف التي تراها أقوى من الموت في الغارات الجوية الرهيبة التي نسمع عنها في  
 الإسكندرية ؟  
 - توجد ظروف أقوى من الموت .

## - ٥٦ -

شعر حلمي بتغيير جذري في حياته بالقاهرة . فلقد عادت فاطمة إلى القرية . وأقبل حامد وزوجته  
 فتحية ليعيشا في الشقة مع حلمي بعد أن سافر مختار إلى الإسكندرية . ولأول مرة شعر حلمي بالقرية  
 أصبح يقضي معظم الوقت داخل غرفته لايفادها إلا عند خروجه من البيت أو عندما ينادونه لتناول  
 الطعام أو عند حدوث غارة جوية . ولايدري لماذا كان يشعر بشيء من الأمان في أثناء الغارات الجوية  
 عند وجود مختار وفاطمة مع علمه بأنها كانا أشد فرعا من حامد وفتحية اللذين في كثير من الأحيان  
 يرفضان مغادرة الشقة والتزول إلى الخبأ في أثناء الغارات . ولايشعران أحيانا بتلك الغارات . فلا يوقظهما  
 من نومها صوت زمارة الإنذار أو طلقات المدافع في حين أن مختارا في بعض الليالي كان يصحو من نومه  
 قبيل انطلاق زمارة الإنذار وكأنه استشعر الخطر قبل وقوعه . وذات مرة غادر الفراش ولم يشعر بنفسه إلا  
 عندما وصل إلى الخبأ فلم يجد أحدا ووجد الأضواء تنبعث من بعض نوافذ المنازل فعاد إلى فراشه واستأنف  
 النوم !

عثر مختار في الإسكندرية على شقة في عمارة ضخمة في كليوباترا الحمامات تطل على شريط الترام .  
 وكان مثار تندر بين زملائه ووصفوه بالتهور والتبذير لأنه أجر شقة فاخرة بمبلغ أربعة جنيهات وخمسة  
 وعشرين قرشا ، في حين أن جميع زملائه في الكلية من أعضاء هيئة التدريس والمعيدون لم يكن إيجار  
 مساكنهم يزيد على جنيهين ، فلقد عثر شريف ، مثلا . على شقة ممتازة بمنطقة سيدى جابر بالقرب من  
 البحر إيجارها مائة وثمانون قرشا . اعتنى مختار بتأثيث شقته واشترى مزيدا من الأثاث والتحف التي يهوى  
 اقتناءها . قال لشريف :

- سأنتظرك مساء اليوم لترى شقتي الجديدة .

قال شريف بإصرار :

- بل أنت الذى ستحضر للعشاء عندنا غدا مريم مصممة على ذلك وستغضب لو لم تحضر .  
- أنا لا أحب أن أغضبها . أشكرها وأشكرك على هذه الدعوة الكريمة .  
- تشكرنا على ماذا؟ نحن اللذين نشكرك على تلبية دعوتنا . أعتقد أنك تشعر بوحشة وتعانى من الوحدة .

- سأعتاد الوحدة . كل شىء بالتعود .

ثم أردف قائلا بحزن :

- كان من المفروض أن تكون معى درية .  
- أمازلت تشكر فى هذه السيدة؟ لقد انتقلت إلى الإسكندرية فى هذه الأيام السود لتبتعد عن الذكريات الحزينة فتنتقل معك الذكريات؟ لماذا انتقلت إذن؟

- أنت تعلم أن التذكر والنسيان لاسيطرة للإرادة عليها . لقد رأيتها أمس فى الحلم؟

قال شريف بغضب ونفاد صبر :

- ولماذا تراها فى الحلم؟ لقد أصبحت الآن سيدة متروجة ولاحق لك فى رؤيتها فى أحلامك .

قال مختار بدهشة :

- لاحق لى فى رؤيتها فى الحلم؟! .

- أجل . هذا يدل على أنك تفكر فيها . ولو لم تفكر فيها لمارأيتها فى الحلم .

- شىء عجيب . وهل فى استطاعة أى إنسان السيطرة على أحلامه؟

قال شريف ومازالت نبرة الغضب فى صوته :

- ماذا رأيت فى الحلم؟

- رأيتها واقفة فى بهوكبير فى مكان لا أعرفه يموج بالبشر ولكنى لا أسمع فيه صوتا . كصورة تعرضها آلة سينمائية تعطل فيها جهاز الصوت كنت أرى الناس واقفين يتحدثون ويضحكون بالقرب منى فى صمت كصمت الفضاء اللانهائى فاعتقدت أننى فقدت السمع ، ولكن ظهر لى خطأ اعتقادى هذا عندما اقررت منى وقالت لى إنها أصبحت أرملة . ولم أسمع من الأصوات التى حولى سوى صوتها . عند ذلك فقط لاحظت أنها ترتدى ثوبا أسود . ماتفسير هذا الحلم؟

- تفسيره زفت وقطران ، أنت تمنى فى أعماق نفسك موت زوجها . هذا هو تفسيرى له .

- ولكن هذه الفكرة لم تحظر على بالى إطلاقا . أنا لا أتمنى وفاة زوجها فهو لا ذنب له ، ولا أتمنى

موت أى إنسان

- أنت نفسك لاتشعر بذلك . إنها الأفكار السجينة داخل ذلك الكهف المظلم الذى يسمونه العقل

الباطن . ولا تنطلق منه إلا عند النوم .

قال مختار بانفعال :

- لا . هذا غير صحيح . لاتجعلنى أكره نفسى .

- ٥٧ -

رحبت مريم ترحيبا شديدا بمختار عند زيارته لهم في الموعد المتفق عليه جلسوا جميعا في اليوم وجلست سامية ابنة شريف ملتصقة بأُمها محتضنة الدمية الضخمة التي أحضرها لها مختار وأخذت تربت على ظهرها .

قال شريف لمريم :

- لم يقبل الحجيء للعشاء الليلة إلا بعد أن قلت له إن مريم ستغضب إن لم يخضر .

قالت مريم لمختار :

- ولماذا لا تخضر؟ إنه بيتك . فأنت وشريف أخوان

وما كادت تنطق هذه الجملة حتى انطلقت زمارة الإنذار . كانت هذه مرة يسمعون فيها تلك

الزمارة في الإسكندرية . كاد قلب مريم ينخلع من مكانه وقالت :

- ما هذا؟

قال مختار محاولا أن يبدو رابط الجأش غير مبال ولو أنه موقن بأن وجهه قد شحب لونه :

- لاشيء ، إنها زمارة الإنذار .

قال شريف :

- جئنا للجد ، هيا بنا إلى المخبأ في الدور الأرضي .

حملت مريم ابنتها سامية التي ظلت محتضنة دميها . أطفالوا الأنوار وأغلقوا باب الشقة وأخذوا يهبطون

السلم على ضوء بطارية في يد شريف .

كان المخبأ ضوءه بمصباح محجوب ضوءه بورقة زرقاء نصف شفافة . وكانت به بعض الكراسي التي

احتلها الذين أسرعوا بالتزول ، أما باقي السكان . ومن بينهم شريف ومختار ومريم . فلقد جلسوا على

أرض المخبأ العارية من أية سجادة أو حصيرة . احتضنت مريم ابنتها وظلت سامية محتضنة دميها . سمعوا

صوت مدافع مختلطا بانفجار قنابل قريبة جعلت هواء المخبأ يتخلخل فسمط البعض من فوق الكراسي

وانزلق الجبالسون على الأرض نحو المخبأ انزلاقا لاإراديا نتيجة لهذا التخلخل ، وعلا صراخ عدد كبير من

الأطفال ووجدت مريم نفسها تصيح قائلة :

- ياساتر يارب ، يارب استر . ارفع مقنك وغضبك عنا يارب .

علت الضجة في المخبأ وتداخلت الأصوات مختلطة بالبكاء والصراخ . فغمغم مختار قائلا :

- الغارات هنا شنيعة .

دوى صوت قنابل فاهتز البيت . قال شريف :

- القنابل قريبة من البيت . لم أكن أحب أن يحدث ذلك في أول ليلة تزورنا فيها بالمختار .

استمر انفجار القنابل وارتفع صراخ الأطفال وبعض النساء . صراخا ينم عن رعب شديد .

وصاحت مريم قائلة :

– استر يارب ، بحق سيدي أبو العباس وسيدي جابر ، استر يارب .  
قالت طفلة :  
– أنا خائفة ياماما ، أنا خائفة . سموت ياماما .  
اشتدت فرقة القنابل مختلطة بصوت تحطم زجاج . ارتفعت أصوات تقول :  
– ياساتر .  
– استر يارب .  
قالت مريم وقد اشتد احتضانها لابنتها التي كانت تبكي :  
– يامن تراني ولا أراك يارب . الطف بنا ولا تعذبنا فلاذنب لنا .  
قال رجل :  
– القنابل ستسقط فوق البيت  
انفجرت قنبلة وكأنها أمام باب البيت وتحطم مزيد من الزجاج فازدادت الضجة وعلا صراخ  
الأطفال والنساء وبعض الرجال وترددت في أماكن مختلفة من الحياً أصوات تقول :  
– يا سيدي أبو العباس .  
– يامغيث يارب .  
– يا أرحم الراحمين ارحمنا .  
وعادت مريم تصيح قائلة :  
– ارفع مقنك وغيضك عنا يارب ، يارب ارفع مقنك وغيضك عنا .  
اشتدت زجرة القنابل وارطمت الكراسي ببعضها وانبعثت صرخات هستيرية ملأت الحياً بالرعب .  
غمغم شريف محدثاً مختاراً :  
– هل تعجبك غارات اسكندرية هذه ؟ كل هذا من أجل علاوتين استثنائيتين لم نقبض منها مليماً  
واحدا حتى الآن .  
– أنت تعلم جيداً أنني لم أنتقل إلى الإسكندرية من أجل علاوتين أو ثلاثة . أنت تعلم لماذا أتيت .  
– يبدو أنني أخطأت في هذا النقل . لقد سعينا إلى جهنم بأرجلنا .  
استأنفت المدافع طلقاتها مختلطة بانفجار قنابل . صاحت مريم قائلة :  
– ياساتر يارب ، يا ستار . لماذا كل هذا يارب ، لماذا ؟ نحن لا ذنب لنا يارب ، يا أرحم  
الراحمين . يا أرحم الراحمين .  
صاح شريف قائلاً بانفعال وقد فقد السيطرة على أعصابه :  
– ماهذا يامرهم ؟ ماذا تركت للأطفال الصغار ؟  
قالت مريم باكياً :  
– أعصابي تعبت ، لا أستطيع احتمال كل هذا العذاب .  
بعد نحو عشر دقائق بدأت أصوات المدافع تخفت تدريجياً مما يدل على انطلاقها من أماكن بعيدة عن  
البيت ، ثم هدأت ولم تعد يسمع لها صوت ، وبعد نحو ربع ساعة من الصمت انطلقت زمارة الأمان .

- ٥٨ -

على مائدة الإفطار ، في صباح يوم من أيام شهر أغسطس . بدأ شريف مهتماً بقراءة الصحيفة بشكل غير عادى . قالت مريم :  
- اترك الصحيفة ، لا تقرأ في أثناء الأكل لثلاث توجعك معدتك . يجب أن تقلع عن هذه العادة الذميمة .

ولكن شريف لم يسمع حرفاً واحداً مما قالته مريم . وروعت عندما رأته مكتئباً بدرجة لم تعهدها فيه في أقسى اللحظات التي مرّت بها ، فقالت بصوت مرتجف :

- ماذا حدث ؟ ماذا قرأت في الصحيفة ؟

ازداد رعبها عندما قال وعيناه مازالتا مصورتين نحو الصحيفة ؟.

- أخبار فظيعة . شيء بشع . الإنسان حيوان مفترس . شرس ، متوحش .

- ماذا حدث ؟.

- أمريكا ألقت على اليابان نوعاً من القنابل الرهيبة . قنابل ذرية .

- قنابل ذرية ؟ وهل هذه أقوى من القنابل التي يلقونها على الإسكندرية ؟.

- أقوى مليون مرّة . قنبلة ذرية واحدة من الممكن أن تنسف مدينة كالإسكندرية وتحيلها إلى رماد .

- أعوذ بالله . هل ألقت أمريكا هذه القنابل على اليابان ؟.

- نعم ، وفي لحظة واحدة مات ملايين الناس .

- تكون مصيبة لو ألقوا علينا إحدى هذه القنابل .

- شيء مخيف . لاحول ولا قوة إلا بالله . فقدت الرغبة في الأكل . سأقوم لأصلي ركعتين .

غمغمت مريم قائلة وهي تمسح دموعها :

- لماذا يعذب الناس بعضهم بهذه القسوة ؟ لماذا كل هذا ؟.

- ٥٩ -

كان شريف في هذه اللحظة يبحث في مكتبته عن كتاب نسي مكانه ، وكانت مريم في المطبخ مشغولة بعمل كفتة جمبرى عندما دق جرس الباب بإلحاح . أسرع شريف يفتح الباب وفوجئ بمختار واقفا يلهث مما يدل على أنه قفز درجات السلم في بضع ثوان . كان منظر مختار بأنفاسه المتلاحقة يوحى بنبأ هام ، كما أن الابتسامة التي تملأ نصف وجهه توحى بأن هذا النبأ مفرح ، ولكن ماسمعه شريف من مختار لم يكن يخطر له على بال ، كان آخر ما يتوقع سماعه .

- مختار ؟ أهلاً وسهلاً ، تفضل . مابك ؟.

- هل سمعت الراديو الآن ؟.

- لا ، لم نفتح الراديو اليوم . هل أذيعت أنباء هامة ؟  
- الحرب انتهت ! .  
وقف شريف لحظة مشدوها لا يصدق أذنيه ثم قال :  
- الحرب انتهت ؟ ! غير معقول . أمتأكد أنت من ذلك ؟ .  
- أجل ، الحرب انتهت .  
قاد شريف مختارا إلى غرفة الصالون ، جلس مختار وخرج شريف إلى البهو صائحا :  
- يا مريم ، مريم .  
أجابت مريم من بعيد قائلة :  
- نعم يا شريف  
- تعالي بسرعة .  
أسرعت مريم بخطوات مضطربة متوقفة سماع كارثة . فوجئت برؤية مختار .  
- مختار هنا ؟ أهلا وسهلا  
قال شريف :  
- الحرب انتهت يا مريم . مختار سمع الخبر في الراديو .  
قفزت مريم من الفرحة وكأنها طفلة في العاشرة قائلة :  
- أحقيقة ؟ أنا لا أستطيع تصديق ذلك .  
قال مختار :  
- لم أكن أنصوّر أنكم لم تسمعوا الخبر حتى الآن .  
اجتاحت مريم حالة هستيرية جعلتها تضحك وتردد هذه الجملة وكأنها لاتدرى ماذا نقول :  
- لا أستطيع تصديق ذلك . لا أستطيع تصديق ذلك ..  
جلس شريف وجلست مريم . قال شريف مخاطبا مريم :  
- ها هي ذى الحرب قد انتهت ومازلنا على قيد الحياة .  
قالت مريم وقد بدأت تخشى أن تكون في حلم :  
- مازلت أتوقع الغارات الجوية في أية لحظة . عندى اعتقاد بأننى سأموت في غارة جوية .  
قال مختار :  
- لن تحدث غارات جوية بعد الآن . انتهت الحرب بقنابلها وغاراتها ومخابها . كان من المفروض أن  
أكون الآن سعيدا ، فهذا هو اليوم الذى طالما انتظرته .  
قالت مريم :  
- أنا أعرف السبب .  
ضحك مختار وقال :  
- لا ، إنه شيء آخر غير الذى فى ذهنك .



- وماهو ياترى ؟.
- شىء أحنزنى ، ويخيل إلى أنه سيحزن شريفا أيضا .  
نظرت إليه مريم نظرة ترقب وقال شريف :
- ياساتر يارب ، وما هو هذا الشىء ؟.
- الحكومة ألغت جميع العلاوات الاستثنائية التى تمت فى عهد الوفد . ونتيجة لذلك فلقد ألغيت العلاوتان الاستثنائيتان اللتان لم تلمسهما يدنا حتى الآن .  
صاح شريف قائلا :
- غير معقول ! إذن فلقد جئنا إلى الإسكندرية وألقينا بأنفسنا إلى التهلكة والرعب الدائم بلا مقابل .  
قالت مريم وفرحتها بانتهاء الحرب تطفى على كل ماعداها :
- لانتحزنا ، نحمد الله الذى نجاننا من الغارات الجوية .  
قال شريف بانفعال :
- والعلاوتان الاستثنائيتان ، هل طارتا ؟.
- قالت مريم والابتسامة لم تغارق ثغرها :
- ولايهمك ، أخذنا الشروراحتنا . ما رأيك يادكتور مختار ، أليس من الواجب أن نحتفل الليلة بانتهاء الحرب ؟.
- أين نحتفل ؟.
- هنا فى البيت ، نتعشى معا . عندنا كفتة جمبرى التى نجحنا .  
– أنا ضعيف إزاء كفتة الجمبرى ، لايمكننى مقاومتها .  
اتجهت مريم نحو المطبخ ، وأسرع شريف بفتح الراديو وجلس هو ومختار ينصتان إلى أغنية محمد عبد المطلب التى كانت الإذاعة قد أعدتها لهذه المناسبة ، وفى مطلعها تقول الأغنية : « الحرب خلاص غنوا معانا وقيدوا الأنوار... » .

## - ٦٠ -

- كان اليوم يبدو عاديا كغيره من الأيام ، وكان الدرس العملى لمختار يبدأ فى العاشرة . ولكنه كعادته فى أول كل شهر ذهب إلى الكلية مبكرا . استلم مرتبه من الصراف وصعد إلى غرفته فلم يجد أحدا سواه بالقسم سواء من الميعدين أو أعضاء هيئة التدريس . بعد نحو نصف ساعة توالى حضور باقى الزملاء ووصل شريف فى نحو العاشرة .  
دخل شريف غرفة مختار فوجده جالسا يقرأ درس العملى ، ودون تحية أو سلام قال :
- يبدو أن الدراسة لن تنتظم اليوم فى الكلية .  
– وكيف عرفت ؟.

- الطلبة احتلوا مدرج على إبراهيم ويتبارون في إلقاء الخطب الحاسية .  
في هذه اللحظة سُمع صوت طلقات نارية ووقع أقدام عديدة فوق درجات السلم المؤدى إلى قسم  
علم الحيوان بالدور الثالث . قال شريف :

- هيا بنا نرى ماذا يحدث .  
قال مختار الذى شحب لونه :  
- لا داعى للذهاب ، أفضل البقاء هنا بعيدا عن ضرب الرصاص  
رأى مختار سعد الدين صبحى مهرولا نحوهما فى الممر المجاور لمعمل علم الحيوان فنظر إليه وكأنه ينظر إلى شبح  
وقال لشريف :

- ما الذى أحضر سعدا هنا ؟  
نظر إليه شريف بدهشة وقال :  
- تبدو وكأنك غير موجود بالكلية .  
- كيف ؟  
- ألا تعلم أن سعدا انتقل إلى جامعة الإسكندرية منذ نحو شهر معيدا بقسم الجيولوجيا ؟  
- لا ، لا علم لى بذلك  
علا صوت إطلاق الرصاص وبدأ سعد مجهدا يلهث من تأثير الخوف وسرعة صعود درجات السلم ،  
بادره مختار قائلا :

- ماذا حدث ياسعد ؟  
قال سعد بصوت متقطع :  
- حدثت مصيبة كبيرة .  
قال مختار وقد أسرعت دقات قلبه :  
- ماذا حدث ؟  
- فى أثناء تجمّع البوليس أمام باب الكلية ، صعد أحد الطلبة فوق سطح المبنى المطل على الشارع  
وأطلق رصاصة على ضابط بوليس .  
قال مختار بلهفة :

- وماذا حدث للضابط ؟  
- مات على الفور ، ونتيجة لذلك أصيب رجال البوليس بحالة هستيريا فأخذوا يطلقون الرصاص  
على الطلبة عشوائيا فقتلوا تلميذا من مدرسة محرم بك الابتدائية ، ولقد استولى الطلبة على جثة التلميذ  
وحفروا حفرة فى فناء الكلية جنب الحديقة ودفنوه فيها .  
غمغم مختار قائلا :  
- المسألة خطيرة ، فى غاية الخطورة .  
قال سعد :

- البوليس الآن يحاصر الكلية من جميع الجهات ولايسمح بدخول أو خروج أى شخص .  
قال مختار :
- إذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أن يدخل البوليس الكلية ويطلق علينا الرصاص  
صاح شريف قائلا :
- هذا غير معقول . إن مريم الآن فى انتظار المرتب  
نزل الثلاثة إلى الدور الأرضى ليكنونوا على مقربة من غرفة عميد الكلية فوجدوا الدكتور جمال خارجا  
منها سألها مختار بلهفة :
- ماهى الأخبار؟ ماذا يقول العميد؟.  
- الأخبار لاتسر .  
قال شريف :
- كيف؟.  
- يقول العميد إن النائب العام سيحضر من القاهرة للتحقيق فى مصرع ضابط البوليس وسنظل  
الكلية محاصرة حتى ينتهى التحقيق  
قال سعد :
- ومتى سينتهى التحقيق؟.  
قال الدكتور جمال :
- هذا شىء علمه عند الله . من يدري؟ قد يستمر التحقيق حتى الصباح  
قال شريف بفرع :
- ومريم؟ هل تبيت وحدها فى البيت مع سامية؟.  
قال سعد :
- وماذا يحدث لو باتت وحدها فى البيت؟ هل هى طفلة صغيرة؟.  
قال شريف :
- أجل . إنها تبدو أحيانا وكأنها طفلة صغيرة . لا حول ولاقوة إلا بالله .  
قال سعد :
- ألدريك مانع يادكتور جمال من أن نخضر معك إلى غرفتك ونغلق علينا الباب فهى بعيدة عن  
الخطر؟.  
- أهلا وسهلا ، نفضلوا ، ولو أن غرفتى ليست بعيدة عن الخطر كما تصورون . فلقد اخترقت  
رصاصه إحدى نوافذ الغرفة وكسرت لوحاً زجاجيا .  
قال مختار بفرع :
- رصاصه اخترقت النافذة؟ هذه كارثة . وماذا نصنع؟.  
قال الدكتور جمال :

- تعالوا ونحن وحظنا . الأعمار بيد الله .  
ساروا نحو غرفة الدكتور جمال وصوت طلقات الرصاص لا يتوقف وهتافات الطلبة تزلزل المكان  
منادين بسقوط الحكومة . قال شريف :

- ما سبب هذه المظاهرات ؟

قال الدكتور جمال :

- يريدون إسقاط الحكومة .

قال شريف :

- هذا واضح . ولكن لماذا ؟

- لم ترفع المرتبات كما وعدت ارتفعت الأسعار ولم ترتفع المرتبات .

قال سعد :

- إذا كان الأمر كذلك فلهم الحق في التعبير عن المعاناة التي تسحقهم .

وصلوا إلى غرفة الدكتور جمال فدخلوها بحذر وكأنهم يتوقعون انفجار قنبلة في أحد أركانها . وما  
كادوا يجلسون حتى دق جرس التليفون فالتقط الدكتور جمال الساعة وهو يغمغم قائلاً :

- لا بد أنه العميد . ألو ، أهلاً وسهلاً . أنا هنا في أحسن حال أنصت إلى موسيقى إطلاق الرصاص .  
لا . الرصاص بعيد عني . كيف حالك أنت ؟ أجل . اطمئني من هذه الجهة . لا أحد يدري . قلت لك  
اطمئني من هذه الجهة . لن يسمح لنا بمغادرة الكلية إلا بعد انتهاء التحقيق ، أجل . سيحضر النائب  
العام بنفسه من القاهرة لإجراء التحقيق . لا تقلقي . إنها في الحفظ والصون .

وضع الساعة وانفجر ضاحكا . قال مختار :

- علام تضحك يا دكتور جمال . هل في هذا ما يستوجب الضحك ؟

- لا ، أنا أضحك على شيء آخر .

- ماهو ؟

- زوجتي تريد الاطمئنان على المرتب فقلت لها إنه في الحفظ والصون . هذه رابع مرة تتصل بي  
تليفونيا لتطمئن على المرتب . لقد ذهبت إلى غرفة العميد هرباً منها .

انفجر الجميع ضاحكين واختلطت ضحكاتهم بطلقات الرصاص . قال مختار :

- ياساتر . أصبحنا وكأنا في ميدان قتال .

قال شريف :

- ولكنها حرب غير متكافئة . نحن لا نملك سلاحاً .

قال الدكتور جمال مبتسماً :

- سوى الطوب .

قال سعد :

- لو لم يوجد سوى الطوب لكان أفضل . لانتس أن مسدساً قتل ضابطا . وهذا هو سبب الحصار المضروب حولنا الآن .

مرت الساعات والرصاص يدوى خارج أسوار الكلية وهدير الهتافات يكاد يطغى على ضرب الرصاص وبدأ الجميع يشعرون بوطأة الجوع . قال مختار مخاطبا الدكتور جمال :

- ألا يوجد هنا من يعمل لنا فنجان شاي ؟

ابتسم الدكتور جمال وقال :

- حاولت ذلك عدة مرات . ظلت أضغط على زر الجرس فلم يستجب لي أى قرأش ، الحابل مختلط بالنابل ولا أحد يوجد في مكانه .

قال مختار :

- أكاد أموت جوعا . فأنا لم أتناول في عشائي أمس سوى سلطانية زيادى ولم أتناول أى فطور هذا الصباح ، ولا مجرد فنجان شاي .

قال الدكتور جمال مبتسما :

- ما باليد حيلة .

قال سعد منفعلا :

- المصيبة أننا لانعلم متى سيطلق سراحنا من هذا السجن . لو علمت موعد السماح لنا بالخروج لارتاحت نفسى مهما كان الموعد متأخرا ، ولكن عدم علمى بموعد خروجى يكاد يقتلنى .

قال شريف :

- أنا في الحقيقة لست قلقا على نفسى بقدر قلقى على زوجتى وابنتى . إننى أتصور زوجتى الآن جالسة تبكى حتى تورمت عيناها .

قال مختار :

- لماذا لم تتصل بها تليفونيا لتطمئنها ؟.

قال شريف :

- ماذا جرى لك يا مختار ؟ هل أثر عليك الجوع ؟ ألا تعلم أننا لأمك تليفونا ؟.

- ألا يوجد تليفون عند أحد الجيران ؟.

- لا اعتقد ذلك .

- ولماذا لم تتصل هى من أى تليفون في أى مكان ، من عند البقال أو الجزار القريب من بيتكم ؟.

- لا بد أنها حاولت الاتصال مرارا ولم تستطع فتليفون الكلية دائما مشغول .

قال سعد :

- كلنا قلقون . مختار هو الوحيد الذى لا يوجد ما يقلقه ، فلا زوجة له ولا أولاد .

قال مختار بصوت حزين :

- كنت أتمنى أن يوجد في بيتى من أقلق عليه ويقلق على .

همس شريف في أذن سعد قائلا :

- هل ستظل طوال حياتك هكذا ؟ لم يكن من اللائق ذكر هذه الكلمات لختار . أنت تعلم ظروفه وحساسيته الشديدة لهذا الموضوع .

قال سعد :

- لن أستطيع البقاء جالسا هنا طوال الوقت . سأخرج لأرى ماذا يحدث .

وقام منفعلا وغادر الغرفة . قال مختار :

- أشعر بأمعالي تتمزق من الجوع . سأخرج للبحث عن أى طعام .

قال الدكتور جمال مبتسما :

- وأين ستجد الطعام ؟ الكلية محاصرة وممنوع دخول أى طعام .

قال مختار :

- هذا يعنى أن موتنا جوعا أصبح مؤكدا .

قال شريف :

- اطمئن ، لن نموت جوعا من الممكن أن يظل الإنسان على قيد الحياة بلا طعام نحو خمسة أسابيع .

قال مختار :

- إنها مصيبة ، كارثة . لا أدري كيف نتصرف

في هذه اللحظة اقتحم الغرفة صبحى تادرس المعيد بقسم الفيزياء فتوقعوا سماع مزيد من الأخبار المزعجة ولكنه جلس وقال :

- الطعام ينهال على الكلية من المنازل المجاورة .

قال مختار بلهفة :

- طعام ؟ كيف ؟

- إنهم يقذفون الخبز والدجاج والسمك وجميع أنواع الطعام ، ولكن الطلبة ينقضون عليه غير مباليين بطلقات الرصاص ويلتهمونه ولم أستطع الحصول على شيء .

وقف مختار متأهبا للخروج وقال :

- سنموت جوعا لو بقينا في هذه الحجرة ، هيا بنا نلتقط رزقنا .

قال تادرس :

- لن نستطيع الحصول على كسرة خبز . الطلبة لن يتركوا لك الفرصة .

قال مختار :

- فلنجرّب حظنا .

خرج مختار من الحجرة ووقف في الفناء الخارجى القريب من المساكن المطلة على الكلية ، فوجد قذائف الطعام ملفوفة جيدا في ورق الصحف أو قطع القماش تلتقي من النوافذ فينتفض عليها الطلبة وكأنهم

سرب من الجراد يفترسون مافيا في مثل ملح البصر . ووجد مختار نفسه عاجزا عن الحصول على أى طعام ، فذهب إلى قسم النبات عسى أن يجد شيئا يصلح للأكل . وحد الدكتور عزيز فكرى رئيس القسم والدكتور الشيشنى والدكتور حجاب جالسين حول منضدة في العمل وأمامهم طبق به قرع مقطوع إلى أجزاء صغيرة ومغموس في كمية من الزيت . كانوا يأكلون بشهية دعوا مختارا ليأكل معهم فأسرع بلا تردد . صدم عندما اكتشف أن القرع غير مطهو . ولكنه استمر في الأكل . وتعجب من استساغته لهذا القرع النبئى في حين أنه في الظروف العادية لم يكن يجب القرع المطهو .

عاد مختار إلى غرفة الدكتور جمال فأخبرهم بأن الطعام ينال على فناء الكلية من المنازل المخاورة . وأنه رأى من بين هذا الطعام دجاجا وسمكا ورتبة وفتائر وجبنا من جميع الأنواع . ولكن الطلبة لم يتركوا له الفرصة ليلتقط ولو جناح دجاجة ، وانتهى به المطاف إلى قسم النبات حيث أكل ثلاث قطع من القرع الذى لم تمسه نار

قال الدكتور جمال :

- ومن أين حصل قسم النبات على القرع ؟.

قال مختار :

- لا بد أنه كان مُعدًّا للدراسة في حصة العمل .

قال الدكتور جمال :

- من سوء الحظ أن قسم الفيزياء لا توجد به أشياء صالحة للأكل .

قال سعد :

- ولا يوجد في قسم الجيولوجيا سوى أحجار وحفريات . ألا يوجد عندكم يا مختار حمام أو دجاج أو أرانب أو سمك أو جمبرى معد للدراسة ؟.

قال شريف :

- يوجد حمام كان من المفروض أن يدرس الطلبة تشرىحه اليوم .

قال الدكتور جمال :

- ولماذا لا تمخر لنا زوجا أو زوجين أو ثلاثة أزواج نذبهم وندفع ثمنهم ليشتروا غيرهم عندما تنتهى هذه الأزمة ؟.

قال مختار :

- ولكن لا يمكننا أكل الحمام بدون طهو . من سيطهوه ؟.

قال الدكتور جمال :

- سأقوم أنا بهذه المهمة ، ليست مشكلة ، اذهب يا مختار احضر لنا ولو زوج حمام واحد .

أسرع مختار بالذهاب إلى قسم علم الحيوان ، ثم عاد بعد نحو ريع ساعة . ابتدره سعد قائلا :

- أين الحمام ؟.

قال مختار :

- التهجوا كل الحمام الذى فى القسم . لم يبق سوى الضفادع والصراصير .  
صاح شريف قائلا :  
- نأكلهم . إنهم يأكلون الضفادع فى فرنسا ولا مانع من أكل الصراصير أيضا فى هذه الليلة  
السوداء .

قال الدكتور جمال :  
- نموت من الجوع وأمرا لله .  
انفض شريف واقفا وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا . قال الدكتور جمال :  
- مايك يا شريف ؟ إنك تبدو كدجاجة تبحث عن مكان تضع فيه البيضة .  
قال شريف وقد توقفت عن المشى وجلس متوتر الأعصاب :  
- أنا قلق على مريم . لست أدرى ماذا تفعل الآن . لقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة . بعد منتصف  
الليل .

قال مختار :  
- يبدو أننا سنضطر للمبيت فى الكلية فى هذه الليلة .  
صاح شريف قائلا :  
- غير معقول . ستموت مريم إذا لم أذهب إلى البيت الليلة .  
قال الدكتور جمال وبدا حزينا لأول مرة فى ذلك اليوم :  
- ما باليد حيلة يا شريف . ماذا نصنع ؟ اسمع يا سيدى ، سأنام أنا على المكتب . وأنت يا شريف  
ضم هذين الكرسيين لبعضهما ونم فوقها . وأنت يا مختار نم على الكنبه الجلد هذه . وأنت يا سعد ..  
قاطععه سعد قائلا :  
- لا تحتمل همى . سأبيت فى قسم الجيولوجيا . ولن يغمض لى جفن حتى الصباح .  
وغادر الغرفة متجها نحو قسم الجيولوجيا . صاح شريف قائلا :  
- وأنا . لن أستطيع النوم وأنا بعيد عن البيت .  
قال الدكتور جمال مبتسما :  
- زوجتى الآن فى منتهى القلق على المرتب . على أية حال لقد طمأنتها وقلت لها إن المرتب فى أمان  
الله .

ثم ضحك وقال :  
- المهم أن يسمحوا لنا بمغادرة الكلية حتى لا يظل المرتب إلى الأبد فى الحفظ والصون فى جيبى .  
سمعوا وقع أقدام عديدة وضجة فأسرع الدكتور جمال وأقفل الغرفة بالفتاح وغمغم قائلا :  
- يبدو أن البوليس دخل الكلية .  
شحب وجه مختار وأسرت دقات قلب شريف ، وماكاد الدكتور جمال يعود إلى مكانه حتى سمع  
طرقا على باب غرفته فقال :



- يبدو أن البوليس سيهاجمنا ويرمينا من العذاب الذي نقاسيه في هذه الدنيا الفانية  
لم يستطع شريف السيطرة على مشاعره فطفرت الدموع من عينيه . قال له مختار :  
- لا تحزن يا شريف . سرجع إلى بيوتنا سالمين بمشيئة الله .  
اشتد الطرق على الباب . وهم الدكتور جمال بفتحه . قال مختار بانفعال شديد :  
- لا تفتح لهم .

قال الدكتور جمال :

- سيكسروه . كسر باب غرفتي لا يحتاج لمجهود كبير .

استمر الطرق على الباب وسمعوا من خلفه صوتا يصيح قائلا :  
- افتحوا يا جماعة . أنا سعد .

غمم الدكتور جمال قائلا وهو ذاهب لفتح الباب :

- خيبك الله . نشفت دمنا .

اندفع سعد إلى الغرفة مبتسما وقال :

- أحمل لكم أخبارا سارة .

أنصت إليه جميع الآذان . قال :

- سمحوا للمعيدين وأعضاء هيئة التدريس بمغادرة الكلية .

صاح شريف قائلا بفرح شديد :

- أحقيقة ؟

لم تظهر أية تعبيرات على وجه مختار الذي ظل ناظرا إلى سعد بعينين تلمع فيهما الدموع وقال :

- كنت أفضل البقاء هنا معكم . سأشعر بقسوة الوحدة عند عودتي للبيت .

قال الدكتور جمال :

- سمحوا بالإفراج عن المعيدين وأعضاء هيئة التدريس فقط ؟ والطلبة . ما مصيرهم ؟

قال سعد :

- سيقون داخل أسوار الكلية حتى ينتهى النائب العام من التحقيق .

قال الدكتور جمال :

- وهل هذا يليق ؟ نخرج نحن ونذهب إلى بيوتنا ونترك الطلبة هنا ؟ سأتصل بالدكتور حسين فوزى

لأعرف رأيه في هذا الموضوع .

طلب من عامل التليفون توصيله بالعميد . قال :

- ألو . علمت يادكتور حسين بك أنهم سيطلقون سراحنا ولا يسمحون بخروج الطلبة فهل هذا

صحيح ؟ ... هكذا ؟ أنا أوافق على هذا الرأي ... شكرا .

وضع الدكتور جمال الساعة وانجهد نحوه جميع الأبصار . ابتم كعادته وظل مطرقا نحو مكتبه فترة

من الزمن وقال :

- لقد رفض العميد وجميع أعضاء هيئة التدريس مغادرة الكلية قبل خروج الطلبة .  
ظهرت ملامح الحزن على وجه شريف ولكنه لزم الصمت في هذه اللحظة دخل أحد الطلبة يحمل  
في يده لفافة ضخمة . قال له الدكتور جمال :

- ما هذا ؟ .

- كفته وكباب . الطعام ينهمر كالطر من المنازل المجاورة للكلية ولقد لاحظنا أن الاستاذ مختار حاول  
منذ ساعات الحصول على شيء من الطعام في فناء الكلية فلم يستطع . وعلمنا أنكم رفضتم مغادرة الكلية  
قبلنا .

انقض الجميع على الطعام فأتوا عليه في دقائق معدودة . بعد نحو نصف ساعة دق جرس التليفون في  
غرفة الدكتور جمال . فالتقط الساعة وظل ينصت إلى المتحدث بعض الوقت ثم قال :

- شكرا . هذا خبر سار .

وضع سماعة التليفون ونظر إليه الجميع بلهفة وترقب لمعرفة هذا الخبر السار . ولكن الدكتور جمال  
تعهد أن يظل صامتا مبسما إلى أن صاح شريف قائلا :

- ما هذا الخبر السار يا دكتور جمال ؟

قال الدكتور جمال :

- هيا اذهبوا إلى منازلكم . لقد فكوا الحصار المضروب حول الكلية وسمحوا بخروج الجميع .  
الأساتذة والطلبة .

قال مختار :

- أخشى أن تكون مصيدة لاصطيادنا عند خروجنا من باب الكلية .

قال الدكتور جمال :

- هيا يا مختار ولا داعي لهذه الهواجس ، سكرتيرة العميد قالت لي إن كل الكلية عرفت هذا النبأ ماعادانا ،  
يبدو أننا كنا كأهل الكهف .

قال شريف :

- الحمد لله . سأذهب لأصلي ركعتين .

قال الدكتور جمال :

- اعمل معروفا أرجوك . صل ماتريد من ركعات في بيتك . هيا . أريد أن أغلق الغرفة .

قال سعد :

- نحمد الله على السلامة يا جماعة .

قال مختار :

- هذه الليلة شيبتي .

قال شريف :

- لم يشب شعرك . ها هو ذا أسود كالفحم  
قال سعد :

- هل من المعقول ألا يشيب شعرك من الغارات الجوية وتشيب في ليلة واحدة كهذه؟

## - ٦١ -

كانت مريم تظن أن الخوف قد انتهى بانتهاء الحرب . ولكن ستار الغيب كان يحجب عنها مصيبة لم تكن في الحسبان دخل عليها أشرف ذات يوم مكفهر الوجه وقال بدون أية مقدمات :

- اسمعي يا مريم .

قالت مريم وقد استشعرت سماع خبر مرعب :  
- نعم؟

- ابتداء من هذه اللحظة لا بد من الحرص على تسخين الخبز قبل أكله . ولا بد من غسل جميع الفواكة والخضروات باليرمينجانا . والماء يجب غليه قبل شربه . وأى شخص يدخل البيت لا بد من غسل وتطهير يديه ، واعصروا ليمونا على كل شيء

كانت مريم تنصت مشدوهة لهذه التعليقات التي لا تعرف لها سببا . قالت بدهشة :

- ولماذا كل هذا العذاب؟

- الكوليرا منتشرة في البلد .

ظلت مريم ناظرة إلى شريف في ذهول وغمغمت قائلة :

- كوليرا!؟ هل انتهت الحرب لتفترسنا الكوليرا؟ هل كتب علينا أن نعيش في رعب مستمر؟ عيشة تقصف العمر .

- المهم الآن أن تهتمى بتنفيذ التعليمات التي ذكرتها لك بمخافيرها . وراقبي سامية مراقبة دقيقة حذار أن تخضر لها الخادمة أى طعام من خارج البيت . حياتنا متوقفة على هذه الاحتياطات .

انفجرت مريم تبيكي فصاح شريف قائلاً :

- ماذا حدث؟ هل كل شيء بيكيك؟

التزمت مريم بتنفيذ تعليمات زوجها بكل دقة كانوا يطالعون في الصحف ويسمعون في الإذاعة أخبار انتشار الوباء وعدد الوفيات التي كانت بالآلاف يوميا . كان خطر الموت في أثناء الغارات الجوية تسبقه زمارة تنبه الناس للذهاب إلى الخائئ لتجنب الأخطار . ولكن هذا الموت الجديد يتقضى على الضحايا بلا سابق إنذار . عاش الناس في هذه الفترة في رعب أشد مما كانوا يرزحون تحت وطأته في سنوات الحرب . كانت مريم تحمد الله على كل يوم يمر وهي وجميع من يهمل أمرهم على قيد الحياة . بعد فترة مرت وكأنها أجيال عديدة بدأ يقل عدد الوفيات إلى أن تلاشى .

قال شريف لمريم :

- ها هي ذى الكوليرا قد اختفت ومازلنا أحياء . لقد نجانا الله من الحرب ومن الكوليرا .  
ولكن مريم ظلت مدة طويلة تسير على التعليقات التي كانت تتبعها فيما يتعلق بالاحتياط الشديد من  
المرض . وذات صباح قالت مريم لزوجها وهو يهم بالخروج من البيت :

- انتظر . أريد التحدث معك .

- خيرا

- مصروف البيت الذى تعطيه لى لم يعد كافيا .

شحب وجه شريف وقال :

- أنا أعطيك كل المرتب .

- المرتب لم يعد يكفي لشراء الأشياء الضرورية . الأسعار فى ارتفاع مطرد . كنت أتخيل أن الأسعار  
بعد انتهاء الحرب ستعود إلى ماكانت عليه قبل الحرب ولكنها فى ارتفاع مستمر . أصبح ثمن أقة اللحم  
خمسة عشر قرشا .

قال شريف بدهشة :

- غير معقول ، إذا استمرت الحال كذلك فليس بمستبعد أن يصبح سعر أقة اللحم أربعين قرشا بعد  
عامين أو ثلاثة .

- تكون كارثة .

## - ٦٢ -

أصبحت سامية فى نحو التاسعة من عمرها ، جميلة الوجه ، خميرية اللون ، فى عينيها ابتسامة دائمة .  
كانت جالسة بجوار نافذة غرفتها تقرأ إحدى مجلات الأطفال . حانت منها التفاتة نحو الشارع فرأت منظرا  
استرعى انتباهها فنادت أمها :

- ماما ، ماما .

كانت مريم مشغولة بتنظيف الأثاث من التراب ، ردت على سامية قائلة :

- ماذا تريدين يا سامية ؟.

- تعالئى انظرى ماذا يعملون .

أسرعت مريم إلى سامية وسألها :

- ماذا يعملون ؟.

- لماذا يوسخون مصابيح الشوارع باللون الأزرق مرة أخرى بعد أن مسحوه ؟.

- حتى لاترى طائرات الصهانية المدينة عندما تطير فوقها فى الليل .

قالت سامية وقد شعرت بخوف :

١٠٠ - هل سترجع الغارات والقنابل؟

- أجل .

- ولماذا؟

- لأننا الآن نحارب الصهاينة .

- وهل ستطول هذه الحرب؟

- لا ، لن تطول إن شاء الله .

عاد جو الحرب ينجح على البلاد ، وعادت زمارة الإنذار تنعق ليلا ونهارا . كان شريف جالسا ذات مساء ينصت للراديو عندما دخلت مريم الغرفة ، سألته :

- ماهي آخر الأخبار؟

- الأخبار لاتسر .

- كيف؟

- الصهيونيون طوقوا جزءا كبيرا من الجيش المصرى فى الفالوجة .

أنطلقت زمارة الإنذار لأول مرة منذ بدء الحرب مع الصهيونيين . قالت مريم وكأنها لاتريد أن تصدق :

- أليست هذه زمارة الإنذار؟

- هى بيعينها . لابد من النزول إلى الخبأ .

- سامية نامتة ولا أريد أن أوقظها ، لاداعى للنزول إلى الخبأ لو انتزعناها من الفراش فقد تصاب بانفلونزا .

ارتفعت الأصوات فى الشارع تنادى :

- اطفئوا النور ، اطفئوا النور .

قال شريف :

- اطفئى الأنوار بسرعة .

وبينا تطفئ مريم الأنوار دوت طلقات المدافع ، فأسرعت إلى غرفة سامية وهول شريف خلفها وغمغمت مريم قائلة :

- أخشى أن تصحو سامية . لو صحت وسمعت صوت المدافع فستصاب بدعر شديد .

قال شريف :

- يخبئ إلى أن خوفك أكثر من خوفها .

- يبدو أن الخوف قد كتب علينا طوال حياتنا . لم نعد نجد وقتا لالتقاط أنفاسنا .

عاد قصف المدافع بعد أن كان قد هدأ قليلا ، فالتصقت مريم بسامية وكأنها تمنعها من الاستيقاظ ،

ولكن هذه الحركة كانت سببا في استيقاظ سامية التي تشبث بعنق والدتها عندما اشتد قصف المدافع وأخذت تبكي فأحضنتها مريم قائلة :

- لا تخافي يا حبيبي من صوت المدافع ، إنها تدافع عنا وتمنع الطائرات من الاقتراب منا .  
ولكن سامية لم تقنع بمثل هذه المهدئات ولم تطمئن إلا عندما سمعت زمارة الأمان وأضيت الأنوار .

## - ٦٣ -

في وسط هذا الظلام لاح شعاع من نور . كان شريف جالسا في غرفته يفحص بالميكروسكوب قطاعا في كلية الضفدعة استعدادا لتدريسه لطلبة إعدادى الطب في فترة العمل التي ستبدأ بعد ربع ساعة عندما دخل مختار وعلى فيه ابتسامة . سأله شريف عن سر تلك السعادة البادية على وجهه فقال :

- كنت في إدارة الجامعة اليوم وسمعت أخبارا مفرحة .

قال مختار بلا اكتراث وعينه لم تفارق عدسة الميكروسكوب :

- خيرا . من مدة طويلة لم أسمع خيرا واحدا بشرح القلب .  
- إذن فاسمع ها هو ذا خبر يشرح قلبك ، أنت وأنا وعلى عبد الكريم وفتحى البديوى والتهاى وعبد القادر فطين سنسافر في بعثات للحصول على الدكتوراه .

ترك مختار الميكروسكوب واستدار نحو شريف بزواوية مقدارها نحو تسعين درجة وقال بلهفة :

- أحقيقة ماتقول ؟ إياك أن تكون كاذبا فأصاب بانهيار عصبي .

- لن تصاب بانهيار عصبي ، فأنت تعلم أنني لا أمزح في مثل هذه الأمور .  
- ومن قال لك ذلك ؟ .

- سكرتير عام الجامعة .

- وإلى أين سنذهب ؟ .

- كلنا سنسافر إلى إنجلترا ، فيما عدا التهاى وعبد القادر فطين ، فيسافران إلى إيرلندا ، لكن قل لى ، إذا سافرت فهل ستصحب معك مريم وسامية ؟ .

- أجل ، لا بد أن نسافر معا . وأنت يا مختار لماذا لا تبحث لك عن فتاة طيبة تتزوجها وتأخذها معك إلى إنجلترا ؟ .

- ولماذا ؟ لاداعى لذلك . أنا لا أفكر في الزواج .

- هل من أجل فتاة لاتستحق اهتمامك تحكم على نفسك بالبقاء طوال حياتك بلا زواج ؟ .

- كرهت الزواج وكرهت كل البنات اللاتي في الدنيا . كل همى الآن محصور في الحصول على الدكتوراة ، لا أحب أن تشمت فيّ درية .

قال شريف ساخرا :

- درية تشمت فيك ؟ لا أظن أن درية تفكر فيك على الإطلاق أو تهتم بمعرفة أى شىء عنك ،

بل أنت الذى ترهق نفسك بالتفكير فى فتاة لم تعد تذكر عنك شيئا .  
قال مختار بانفعال :

- قلت لك إننى لا أفكر فيها .
- كلامك وروايتك الأخيرة يدلان على تفكيرك فيها . أنت غير قادر على نسيانها يا مختار .
- قال مختار وقد انخفض صوته إلى ما يشبه الهمس :
- رأيتها أمس فى الحلم .
- ألم أقل لك ؟ وماذا رأيت ياسيدى ؟
- رأيتها واقفة فوق برج عال فى وسط البحر مرتدية ثوبا أبيض طويلا وأنا أعوم حول البرج .
- ولكنك لاتعرف العموم .
- كنت أعرفه فى الحلم يا أخى ، وظللت أصارع الأمواج وأدور حول البرج باحثا عن باب أدخل فيه ، ولكننى لم أجد أى باب . كانت ناظرة إلى من أعلى البرج مبتسمة ، وشعرتُ بأننى أغرق . فأخذتُ أنادى بأعلى صوتى طالبا النجدة . ثم وجدت البرج قد تلاشى فجأة وحل محله هلال فى المستوى الذى كانت فيه قمة البرج ورأيتها جالسة فوق الهلال مرتدية سروالا فضفاضا وتهز ساقيها مبتسمة ... هلوسة ، لاهلوس هكذا مرة أخرى .

## - ٦٤ -

قبل السفر بيومين بينا كان شريف يسير فى شارع سعد زغلول رأى شيئا لم يكن يخطر على باله . لم يصدق عينيه فى بادئ الأمر وكان يريد أن يتجاهلها ويسير فى طريقه ، ولكنه وجد نفسه وجها لوجه أمام درية فاضطر لمصافحتها .

تعجب مختار عندما علم بذلك وقال :

- وماذا تعمل هنا فى الإسكندرية ؟ ألم تخبرنى أنت أنها سافرت مع زوجها إلى إحدى الدول العربية ؟

- ليس معنى هذا أن تظل مدى الحياة بعيدة عن مصر .
- وما الذى جاء بها إلى الإسكندرية ؟
- لست أدرى ، لابد من وجود سبب لذلك لم أسأله عنه .
- ربما جاءت للتصيف .
- ربما ، لقد سألتنى عن مريم وقالت إنها ترغب فى زيارتها وأن لديها كلاما كثيرا تود أن تقوله .
- وماذا قلت لها ؟

- قلت لها إن مريم سافرت إلى القاهرة لزيارة أهلها وستسافر بعد ذلك إلى إنجلترا مباشرة ، وقلت لها إنك مسافر معنا فى البعثة . هل تذكر يا مختار عندما كانت تريد الزواج من سعد بسبب إشاعة عن سفره فى بعثة ؟ هاهو ذا سعد لم يسافر وأنت الذى ستسافر . دنيا عجيبة .

- قال مختار وقد اجتاحتها ذكريات عديدة متشابكة :
- لم أرها من عدة سنوات ، منذ حصولها على البكالوريوس ، ترى هل تغير شكلها ؟.
  - لم تتغير إطلاقا يا أختي . إنها كما كانت وهي طالبة وكان السنوات لم تمر عليها .
  - أما زالت جميلة كما كانت ؟
  - نخيل إلى أنها ازدادت جمالا . على أية حال سوف ترى في إنجلترا من يفوقها جمالا .
  - أطرق مختار إلى الأرض وقال بنبرة حزينة :
  - لا أظن أن في إنجلترا ولا في أوروبا كلها من هي أجمل منها .
  - ولكنني لا أدري لماذا ترتدى ثوبا أسود ، لا بد أنها فقدت شخصا يمت لها بصلة حميمة .
  - ترى من هو ذلك الشخص ؟.
  - الله أعلم .

## - ٦٥ -

- كان المسافرون إلى إنجلترا قد باتوا ليلة في أحد فنادق بورسعيد ، وكان موعد قيام السفينة في منتصف الليل . في نحو الرابعة بعد الظهر كانوا جميعا على متن السفينة ، وبمجرد صعودهم سمعوا في مكبرات الصوت ما يفيد بأن وجبة طعام معدة لهم في قاعة الأكل الفسيحة ، فساروا يبحثون عنها حتى وجدوها مسترشدين باللائحات والأسمم التي تشير نحوها . كان على جانبي باب غرفة الطعام غلامان يرتديان زيا مزركشا ، ولما اقترب مختار وزملاؤه من ذلك الباب فوجئوا بالغلامين ينحنيان لهم ويفتحان الباب . قال على عبد الكريم :
- أقسم برحمة جدي أن مدير الجامعة لو علم بهذا العز وتلك الأبهة التي نستمتع بها هنا لأرسل طائرة هليكوبتر لاستدعائنا من عرض البحر .
- ما كادوا يجلسون حول منضدة مستديرة كبيرة حتى سمعوا صوت شاب وفتاة رائحة الجبال يتحدثان معا باللغة العربية ويبحثان عن مكان يتناولان فيه الطعام . قال على عبد الكريم :
- إنها مصريان ، لماذا لانستدعيهما ليجلسا معنا على هذه المنضدة ؟.
- قال فتحي البديوي :
- تول أنت هذه المهمة اللذيذة .
- كانت الفتاة بيضاء البشرة سوداء العينين ذات شعر كستنائي ناعم ، في حين أن الشاب الذي معها أسمر ذو شعر خشن مجعد . قام على عبد الكريم وأشار إليها فأقبلا نحوه . قال :
- فرحة عثورنا على مصرى في هذه السفينة لاتقل عن فرحتنا بالعثور على كتر ، لما ذاتنا تشاركانا الجلوس على مائدة واحدة ؟.
- استمت الفتاة وقال الشاب :



- بكل سرور .  
جلسا على كرسيين متجاورين . قال الشاب مقدا الفتاة :  
- إنها سميرة مسافرة لزوجها في لندن الذى سبقها فى السفر ، وأنا ابن عمها واصف غالى سأتولى حراستها حتى أسلمها لزوجها .  
قال شريف :  
- هل هذه كل مهنتك هنا ، حراستها طوال الطريق ؟  
- لا ، هذه مهمة ثانوية ، فأنا ذاهب إلى جامعة مانشستر لدراسة الكيمياء .  
قال فتحى البديوى :  
- أنا أيضا ذاهب إلى جامعة مانشستر ، سنكون زميلين هناك .  
- يشرفنى ذلك .  
لأحظوا أن بجوار كل منضدة بصالة الطعام يقف صبي يرتدى الزى نفسه الذى يرتديه الصبيان الواقفان عند الباب . قال مختار للصبي :  
- نحن من مصر .  
قال الصبي :  
- مرحبا بكم .  
قال فتحى مشيرا نحو سميرة .  
- هذه أميرة مصرية ، ونحن حاشيتها .  
فأنحنى الصبي وقدم لهم قائمة الطعام وانتظر أوامرهم . همس شريف فى أذن فتحى قائلا :  
- لماذا قلت ذلك ؟ إنها ليست أميرة مصرية .  
- أعتقد أن هذه المنضدة ستحظى بمزيد من العناية والاهتمام لهذا السبب .  
قال على :  
- ولكن هذه الكدبة التى لم يكن لها أى داع ستكلفنا الكثير .  
قال فتحى بدهشة :  
- كيف ؟  
- من المفروض الآن يكون (البقشيش) متناسبا مع مقام أميرة مصرية ، ونحن المسئولون عن تقديمه ، فنحن الحاشية كما ذكرت .  
ضحك الجميع ماعدا مريم التى بدت واجمة . كانت سامية جالسة ملتصقة بها وكأنها خائفة من شىء . اختاروا ألوان الطعام التى يريدونها ولم تمض دقائق حتى كانوا يلتمونها بشهية واضطرت سميرة إلى الظهور بمظهر الوقار فى أثناء جلوسها فلقد أعجبتها اللعبة وكادت تصدق أنها حقيقة أميرة مصرية .  
انتهى تقديم جميع ألوان الطعام ، فقال صبي المنضدة :  
- قهوة أم شاي ؟

قال مختار :

- بيض مقلّى ! .

فأحضر له بيضا مقليا للمرة الثانية ، وأحضر للباقي القهوة أو الشاي ، كلّ حسب طلبه .

انتهوا من تناول الطعام وسار مختار مع شريف ومرم وسامية يكتشفون مسارب السفينة ودهشوا عندما وجدوا بها حماما للسباحة وعرفوا مواقع الكيبتين اللتين سيبتون فيها . كانت كيبنة شريف وعائلته رقم ١٤ وكيبنة مختار رقم ١٦ . ذهبت مرم مع سامية إلى الكيبنة لإخراج بعض الأشياء من الحقائق وبقى مختار وشريف جالسين في ( الكافيتيريا ) . لاحظت مرم أن سامية تغالب النعاس فوضعتها في الفراش وظلت بجوارها حتى نامت

مر الوقت سريعا وأقبل الظلام . قام شريف ومختار لإلقاء نظرة الوداع على بورسعيد ، فلم يجدا المدينة ، كانت السفينة قد تحركت منذ فترة وابتعدت عن الشاطئ . أقبلت مرم وأخذت تنظر في جميع الاتجاهات ثم قالت :

- أين بورسعيد ؟ أنا لا أراها .

ضحك شريف وقال :

- لن تستطيعي رؤية بورسعيد قبل ثلاث سنوات .

قالت مرم وقد شعرت وكأنها اختطف :

- لم أشعر بالسفينة عندما تحركت .

قال مختار :

- ولا نحن ، كنا مستغرقين في الحديث ونظرنا فلم نجدها .

قالت مرم :

- العجيب أن المركب لا تميل يمينا أو يسارا ، إنها تسير وكأنها فوق الأرض .

قال شريف :

- إنها سفينة كبيرة ثابتة ، حمولتها أربعون ألف طن .

قالت مرم :

- أتمنى أن تظل ثابتة هكذا .

قال شريف :

- يقال إنها سوف تهتز عندما تدخل خليج بسكاي ، ستكون هذه أصعب فترة في الرحلة .

قالت مرم :

- ومتى سنصل إلى إنجلترا ؟ .

قال شريف :

- بعد أسبوع بالضبط .

قال مختار لشريف :

- ألا تعلم أرقام كبائن فتحى وعلى؟  
- على فى رقم ثمانية وعشرين وفتحى فى خمسة وثلاثين  
قال مختار :  
- هيا نبحت عنها .  
وجدوها جالسَيْن على ظهر السفينة مع فتاتين ، إحداهما سميرة . قالت مريم :  
- من هذه الفتاة الأخرى ؟  
قال مختار :  
- لا بد أنها فتاة مصرية تعرفنا عليها ، فلنتركهم على راحتهم . لاداعى لإزعاجهم .  
جلسوا على مقاعد متجاورة ولاحظوا أن على وفتحى والفتاتين قاموا متجهين نحوهم . قال شريف :  
- يبدو أنهم هم الذين سيأتون إلينا .  
اتضح أن الفتاة الأخرى تدعى عفاف ، وأنها موفدة فى بعثة إلى لندن لدراسة التمريض .  
انبعث من كبرات الصوت صفير متقطع ، ففزعت مريم وقالت :  
- ما هذه الصفارة ؟  
قال على بدون اكتراث :  
- يبدو أنها صفارة الإنذار .  
قالت مريم وقد شعرت بقشعريرة تسرى من رأسها إلى جسدها :  
- هل تلاحظنا صفارة الإنذار ونحن فى عرض البحر؟ ولماذا هذه الصفارة . هل هى غارة جوية ؟  
قال على بهدوء ولا مبالاة :  
- لا بد أن السفينة فى خطر .  
انتفضت مريم واقفة وقالت :  
- خطر؟  
وأسرعت نحو السلم المؤدى إلى كبائن الدرجة الأولى سأها شريف :  
- إلى أين أنت ذاهبة ؟  
قالت دون أن تتوقف :  
- سأذهب لسامية ، تركتها نائمة وحدها فى الكيئة .  
هرول شريف نحوها قائلاً :  
- سأحضر معك .  
رأى أحد البحارة واقفا ناظرا نحو البحر فسأله :  
- لماذا هذا الصفير ؟  
- السفينة تسير فى ضباب ، وهذا شئ خطير ، إذ من الممكن أن تصطدم فى أية لحظة بسفينة  
أخرى .

صرخت مريم قائلة :

- ضياب؟! يا للمصيبة .

أسرعت هي وشريف إلى الكيئة فلم يجدا سامية . كانت صفارة السفينة مازالت ترسل صوتا متقطعا . أسرعا بالبحث عنها سائلين كل من يصادفهما . أخبرهما أحد الركاب أنه شاهد طفلة تسير وحدها باكية ، وأن سيدة كبيرة السن أخذت يدها وسارتا معا .

انفجرت مريم تبكي . قال شريف لهذا الراكب :

- ألا تعرف أين ذهبنا؟ .

قال الرجل :

- اتجهتا نحو حمام السباحة .

قال شريف وقد طاف بذهنه أسوأ ما يمكن أن يحدث :

- ليتنا تركناها في مصر . أف ، لا يوجد في الدنيا ما هو أصعب من تربية الأولاد .

قالت مريم باكية :

- لا بد أن نبحث عنها في كل شبر في السفينة .

قال شريف وفي صوته يأس :

- إنها سفينة في حجم مدينة لا أول لها ولا آخر ، هيا بنا إلى حمام السباحة .

رأت مريم سيدة جالسة على أحد كراسي البحر ، سألتها :

- ألم ترى طفلة صغيرة تسير مع سيدة عجوز؟ .

قالت المرأة :

- يوجد أطفال وعجائز كثيرون في السفينة .

قالت مريم بصوت متهدج :

- طفلة صغيرة ترتدى رداء أزرق .

- متأسفة ، لم أرها .

انهارت مريم وشعرت بأن ساقها لا تقويان على حملها ، فألقت بنفسها على أحد الكراسي واستسلمت لبكاء عنيف . قال شريف ليطمئنها وهو في الواقع أكثر منها قلقا :

- مهما كان حجم السفينة فهي محدودة المساحة ولا بد أننا سنجدها في مكان ما ، فلا داعي لهذا العويل .

ما كاد شريف ينتهي من كلامه حتى سمعا صوتا من مكبر الصوت يقول :

- « توجد طفلة تدعى سامية في الصالون الكبير تبحث عن والدتها » ، وتكررت هذه الجملة عدة مرات .

انطلقا بأقصى سرعتهم نحو الصالون فوجدوا سامية جالسة جنب السيدة العجوز تبكي وتقول :

- أريد أن أذهب لماما وبابا .

احضنتها مريم وغمرتها بالقبلات . بينا غمغم شريف قائلا :  
- ما أصعب تربية الأولاد . لقد شيتني ، تصورت أنها سقطت في البحر وافترسها أسماك القرش .  
اندفع مختار إلى الصالون وهو يلهث . سأله شريف بفرع :  
- ماذا حدث ؟ .  
- عندما طال انتظاري لكم أنتم الثلاثة قت أبحث عنكم في جميع أنحاء السفينة . لم أجد أحدا في  
كبيبتكم ، فواصلت البحث عنكم ، ثم سمعت في مكبر الصوت أن طفلة تدعى سامية تنتظر أمها في  
الصالون فأسرعت بالمجيء .  
في اللحظة التي عثروا فيها على سامية توقفت صفارة السفينة وانقشع الضباب .

## - ٦٦ -

شعر مختار بأن الأيام التي أمضاها في السفينة هي أسعد أيام حياته . فكبة المرح التي شعر بها في تلك  
الفترة تفوق كل ماشر به من سعادة طوال حياته .  
قبل يومين من وصول السفينة إلى ساحل إنجلترا أرسل مختار تلغرافا إلى زميله وصديقه أمين جاد الذي  
سبقه في السفر إلى لندن بنحو شهر في بعثة إلى الكلية الإمبراطورية بجامعة لندن للحصول على الدكتوراه  
في الحشرات ، وحدد له في التلغراف موعد الوصول بالقطار إلى محطة ووترلو بلندن .  
قالت مريم لشريف :  
- متى نصل إلى لندن ؟ .  
- بعد يومين ، سنصل أولا إلى ميناء ساوثا مبتون في الساعة صباحا ، وسيكون في انتظارنا في الميناء  
قطار خاص ينقلنا إلى لندن ، ومن لندن سنستقل القطار إلى مدينة شفيلد .  
- أريد الفرجة على لندن قبل سفرنا إلى شفيلد .  
- سنقضى في لندن يومين أو ثلاثة قبل سفرنا إلى شفيلد . حذار من أن تتوه منا سامية في لندن فتكون  
كارثة .

- وهل هذا معقول ؟ لن أتركها من يدي .  
في صباح أحد الأيام اقتحم شريف كبيبة مختار وأيقظه من نومه قائلا :  
- قم ، وصلنا إلى إنجلترا .  
قال مختار بلهفة :  
- وصلنا إلى إنجلترا ؟ .  
- أجل ، ارتد ملابسك بسرعة ورتب حقبتك .

عندما تحرك القطار ظلوا ناظرين من النوافذ مبهورين بالمنظر الخلابة التي يرون بها . كل ما حولهم

تكسوه الخضرة ، تتأثر المنازل في هذه المساحات الخضراء ، وتبدو أجساد البقرات وكأنها مغسولة بالماء والصابون .

وصل القطار إلى محطة ووترلو بلندن فهبطوا منه . أخذ مختار يتلفت باحثاً عن أمين جاد فلم يجده . قال شريف :

- أين أمين جاد الذى تقول إنه سيبتظرنا في المحطة ؟ أحمى ألا يكون قد وصله تليفراك .
- غير معقول ، جميع التليفراكات لا بد أن تصل . انتظرونى هنا لحظة حتى أبحث عنه .
- ثم صاح قائلاً :
- ها هو ذا ، يا أمين ، أمين
- أقبل أمين متهلك الوجه قائلاً :
- كنت أبحث عنك في جميع أنحاء المحطة .
- ثم صافح مختار وجميع الزملاء بحرارة ، فهو يعرفهم عندما كانوا معاً بجامعة القاهرة . قال مختار لأمين :
- أين يذهب الآن ؟

- قبل كل شيء هيا بنا نتغذى .

في أثناء اتجاه أمين وضيوفه إلى محطة مترو الأنفاق الذى يوصلهم إلى المطعم سأل أمين سامية :

- هل أعجبتك لندن يا سامية ؟
- أريد الذهاب إلى بيتنا في اسكندرية .
- ضحكوا ، وقال أمين لسامية :
- سأفركك الآن على شيء عجيب .
- ما هو ؟
- السلم الكهربائى .
- قالت سامية لرمم وهم يتحركون مع السلم إلى أسفل :
- إلى أين نحن ذاهبون يا ماما ؟
- سنذهب تحت الأرض يا حبيبتي .

وصل السلم إلى ميدان تحت الأرض ووقفوا عند رصيف المحطة . بعد دقيقة أقبل المترو وأسرعوا بركوبه . لم تكن سامية وحدها المهورة ، بل كان الجميع يشعرون وكأنهم في مدينة مسحورة من مدن الجن . تمنى شريف لو توجد مثل هذه الأنفاق في مدينة القاهرة ، وتحجب مختار من قدرة الإنسان على القيام بها . الإنجازات الرائعة تحت سطح الأرض ، أما باقى الزملاء فكانوا يتلقتون بينما ويسارا مشدوهين .

بعد الانتهاء من الغداء أخذوا يجولون في الشوارع ، ثم دعا أمين صديقه مختارا لقضاء ثلاثة أيام في بيته

الذى يعيش فيه مع عائلة انجليزية فى إحدى ضواحي لندن . وفضل شريف وعائلته السفر مباشرة إلى شفيدل حيث كان أمين عن طريق أحد أصدقائه قد حجز لهم هناك شقة مفروشة فى بيت يضم عدة شقق ، بينما ذهب على وفتحى إلى فندق بلندن كان أحد أصدقاء على قد حجز لهم أماكن فيه .

بعد قضاء فترة الضيافة سافر مختار إلى شفيدل واكتشف أن المكان الذى حجزه له أمين يقع بالقرب من المبنى الذى يسكن فيه شريف وعائلته فشرع براحة نفسية .

## - ٦٧ -

بعد نحو ثلاثة شهور قالت مريم لشريف :

- كنت أتصور أن مدينة شفيدل مجموعة من مصانع الحديد والصلب . لم أكن أتصور أنها بهذا الجمال . تحيط بها الغابات والبحيرات .

- ما رأيك لو ذهبنا للفسحة فى غابات فولوود يوم الأحد القادم ؟ .

- أتمنى أن يأتى معنا مختار ، أنا مثله من أجله .

- لماذا ؟ إنه مهم بعمله ومتقدم فيه . لايفارق المعمل حتى فى الأجازات ؟ .

- ما هذا ؟ لايفارق المعمل حتى فى الأجازات ؟ .

- أجل

- إنه شبه انتحار .

- كيف ؟ .

- مختار لابد أن يخرج من القمقم الذى سجن نفسه فيه . لابد أن يشعر بالدنيا التى حوله . من

الضرورى أن يتفصح ويسافر فى رحلات .

- عرضت عليه الاشتراك معنا فى الرحلات التى ذهبنا فيها فلم يقبل .

- ليس من المعقول أن نتركه هكذا . فليأت معنا فى رحلة « سكاربرا » .

- أكلمه فى هذا الموضوع .

- ليتنا نعرفه بفتاة جميلة تنسيه الحزن الذى يعانى منه بسبب درية توجد فتاة لطيفة جلا ورائعة

الجمال تدعى « آن » سترافقنا فى الرحلة . سأحاول أن أعرفه بها

كانت الرحلة تضم نحو ثلاثين شخصا ذكورا وإناثا . قال شريف لأن مقدها لها مختارا وهم داخل

الأوتوبيس المنطلق بهم نحو سكاربرا :

- هذا أعز أصدقائى ، مختار بدر الدين .

وقال لمختار :

- وهذه آن طالبة بقسم الآثار بالجامعة . ومغرمة بالآثار المصرية .

قال مختار :

- مادامت تجب الآثار المصرية فأعتقد أنها تتوق لزيارة مصر.  
قالت آن :
- أمنية حياتي أن أزور مصر.  
قال شريف :
- من الممكن أن يتحقق هذا الأمل لو تزوجت مصر يا .  
وضحك ، وضحكت آن وقالت :
- أنا أرحب بذلك . فأنا أحب مصر وكل شيء من مصر.  
عندما هبطوا من الأوتوبيس سار مختار بصحبة آن على شاطئ البحر . ساد الصمت بينها فترة قصيرة . ثم قطع مختار الصمت عندما قال لآن :
- ألدريك مانع من الجلوس معا على تلك الصخرة المطلة على البحر؟  
- لا مانع لدى .
- كان شريف ومرم وسامية يسيرون خلفها . همست مرم في أذن شريف قائلة :
- يبدو أن عقده سوف تحل .  
- ياريت
- جلس مختار على قمة الصخرة عاقدا ذراعيه حول ساقيه ناظرا إلى الأفق البعيد ويجواره آن كقطعة سيامية . قالت له :
- من يراك يظنك شعرا .  
- أنا شاعر ، أنظم الشعر وأحبه جدا . لا بد أنك أيضا تعشقين الشعر.  
ضحكت وقالت :
- الشعر ؟ أنا لا أحب الشعر . كنت أشعر بالعذاب عند قراءة أشعار شكسبير في المدرسة . وأقرؤه مضطرة لا لشيء سوى النجاح في الامتحان .  
قال مختار وقد شعر بشيء من خيبة الأمل :
- أنت أول إنجليزية أكتشف أنها لا تحب شعر شكسبير .  
ضحكت وقالت :
- كثيرون من الإنجليز لا يحبون شعره ، هل تعرف من هم ؟  
- من ؟
- الذين كانوا يرسبون في الامتحان بسبب أشعاره .  
وضحكت . قال مختار متعلقا ببعض خيوط الأمل :
- ولكنك بلاشك تحبين الموسيقى .  
- أحب موسيقى (الجاز) .  
قال وقد خاب أمله :



- موسيقى (الجاز) فقط ؟
- لا أحب (الكلاسيك) .
- ظل مختار طوال رحلة العودة صامتا يجيب عن أسئلة شريف إجابات مقتضبة غير واضحة .
- عندما زار شريف مختارا في اليوم التالي لاحظ شيئا لم يكن يتوقعه . قال :
- ما هذا ؟ كنت أتوقع أن أحضر اليوم فأجد صورة آن على حافة المدفأة بدلا من صورة درية هذه .
- الحقيقة أنه على الرغم من أن آن فتاة جميلة ولطيفة وبدأ لي أنها أحببتني ، إلا أنني ...
- قاطعه شريف قائلا بغضب :
- إلا أنك ماذا ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟.
- حاولت أن أحبها فلم أستطع .
- الإنسان لا يحاول الحب ، فالحب يأتي من تلقاء نفسه .
- لم تستطع أن تحمل عمل درية في قلبي .
- قال شريف ييأس وقلق :
- لا ، حالتك أصبحت مستعصية . يقولون في المثل يا أخى « إذا أحببتك حية تلتغ بها » .
- هذه هي المأساة ، لم أستطع التلتغ بها .
- خرجنا معا من البيت وذهبنا إلى الجامعة حيث اتجه مختار نحو قسم علم الحيوان وذهب شريف إلى قاعة
- الجلوس بالتحاد الجامعة لقراءة الصحف ، وبعد فترة قصيرة دخل شريف المعمل وقال لمختار بانفعال :
- هل قرأت صحف اليوم ؟.
- توقع مختار من ملامح وجه شريف سماع خبر مزعج . فقال بلهفة :
- لا . ماذا حدث ؟.
- يوجد خبر مهم عن مصر .
- ازداد قلق مختار وقال :
- ماهو ؟.
- شخصية مصرية كبيرة اغتيلت .
- من ؟.
- النقراشي باشا . شاب أطلق عليه الرصاص داخل الوزارة .

كان مختار يذهب إلى الحقول لجمع بيض الفراشات حيث يتولى العناية به حتى يفقس فتخرج منه يرقات تتحول إلى عذارى ثم إلى فراشات ، وذلك لدراسة القوى المؤثرة على هذا التحول التي تجعل اليرقة الدودية الشكل تتحول إلى فراشة جميلة تختلف عن اليرقة كل الاختلاف . وكيف نخشى في أثناء النمو أجزاء وتستجد أجزاء أخرى ونتيجة لذلك يحدث هذا التغيير الشديد في الشكل والتركيب .

كان يقضى الساعات الطوال مقرصاً يفحص أوراق الكرب لجمع البيض في مساحات زراعية شاسعة ودرجة حرارة الجو تقترب من الصفر أو تهبط عنه في كثير من الأحيان ، وتسبب ذلك في حدوث آلام في ركبتيه ظل يعاني منها طوال حياته .

بعد نحو عام ونصف من الدراسة الشاقة فوجئ باختفاء بيض الفراشات من جميع الحقول . اجتاحه بأس شديد وذهب لزيارة شريف في المساء بعد قضاء يوم بأكمله باحثاً عن البيض بلا جدوى . كان بادى الحزن واليأس . قال لشريف :

- لن أستطيع الحصول على الدكتوراه . أفضل أن ألقى بنفسى في البحر على رجوعى فاشلا خائبا .  
قال شريف بانزعاج :

- لماذا ؟ ماذا حدث ؟ أراك مُجهداً في دراستك ، تكاد تبيت في المعمل .
- بيض الفراشات التي أدرسها لم أستطع العثور عليه في هذا الموسم . لم أجد بيضة واحدة في نحو مائة فدان من الكرب فحصت أوراقها ورقة ورقة .
- وماذا جرى للفراشات ؟ لماذا لم تضع بيضا في هذا الموسم ؟ أين ذهبت ؟
- هذه الفراشات نجيء مهاجرة من فرنسا كل موسم ، والجو القاسى هذا العام منعها من الهجرة . لا توجد الآن فراشة واحدة من هذا النوع في جميع أنحاء إنجلترا ، لست أدري ماذا أفعل .
- هل بحث جيدا ؟
- بحثت حتى هلكت وتصلبت ركبتي .
- هل استشرت رئيس القسم في هذه المشكلة ؟
- لا . وماذا سيعمل ، هل سيأمر الفراشات بالهجرة إلى إنجلترا ؟
- على أية حال إذا كانت استشارته لن تفيد فإنها لن تضر .

قال رئيس القسم لمختار :

- هذه ليست مشكلة . من الممكن استيراد أى عدد من بيض هذه الفراشات من فرنسا من جهات معينة متخصصة في ذلك ، وتترك البيض يفقس هنا في درجة الحرارة الملائمة في الغرفة المخصصة لذلك . وهكذا حُلت مشكلة اختفاء الفراشات في ذلك الموسم وعاد لمختار أمل الحصول على الدكتوراه . ولكن ظهرت مشكلة من نوع آخر في منزل شريف . ذات صباح ، في أثناء الفطور . قالت مريم لشريف بعد فترة تردد :

- أورد أن أخبرك بشيء . لا أدري ما إذا كان سيفرحك أم يزعجك .  
ترك شريف الملعقة تسقط على منضدة الطعام والتفت إليها قائلاً :  
- خيراً ، ماهو هذا الشيء ؟ .  
- يبدو أنني حامل .  
شحب وجه شريف ولكنه سيطر على أعصابه حتى لاتفلت منه وقال :  
- حمل !؟ ألم يكن من الأفضل إرجاء ذلك إلى ما بعد عودتنا إلى مصر ؟ ألا تكفيننا هنا مشكلات طفل واحد ؟ .  
قالت مريم بعصبية :  
- لست أدري ، هذا ماحدث .  
- أول ماينبغي عمله هو الذهاب إلى الطبيب للتأكد من الحمل .  
قال الطبيب :  
- يوجد حمل .  
صاح شريف قائلاً بفرح :  
- حَمَل !؟  
قال الطبيب مبتسماً :  
- لماذا كل هذا الرعب ؟ هذا شيء لا يدعو للخوف . أنت تعلم أن في هذه البلاد نظام التأمين الصحي ، وأنت تخضع لهذا التأمين بالمجان بصفتك طالب دراسات عليا في الجامعة . سأعطيك الآن بطاقة تسلمها لمستشفى « جيسوب » الذي ستم فيه عملية الولادة . وبطاقة أخرى تتيح لكما من الآن أخذ فيتامينات وعصير برتقال من المستشفى بالمجان تناوفاً وزوجتك ، وسوف يكون لكم الحق في شراء البيض بنصف سعره واللبن بربع السعر ، وتحصلون يبطاقتكم التوئية على مزيد من البيض : إذ لابد من تغذية الجنين .  
قال شريف :  
- وهل نفقات المستشفى باهظة ؟ .  
ضحك الطبيب وقال :  
- الولادة بالمجان لجميع المواطنين ، وعلاوة على ذلك فسوف يصرف لكم المستشفى يوم الولادة مبلغ ثمانية جنيهات للمصروفات العاجلة ، ولا بد من ذهاب زوجتك إلى المستشفى كل أسبوعين ابتداء من الآن للكشف عليها حتى يحين موعد الولادة .

كان شريف وعائلته يؤجرون غرفتين في شقة تعيش فيها عائلة انجليزية . زوج وزوجة وطفلة في نحو التاسعة تدعى مرجريت وطفل في نحو الخامسة يدعى بيتر . ذات ليلة عاد شريف من الجامعة في نحو الحادية عشرة مساء حيث كان يواصل العمل بالمعمل حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل . وجد سامية نائمة وبحث عن مريم فلم يجدها . رأى مرجريت تهبط السلم المؤدى إلى الدور العلوى فسألها :

- أين مريم؟ .

قالت مرجريت :

- ألا تدري ماذا حدث؟ .

- ماذا حدث؟ .

- نقلتها سيارة إسعاف إلى المستشفى .

قال شريف وقد شعر برعب شديد .

- لماذا؟ .

أسرعت مرجريت بهبوط السلم ودخلت إحدى الغرف وأحضرت بطاقة سلمتها لشريف قائلة :

- سائق عربة الإسعاف ترك لك هذه البطاقة

اختطف البطاقة بلهفة وقرأها فعلم أن مريم ذهبت إلى جيبوب للولادة . خرجت الأم من

إحدى الغرف عندما التقطت أذناها حديث شريف ومرجريت ، قالت مرجريت :

- ها هي ذى ماما . أسألها فهي تعرف أكثر مني .

قالت المرأة :

- شعرت زوجتك بأعراض الولادة فاتصلتُ تليفونيا بالمستشفى حيث أرسلوا على الفور عربة إسعاف

نقلتها للمستشفى ، ومكتوب بالبطاقة التي بيدك أن من حثك زيارتها الليلة بالمستشفى لمدة دقيقة واحدة .

قال شريف بانفعال :

- ولماذا لم تتصلوا بى تليفونيا بالكلية لأعرف أنها ذهبت للولادة؟ .

- ولماذا تتصل بك وتعطلك عن عملك؟ هل أنت الذى ستولى عملية التوليد؟ لقد أخذ المستشفى رقم

تليفون المنزل ليتصلوا بك عقب إجراء عملية الولادة مباشرة .

أسرع شريف إلى المستشفى ورأى زوجته فى غرفتها ومعها الطبيب . بعد دقيقة صالحة الطبيب قائلاً :

- لا تقلق ، إنها فى أيد أمينة .

خرج شريف وعاد إلى المنزل ولم يبق في هذه الليلة ، بل ظل ساهرا في انتظار رنين جرس التليفون .

في نحو الخامسة صباحا دق جرس التليفون . فأسرع بالتقاط الساعة . سمع صوتا ، اعتقد أنه صوت

الطبيب ، يقول :

- أريد التحدث مع مستر شريف  
- أنا شريف .  
- هنا مستشفى جيسوب . تمت ولادة زوجتك في الساعة الخامسة إلا عشر دقائق ، والمولودة بنت جميلة  
- أشكركم جزيل الشكر .  
وضع الساعة مغنمًا :  
- الحمد لله . لك الحمد والشكر يارب .  
بعد يومين قال مختار لشريف :  
- هل من الممكن أن أزور مريم في المستشفى ؟  
- نذهب معا غدا ، فالزيارة يومان في الأسبوع ، السبت ، والثلاثاء فقط . والمدة المسموح بها في  
الزيارة ربع ساعة ، ولا يسمح بدخول أكثر من شخص واحد .  
- كيف ؟  
- إذا ذهبتا نحن الاثنين لزيارتها فسوف تدخل أنت بمفردك وتمكث سبع دقائق ونصف ثم نخرج وأدخل أنا  
وأملكث معها سبع دقائق ونصف .  
- وإذا كان الزوار أكثر من ذلك ؟  
- يقسم ربع الساعة عليهم بالتساوي .  
- ولماذا كل هذا ؟  
- لئلا تحدث ضجة داخل عتابر الولادة .  
- وسامية . كيف تعيش بدون والدتها ؟  
- تعيش مع عائلة صاحب البيت كإحدى بناتهم طوال فترة غياب مريم بالمستشفى  
بعد أسبوع . بينما كان شريف منمكا في فحص بعض الشرائع تحت الميكروسكوب أقبلت نحوه  
سكرتيرة القسم وفي يدها ورقة وقالت .  
- وردت الآن إشارة من مستشفى الولادة يطلبون منك الذهاب إلى المستشفى على الفور .  
قال بلهفة :  
- لماذا ؟ ماذا حدث ؟  
- لا أعرف ، هذا هو كل ما ورد في الإشارة .  
انتفض واقفا في هلع وقد سيطرت عليه أفكار سود .  
لماذا يطلبون سرعة ذهابي إلى المستشفى ؟ لا بد أن شيئا قد حدث لزوجتي أو للمولودة .  
استقل تاكسيا انطلق به نحو المستشفى . رأى سيدة يحملها ممرضان على نقالة . اندفع نحوها وسأل  
بلهفة :
- ما بها ؟ ماذا أصابها ؟  
توقف الممرضان ونظرا إليه بدهشة ، واتضح أنها ليست زوجته فشر بنجل . صعد سلم المستشفى

- بأقصى سرعته وبدا شاحبا مضطربا . سألته إحدى المرضات عن سبب قلقه فقال :
- وصلتني إشارة من المستشفى للحضور هل حدث شيء لزوجتي؟ .
  - السيدة المصرية؟ .
  - أجل .
  - لم يحدث لها أى شيء . زوجتك أمضت في المستشفى أكثر من أسبوع وسوف تنقل الآن إلى مستشفى آخر على قبة تل لتقضى فترة أخرى للنقاهة . سيارة المستشفى في انتظارها أمام الباب الرئيسي وستذهب أنت معها لتعرف مكان المستشفى الآخر . رئيسة المرضات تريد رؤيتك ، هيا معي .
  - قالت له رئيسة المرضات :
  - ما هو الاسم الذى اخترتماه لابنتكما؟ .
  - فريدة .
  - رددت رئيسة المرضات الاسم عدة مرات وكأنها تختبر موسيقاه ، ثم كتبت الاسم في ورقة أمامها أعطتها لشريف قائلة :
  - هل هذا هو الهجاء الصحيح للاسم؟ .
  - قرأه شريف وقال :
  - أعتقد ذلك .
  - وضعت الورقة بجوارها على مكتبها ثم قالت :
  - اكتب لنا عنوان المنزل الذى تعيشون فيه . وسوف يزوركم شخص موفد من المستشفى لمعرفة ما إذا كان البيت يصلح لوجود طفلة أخرى فيه .
  - حضر مندوب المستشفى وقرر أن المسكن لا يصلح . وأن المستشفى سيتولى مهمة البحث عن مسكن مناسب .
  - ظل مختار يزور مريم في المستشفى الجديد في الأيام المقررة ، ولاحظ أن غرفتها مليئة بالأزهار فسألها عن مصدرها . قالت :
  - عندما علم المرضات أنك الوحيد الذى تزورنى في هذا المستشفى وأنا غيباء هنا بعيدون عن وطننا وأهلنا . تولين مهمة إحضار هذه الأزهار كل يوم . تأثر شريف حتى دمعت عيناه .

عندما خرجت مريم من المستشفى فوجئت بالمسكن الجديد . لم يكن يُخطر على بالها أنها ستعيش في بيت بهذا الجمال . كان أكثر اتساعا من المنزل الذى كانوا فيه . تحيط به حديقة واسعة لا تقل مساحتها عن فدانين ، صاحبه على علم بأمراض الأطفال ومشكلاتهم الصحية الطارئة إذا أنها كانت رئيسة المرضات في أحد المستشفيات قبل تقاعدها .

كان بالبيت عدد من التزلاء جميعهم من طالبات الجامعة ، ولقد خصص لعائلة شريف جناح مكون من مطبخ كبير به مائدة للطعام وصالون وغرفتان للنوم . أبدى مختار إعجابه بهذا البيت وتمنى لو يوفق للعثور على بيت مثله .

ذات يوم ، عندما كان مختار في زيارة لشريف وعائلته ، همس في أذن شريف قائلا :

- من الفتاة التى تقطن الشقة المقابلة لشقتكم ؟ .

- بنت اسمها اليزابيث فى قسم الموسيقى بالجامعة ، ولكن لماذا تسأل عنها ؟

قال شريف وقد هزته الفرحة :

- لقد أعجبتنى جدا هذه الفتاة .

- الحمد لله ، أدعو الله أن يحل عقدتك .

- هل تعرفها ؟ .

- أنا فى الحقيقة لا أعرفها . ولكن مريم تعرفها .

قال مختار وقد احمر وجهه خجلا :

- هل من الممكن أن تعرفنى مريم بها ؟ .

- بكل سرور .

ثم أردف قائلا بعد لحظة تفكير :

- هذه الفتاة تزور مريم كثيرا . إحضر غدا تتعشى معا وسأدعوها هى أيضا للعشاء . مارأيك ؟ .

- يسعدنى ذلك .

تم التعارف بين مختار واليزابيث وأجلستها مريم متجاورين حول منضدة الطعام . كان الارتباك والتجمل الشديد باديا على مختار وكان اليزابيث هى التى تصيد موضوعات للحديث .

عندما انتهوا من تناول العشاء انتقلوا إلى الصالون . كان صغير الحجم يضم عددا قليلا من المقاعد وفى أحد أركانه (جراموقون) . جلس الجميع معا . وبعد نصف ساعة قال شريف لمختار :

- يبدو أنك خجلان من التحدث مع اليزابيث لوجودنا معكما .

- جدا ، لست أدرى متى سأتخلص من هذا التجمل المؤلم .

بعد خروج شريف ومريم من غرفة الجلوس قال مختار لإيزابيث :

- هل تعرفين أنك أول بنت تعجبينى فى المنجلا ؟ .

- ضحكت وقالت :
- في إنجلترا كلها ؟
- أجل ، أجمل من رأيت في إنجلترا كلها ؟.
- أشكرك .
- إنك تذكريني بفتاة جميلة جدا عرفتها في مصر .
- ضحكت وقالت :
- أشكرك .
- سمع مختار طرقا خفيفا على باب الغرفة . قال :
- أدخل .
- دخل شريف ، قال .
- هل تحبون سماع شيء من الموسيقى ؟
- قال مختار :
- يسرفني ذلك .
- أدار مختار موسيقى روميو وجوليت لتشايكوفسكى ثم خرج من الغرفة
- قال مختار لإليزابيث :
- هل تحبين الموسيقى الكلاسيك ؟.
- ضحكت وقالت :
- كيف لأحب الموسيقى الكلاسيك وأنا في قسم الموسيقى بالجامعة ؟.
- ضحك مختار ليدهارى خجلة وقال :
- أوه ، نسيت ذلك . ومن أعظم الموسيقيين في رأيك ؟.
- بيتهوفن وموتسارت وتشايكوفسكى .
- هم أنفسهم المفضلون لدى .
- شيء جميل أن تتشابه آراؤنا .
- يبدو أننا متفقون معا في أشياء أخرى كثيرة .
- يفرحني دائما أن أجد إنسانا تتشابه أفكاره وأفكارى .
- قال بعد تردد :
- هل من الممكن أن أراك مرة أخرى ؟.
- ضحكت وقالت :
- ولم لا ؟.
- بعد عدة مقابلات تمت في أماكن مختلفة خارج منزل شريف ، قال مختار :
- إليزابيث ، لقد تقابلنا كثيرا ، وجميع ميولنا وأفكارنا متشابهة . فهل تحبين أن نبقى دائما معا ؟.



قالت بدهشة :

- كيف ؟ .

- نتزوج .

- لو أنني تزوجت كل شخص تتفق آراؤه وآرائى لتزوجت عديدا من المرات .

شعر مختار بشيء من الإحباط وقال :

- لماذا ؟ هل يوجد ما يمنع زواجنا ؟ .

- أجل .

- ماهو ؟ .

- شخص سبقك وخطبني .

- أنا متأسف ، لم أكن أعلم أنك مخطوبة لأننى لم أر فى إصبعك دبله .

- إنه صديق ، اتفقنا على الزواج وعائلتى وعائلته يعلمان ذلك .

عاد مختار بعد ذلك إلى العزلة ولم يتمكن شريف بعد ذلك من إقناعه بالإشتراك معهم فى أية رحلة .  
ووضع كل همهم فى رسالة الدكتوراه التى كان قد بدأ كتابتها .

## - ٧١ -

انتهى شريف من كتابة رسالة الدكتوراه ، وبعد أسبوعين أتم مختار كتابة رسالته . كان شريف فى  
زيارة لمختار بمنزله ولاحظ وجود صورة فوق حافة المدفأة لم يستطع رؤيتها بوضوح فقال لمختار :

- صورة من هذه ياترى ؟ .

- إلا تعرفها ؟ .

- يبدو أن نظرى ضعف من طول النظر فى الميكروسكوب .

قام واقترب من الصورة ، فقال بدهشة :

- ما هذا ؟ إنها صورة درية ! أما زلت محتفظا بصورتها ؟ ألا يوجد فى جميع بنات إنجلترا الراضعات  
الجمال من أنستك درية ؟ .

- الواقع أننى عثرت على الصورة فى أوراق عن غير قصد ففكرت أن أرميها هنا فوق المدفأة .

- كان من الأفضل أن ترميها فى المدفأة لافوق المدفأة ، شىء عجيب . آن ومرجريت وميزى  
وياتريشيا وغيرهن ، يتمنين الزواج منك ، وحين لك عميق ، وكلهن رائعات الجمال . شعر أصفر  
وعيون زرق ، لماذا لاتتزوج واحدة منهن وتمحو من ذهنك درية وصورتها ؟ .  
- درية أجمل منهن جميعا .

- أظننى يا مختار . تزوج مرجريت أو باتريشيا ، لن تجد أحسن منها . درية تزوجت ، فهل تنوى أنت أن تعيش بدون زواج ؟ ألا تفكر فى تكوين عائلة وأولاد ؟ .  
أطرق مختار للأرض ولزم الصمت ولعت الدموع فى عينيه .

## - ٧٢ -

انتهت مناقشة رسالتى شريف ومختار وحصولا على الدكتوراه فقررا الاحتفال بهذه المناسبة بالذهاب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية «بيتران» تأليف جيمس بارى ، وكانت فرحة مريم بقرب عودتها إلى مصر أشد من فرحتها بحصولها على الدكتوراه .

بحث مختار عن سفينة للعودة فلم يجد أماكن خالية إلا فى سفينة تركية صغيرة الحجم تدعى «بشمون» ، وذهب إلى منزل شريف ليخبره بذلك . قال شريف :

- أنا لا يهمنى حجم السفينة ، المهم أن نعود إلى مصر بأية وسيلة .

- قرأت اليوم أخبارا مهمه عن مصر .

- ماهى ؟ .

- وزارة الوفد ألغت معاهدة ١٩٣٦ من طرف واحد وتطالب بخروج الأنجليز من منطقة القناة ، وأنجلترا تهدد مصر .

قالت مريم :

- هل ستظل مصر تقاسى طوال حياتها ؟ لقد اشتقت إليها . ومتى ستبحر السفينة ؟ .

قال شريف :

- سنسافر إلى لندن بعد يومين ، ونمكث هناك أسبوعين ثم نستقل القطار من محطة ووترلو حتى مدينة دوفر ، ومن دوفر سنعبّر المانش على عبّارة صغيرة إلى مدينة كاليه بفرنسا ، ومن كاليه نساغر إلى باريس ، ثم نستقل القطار حتى مرسيلىا ، ومن مرسيلىا نركب السفينة حتى الإسكندرية .

قالت مريم بدهشة :

- وهل سقطع كل هذه المسافة للوصول إلى مرسيلىا ؟ أليس من المحتمل أن نتوه فى الطريق ؟ .

ضحك شريف ومختار وقال شريف :

- ولماذا نتوه ؟ هل نحن أطفال صغار ؟ .

قالت مريم :

- وهل سيكون مختار معنا ؟ .

قال شريف :

- طبعاً ، سنسافر معا كما جئنا معا .

كان على عبد الكريم قد حجز لهم مكانا في منزل سيدة عجوز عانس تعيش في البيت بمفردها تدعى مس بارنس ، قالت لهم :  
- أتعثم أن تجدوا عندى الراحة في خلال هذين الأسبوعين . ولا بد من أن تستمتعوا بلندن قبل مغادرة البلاد .  
قال شريف :

- كيف نستمتع بلندن ومعنا طفلتين؟  
- لا تحملوا هم الطفلتين ، اتركوهما معى واذهبوا أنتم للفرجة على المسرحيات والمتاحف وكازينو لندن وبرج لندن وغيرها من معالم المدينة . من غير المعقول أن تكونوا في لندن وتحبسوا أنفسكم داخل جدران البيت .

قال مختار :

- نشكرك جدا يا مس بارنس . أنت سيدة طيبة للغاية

قالت مس بارنس :

- أنا أحب المصريين .

ثم أشارت نحو صورة كبيرة الحجم معلقة في البهو وقالت :

- هذه صورة شاب مصرى ، كان سيتزوجنى ، منذ سنوات عديدة .

قال شريف :

- لماذا لم يتزوجك؟

- رفاق سوء وسوسوا له وجعلوه يعدل عن فكرة الزواج . أنا ما زلت أحبه وأحب جميع المصريين

من أجله . إنه هو الذى زرع شجرة العنب التى في حديقة المنزل ، ولذا فسوف أعطيكم عنقودا من عنقودها لتوصيله إليه وسأعطيكم اسمه وعنوانه ، هل تؤدون لى هذه الخدمة؟

قال مختار :

- بطل سرور .

## - ٧٣ -

في أثناء تناول فطورهم في مطعم السفينة قالت مريم :

- هذه السفينة صغيرة الحجم لا تشبه تلك التى سافرنا بها إلى إنجلترا .

قال شريف :

- لم نجد أماكن في أية سفينة أخرى . المهم أن نصل إلى مصر بأية وسيلة .

قالت مريم وقد شحب وجهها :

- أخشى ألا نصل إلى مصر . المركب تميل على الجانبين ميلا شديدا .

قال شريف :

- لا تخافى ، إنها تميل ثم تعتدل .

قالت مريم وأمعاؤها ترنجف من الخوف :

- أحنثى أن تميل فى إحدى المرات ولا تعتدل .

قال مختار :

- حقيقةً ، المركب تميل بشكل غير عادى .

قالت مريم شاعرة برعب شديد :

- انظروا إلى النافذة ، المركب تميل وتوشك أن تنقلب . لا ، أنا لا أحتمل ذلك . أشعر بدوار .

دخل قبطان السفينة المطعم فى تلك اللحظة محاولا الاحتفاظ بتوازنه بصعوبة وجلس عند أقرب

منصدة . قال مختار :

- هاهو ذا القبطان ، سأسأله ليطمئننا .

قال شريف :

- تسأله عن ماذا ؟ .

تجاهل مختار سؤال شريف وانتفض واقفا وسار نحو القبطان يترنح كالكسكسان وجلس بالقرب منه

قائلا :

- تسمع من فضلك ؟ .

نظر القبطان إلى مختار مترقبا ماسيقوله . قال مختار :

- السفينة تميل ميلا شديدا ، هل هى فى خطر ؟ .

- خطر قليل .

قال مختار وقد استبد به الخوف :

- هل يعنى هذا أن السفينة من الممكن أن تغرق ؟ .

قال القبطان بلا اكتراث يشرح درسا فى الميكانيكا :

- تنقلب السفينة لو مالت فى مرة من المرات أكثر من خمسة وأربعين درجة .

- إنها تميل ميلا شديدا قد يصل فى أية لحظة إلى أكثر من خمسة وأربعين درجة ، من الممكن إذن

أن تنقلب .

ذهل مختار عندما قال القبطان بكل هدوء :

- هذا ممكن بطبيعة الحال ، جميع السفن معرضة للغرق ، ولكن لا داعى للخوف ، فالإنسان

لا يشعر بأى ألم عند انقلاب السفينة ، إذ يحدث ذلك فى غمضة عين ويصاب الإنسان بصدمة تجعله

لا يشعر بشىء .

كانت مريم تنصت باهتمام لحديثها ، صاحبت قائلة :

– يا للمصيبة ، لن يغمض لى جفن فى هذه السفينة . هل سنظل على هذه الحال ثلاثة أيام أخرى بليالهم ؟.

ثم صاحت بشكل هستيرى قائلة :

– انظروا كيف تميل ؟ هذه السفينة ستغرق .

وانفجرت تبكى ، قال شريف بغضب :

– ما هذا ؟ لماذا لا تسلمين أمرك لله ؟.

عاد مختار بعد انتهاء حديثه مع القبطان وجلس فى المكان الذى كان جالسا فيه . قالت مريم وهى محتنقة بالبكاء :

– أنا لا أحب الموت غرقا .

قال شريف الذى لم يستطع إخفاء شحوب وجهه .

– إن شاء الله لن نغرق .

غمغم مختار قائلا :

– هل بعد كل التعب الذى تعباه والعذاب الذى تعذبناه حتى حصلنا على الدكتوراه نغرق السفينة ونضيع الدكتوراه فى مياه البحر المتوسط ؟.

قال شريف شاعرا بياس قاتل :

– سيحصل سمك القرش على الدكتوراه .

قال مختار :

– هيا بنا إلى الكيئة ، سأعلق فوطه فى المشجب وألاحظ زاوية الميل .

قالت مريم وكأنها لا تعى ما تقول :

– أجل ، أرجوك علق فوطه فى المشجب .

قال شريف بسخرية :

– وهل ستمنع الفوطه انقلاب السفينة ؟.

دخلوا جميعا كيئة مختار وظلوا ناظرين إلى الفوطه . صاح مختار قائلا :

– ياساتراستر ، زاوية الميل تقترب من خمسة وأربعين درجة .

عادت مريم تبكى وتقول بفرع شديد :

– المركب ستغرق . يا حبيبتى يا سامية . يا حبيبتى يا فريدة .

بكت سامية قائلة :

– أنا لا أريد أن أغرق يا ماما .

صاح شريف قائلا لمريم :

– أيعجبك هذا ؟ أرعبتِ البنت .

أنبتت صفير متواصل ، فاندفع مختار خارج الكيئة ليعرف سبب هذا الصفير . رأى عددا من

الركاب يمدون الخطى . عاد بأقصى سرعته إلى الكيئة صائحاً :  
- إنها صفارة الخطر ، هيا أسرعوا بارتداء ملابس الطوارئ والذهاب إلى المكان الذى حدوده لنا عند سور السفينة .

بكت مريم وأخذت تدور فى الكيئة على غير هدى . صاح شريف قائلاً :

- أسرعى يا مريم . البسوا العوامات وهيا بنا نقف جنب قوارب النجاة .

استمرت مريم فى البكاء قائلة عن غير وعى :

- يا حبيبى يا سامية ، يا حبيبى يا فريدة .

صاح شريف قائلاً :

- كفى بكاء ، أرجوك .

قال مختار :

- الموج يلعب بالسفينة .

غمغمت مريم قائلة بصوت مختنق بالبكاء :

- ثلاث سنوات ونحن فى شوق لمصر ، ونغرق قبل أن نراها ، لماذا ياربى ؟ .

كان معظم الركاب قد اصطفوا فى أماكنهم عند قوارب النجاة . قال شريف :

- لن تغرق السفينة إن شاء الله . يا أرحم الرحمن يارب .

انبعث من مكبرات الصوت ترداد لهذه الجملة :

- على جميع الركاب الذهاب على الفور إلى الأماكن المخصصة لهم عند قوارب النجاة .

ظل جميع الركاب منتظرين الأوامر بركوب تلك القوارب ، ولكن العاصفة بدأت تهدأ فلم تصدر أية

أوامر . بعد نحو نصف ساعة صدرت الأوامر بمغادرة المكان إذ لم يعد هناك ما يدعو لركوب قوارب

النجاة .

انهمرت الدموع غزيرة من عيني مريم . قال لها شريف :

- لماذا تبكين الآن ؟ لقد هدأت العاصفة وهاهى ذى المركب لم تفرق .

قال مختار :

- يشعر الإنسان أحياناً برغبة فى البكاء بعد زوال الخطر .

عندما ضغط مختار على زر جرس باب شقة حلمى بالجيزة فوجئ بشقيقته فاطمة تفتح له الباب .  
صاحت قائلة وقد هزتها فرحة المفاجأة :

- مختار ؟! أهلا وسهلا .

هُرِعَ حلمى ومحمود إلى البهو عندما سمعوا ترحيب فاطمة بمختار ، وبعد تبادل القبلات والأحضان  
جلسوا فى البهو . قالت فاطمة :

- اشتقنا إليك يا مختار .

- وأنا اشتقت إليكم جميعا . كيف حال الوالد والوالدة .  
قالت فاطمة :

- بخير ، ولو أننى لم أرهم منذ شهر؟ .

قال حلمى :

- ألا تسألها لماذا هى هنا فى القاهرة منذ شهر؟

قال مختار :

- لماذا يا فاطمة ؟ .

أحمر وجهها وأطرقت للأرض ولم تجب عن سؤاله . قال حلمى :  
- فاطمة تزوجت .

قال مختار بفرحة منبئة من أعماق قلبه :

- ألف مبروك . هذا أحسن خبر سمعته . مَنْ الزوج السعيد ياترى ؟ .

قال حلمى :

- محام بالاستئناف العالى وتعيش الآن معه فى فيلاً رائعة بالقرب منا تطل على النيل .

قام مختار وقبّل شقيقته وقد دمعت عيناه وقال :

- أنت أهل لكل خير يا فاطمة ، أدعو الله لك بالسعادة والتوفيق .

قالت فاطمة :

- ألا تهنى حلمى أيضا ؟ .

قال مختار :

- مبروك يا حلمى ، لكن علام أهنته ؟ .

قالت فاطمة :

- حلمى خطب أريجة ابنة خالك .

- مبروك ، ألف مبروك . أيجد كل هنا فى أثناء سفرى دون أن أعلم ؟ ليس يبعد أن يكون محمود

قد خطب أو تزوج أيضا .

- قال حلمى مبهتسا :
- أجل ، تزوج منذ أسبوعين من فتاة يونانية ويسكن فى الشقة التى أمامنا .
- قال مختار :
- مبروك يا محمود ، لقد تغيرت أشياء كثيرة .
- قال محمود :
- الله يبارك فىك ، لابد أن تتغير الدنيا مع مرور الزمن .
- غمغم مختار قائلا وكأنه يحدث نفسه :
- مرور الزمن أكبر مأساة فى الدنيا
- قالت فاطمة :
- لم يبق سواك بدون زواج يا مختار ، عقبالك .
- لا ، أنا مرتاح هكذا .
- قالت فاطمة وفى صوتها حزن صادق :
- ولكننى حزينة من أجلك . لن أرتاح حتى أراك مع زوجة جميلة تؤنس وحدتك .
- فى هذه اللحظة انبعث من ميدان الجزيرة ضجة غير عادية تتخللها هتافات غير واضحة الكلمات .
- انقبض قلب مختار وقال :
- ما هذه الضجة ؟.
- قال حلمى :
- لست أدرى ، سأذهب لأعرف .
- هبط السلم فى خطوات سريعة ثم عاد بعد نحو عشر دقائق يلهث شاحب الوجه متجههم الملامح
- وصاح قائلا بفرع :
- القاهرة تَحترق .
- انفض مختار وقال بلهفة ورعب :
- غير معقول ، أين هذا الحريق ؟.
- قال حلمى :
- الحرائق فى قلب القاهرة . يقولون إن أجمل المحال التجارية ودور السينا احترقت . احترق كل شىء .
- غمغم مختار قائلا وقد شعر بىأس شديد :
- لماذا يحدث هذا ياربى للقاهرة وأنا فى شوق لرؤيتها ؟ وكيف احترقت ؟.
- الناس الذين سألتهم يقولون إن المظاهرات والفوضى تجتاح شوارع وسط القاهرة ومستمرن فى
- إشعال النار فى جميع المباني .
- تمتم مختار قائلا :
- لا حول ولا قوة إلا بالله ، يا للخسارة يا مصر .



ثم انتفض واقفا وقد شحب وجهه . سأله حلمى بلهفة :

- ما بك يا مختار؟.

- تذكرت الآن شيئا رهيبا .

- ماهو؟.

- عائلة مريم في منزل بوسط المدينة .

قالت فاطمة :

- من هي مريم هذه؟.

- زوجة أحد أصدقائي ، ذهبت بصحبة زوجها وابنتها لزيارة والدها ووالدتها . أخشى أن يكون قد حدث

لهم مكروه .

لم يحدث أى مكروه لأى فرد من أفراد عائلة مريم ، إذ أن النار لم تمتد إلى منزلهم ، ولكن ما رآته مريم في ذلك اليوم من أهوال جعلها تنخرط في بكاء عنيف حزنا على ما أصاب القاهرة . كان شريف متوتر

الأعصاب ، صاح قائلا لمرم :

- كفى بكاء ، لماذا تبكين؟.

- أبكى على مصر .

- ألا محمد بن الله على نجاتنا جميعا؟.

سافر مختار إلى البلد لرؤية والده ووالدته اللذين أصبحا وحيدين في البيت بعد تفرق الأبناء . مكث

في البلد ثلاثة أيام ثم سافر إلى القاهرة .

## - ٧٥ -

ذات صباح سمع مختار جرس الباب يدق بإلحاح . كانت مريم نائمة وكان شريف جالسا في غرفة

المكتب يقرأ كتابا . ترك الكتاب وأسرع بفتح الباب ففوجئ برؤية مختار تبدو عليه علامات الانفعال ،

وقبل أن يدخل من عتبة الباب صاح قائلا :

- هل سمعت الإذاعة اليوم؟.

- لا ، لم أفتح الراديو ، ماذا حدث؟.

- الجيش استولى على الحكم .

أسرع شريف بفتح الراديو وأيقظ مريم وجلس الثلاثة ينصتون إلى الأنباء المثيرة المتلاحقة ويعلقون

عليها تعليقات شتى .

- ٧٦ -

كان مختار جالسا في شرفة منزله عندما رأى شريفاً يمد الخطى متوجها نحوه . لَوَّح شريف لمختار بيده وعلى فمه ابتسامة فأسرع مختار بفتح الباب . قال شريف وهو يصافح مختار :

- مبروك الترقية ، أخيرا أصبحنا أعضاء في هيئة التدريس بالكلية .

- ومبروك لك أنت أيضا ، لقد هلكنا حتى نلنا هذه الترقية .

- إنها أصعب وظيفة في الدنيا ، لم يعد ينقصك سوى شيء واحد يا مختار .

- ماهو ؟ .

- ينبغي أن تتزوج . إن لم تلحق نفسك وتزوج الآن فسيفوتك القطار . اسمع نصيحتي ، لا تضيع

الوقت . كلما كبر الإنسان في السن قلَّ سعره في سوق الزواج . الأيام تمر بسرعة والشعر الأبيض ، الذي

بدأ يغزو رأسك ، في ازدياد مطرد .

- عندما أجد الفتاة التي تعجبني سأتزوج .

- قل لي بصراحة ، أما زلت محتفظا بصورة درية ؟ .

قال مختار بجزن :

- صورة درية ؟ صورة درية فقدت مني . كنت وضعتها داخل كتاب عند ترتيب الحقائق في المجلدات

بمناسبة السفر ، وعندما وصلنا هنا بحثت عنها فلم أجدها . حتى صورتها فقدت مني .

- هذا أفضل ، لكي تنساها ، لن تستطيع نسيانها وصورتها أمامك تراها كل يوم . هذه البنت

أفسدت حياتك . لا يمكنني أن أتصور إنسانا يظل يجب فتاة طوال هذه السنوات ولا يستطيع نسيانها .

غمغم مختار قائلا وفي صوته رائحة الألم :

- حب بلا أمل .

- هل تريد أن تظل معذبا هكذا حتى تموت ؟ .

- الحياة والموت ، الوجود والعدم ، تلك هي المشكلات التي تخير العلماء وتخبرني .

- توجد مشكلة أخرى ستشعر بها فيما بعد .

- ماهي ؟ .

- مشكلة الوحدة في الشيخوخة .

- قد لا أصل إلى سن الشيخوخة فلا تكون هناك مشكلة ، وعلى أية حال ، أعتقد أن الإنسان الذي يشغل

نفسه بأداء رسالة في الحياة ذات قيمة لا يمكن أن يشعر بالوحدة .

- أنا شخصيا ، لو لم أتزوج لفقدت عقلي . عندما تسافر مريم والبتان إلى القاهرة يومين اثنين أشعر

بأنني سأجئن من الوحدة ، أسير في البيت أكلم نفسي .

- على أية حال ، لست وحدى الآن في البيت . أحضرت رجلا من البلد يطهو الطعام وينظف

البيت .

- ٧٧ -

كان مختار متجها نحو قسم علم الحيوان عندما سمع شخصا يناديه ، التفت فإذا به سعد يهبط من سيارته التي اشترتها له زوجته ، قال لمختار :  
- مبروك يا دكتور مختار ، لقد وافق مجلس الجامعة اليوم على ترفيتكما أنت وشريف إلى وظيفة أستاذ مساعد . أنا قادم من إدارة الجامعة .  
غمغم مختار قائلا :  
- الحمد لله .

- ٧٨ -

كانت مريم ما زالت نائمة عندما تناول شريف الصحف التي وجدها خلف باب الشقة كما اعتاد أن يضعها البائع كل يوم في نحو السادسة صباحا ، وما كاد يطلع العناوين الرئيسية حتى فزع وهرع إلى مريم قائلا :

- أما زلت نائمة ؟ قومي بسرعة . حدثت مصيبة كبرى .  
قامت مريم من نومها مرعوبة وقالت بلهفة :  
- مصيبة !؟ أأن تنتهي المصائب ، ما هي المصيبة هذه المرة ؟ .  
- اسرائيل هاجمت مصر ومعها إنجلترا وفرنسا .  
اتسعت عينا مريم وقالت بدهشة :  
- غير معقول . من قال ذلك ؟ .  
- ها هي ذى في الصحيفة .  
بعد يومين كانت فريدة تطل من النافذة فرأت شيئا لم تراه من قبل ، نادى أمها قائلة :  
- ماما ، تعالى لترى ماذا يفعلون .  
أسرعت إليها مريم ونظرت إلى النافذة وقالت :  
- إنهم يطلون اللمبات الكهربائية التي في الشوارع باللون الأزرق .  
- ولماذا يفعلون ذلك ؟ .  
- لئلا ترى طائرات الأعداء البلد عندما تأتي في الليل .  
- ولماذا تأتي طائرات الأعداء ؟ .  
قالت سامية :  
- لتضربنا بالقنابل .  
نهرتها مريم قائلة :

- اسكتي يا سامية ، إياك أن تنطقى هذه الكلمات مرة أخرى .  
- بكت فريدة والنصقت بأمرها قائلة :  
- أنا خائفة يا ماما ، أنا خائفة .  
- نظرت مريم إلى سامية نظرة قاسية وقالت :  
- أرايت ماذا فعلت؟ لقد أخطتِها .  
- بعد أربعة أيام في نحو التاسعة مساء انطلقت زمارة الإنذار . ارتفعت الأصوات في الشارع تنادى :  
- اطفئوا النور ، اطفئوا النور .  
- صاح شريف قائلاً :  
- اطفئوا جميع الأنوار بسرعة وهيا إلى الخبأ .  
- بكت فريدة . احتضنت مريم فريدة وسامية . ظلت فريدة تبكي قائلة :  
- أنا خائفة ، أنا خائفة .  
- ولاحظت مريم أن جسد فريدة يرتعد .

- ٧٩ -

- ذات مساء ، بعد بضعة شهور ، في نحو السابعة مساء كانت فريدة تطل من النافذة ، قالت لوالدتها :  
- هل أخاف أم لا أخاف؟ .  
- لا تخافى يا حبيبتي ، انظري ، لقد انتهت الحرب وسيعود النور للشوارع . هاهم يزولون الطلاء الأزرق من فوق مصابيح الشوارع .  
- ثم قالت موجهة حديثها لشريف :  
- أنا سعيدة لأن الفيلم الذى كتب مختار قصته سيعرض في دور السينما والدنيا منورة . نريد مشاهدة هذا الفيلم .  
- نذهب غدا لمشاهدته مع مختار ، لقد أثار ضجة في الصحف .  
- قبل بدء عرض الفيلم قال مختار لشريف :  
- هل قرأت روايتي الجديدة؟ .  
- أجل ، قرأتها وقرأتها مريم أيضا .  
- ما رأيكما فيها؟ .  
- ردت مريم قائلة :  
- رائعة وممتعة . عندما بدأت قراءتها لم أستطع تركها إلا بعد الانتهاء منها .  
قال شريف :  
- أنت شخص موهوب يا مختار . أنا دائما أقول لمريم إنك لو تفرغت للكتابة سيكون لك شأن عظيم . ترى

هل سافرت إلى القاهرة لتشاهد مسرحيتك التي تعرض في دار الأوبرا؟

- لا ، لم أسافر بعد . سأسافر يوم الخميس القادم .

قالت مريم :

- ونحن سنسافر خصيصا لمشاهدتها .

## - ٨٠ -

حصل شريف على درجة الأستاذية فذهب مختار إليه في غرفته لتهنئته شاعرا وكأنه هو الذى حصل على هذه الدرجة . قال له شريف :

- عقبالك قريبا إن شاء الله .

- كانت الأمور على ما يرام إلى أن قفز في الميدان رشاد زهدى الذى لم يكن في الحسبان .

- لا نعه أى اهتمام .

- هل تتصور أننى لم أره منذ تخرجنا في كلية العلوم؟

- ولا أنا . كل ما أعرفه عنه أنه عين عقب تخرجه في مدرسة ثانوية للبنات ، ثم سافر إلى إنجلترا على

نفقته وحصل على الدكتوراه وعين في المركز القومى للبحوث . فلنترك هذا الموضوع الآن . أنا ومريم ندعوك

لتشريفنا بزيارتك في بيتنا هذا المساء .

- هل من الممكن تأجيل هذه الزيارة إلى الغد؟

- لا ، هذا غير ممكن ، ولماذا تريد تأجيلها .

- سأكون مشغولا الليلة بمراجعة رسالة ما جستير المراجعة النهائية ولا أود أن أكون سببا في تأخيرها .

- لن تتأخر كثيرا لو أجأت تلك المراجعة إلى الغد . سنتظرك في البيت هذه الليلة . أنا ومريم أعددنا

لك مفاجأة سنعرفها عندما تحضر .

ظل مختار يفكر في هذه المفاجأة حتى وجد نفسه يضغط على زر جرس باب شقة شريف . فتحت له

الباب مريم وقالت عندما رآته :

- أهلا وسهلا دكتور مختار ، تفضل .

قال لمريم في أثناء اتجاهه نحو غرفة الصالون :

- شريف يقول إنكم أعددتم لي الليلة مفاجأة ، ترى ماهى؟

أقبل شريف قائلا :

- ألا يذكرك اليوم بأى شيء؟

قال مختار بعد تفكير عميق :

- يذكركم بشيء لا ، لا يذكركم بأى شيء .

- ألا ترى لهذا اليوم بالذات أية أهمية خاصة لديك؟

قال مختار بعد مزيد من التفكير :

- أهمية خاصة ؟ إنه يوم ككل الأيام . ماهى هذه الأهمية الخاصة ؟.

- ألا تتذكر أن اليوم هو عيد ميلادك ؟.

ضحك مختار وقال بسخرية :

- عيد ميلادى ؟ ظنته شيئاً أهم من ذلك ، وما أهمية عيد ميلادى ؟ كل ما كان يشغل فكرى هو أن بدء الدراسة غدا . لم يحدث مطلقاً أن تذكرت عيد ميلادى ، ولست أدري لماذا يسمونه عيداً . من الواجب أن يحزن الإنسان لمرور سنة من عمره ولكن كيف عرفتم أن تاريخ مولدى اليوم ، إذ لم يحدث أن ذكرته لأحد .

- رأيته فى جواز سفرى ونحن قادمون من إنجلترا ، منذ زمن بعيد ، من حوالى أربعة وعشرين عاماً .

- ومازلت تذكره ؟.

- ولن أنساه .

قالت مريم :

- أبهذه السرعة مرت أربعٌ وعشرون سنة منذ عودتينا من إنجلترا ؟.

قام شريف متجهاً نحو غرفة المائدة المجاورة للصالون قائلاً :

- هيا قم واطفىء الشموع .

قال مختار ضاحكاً :

- أخشى أن تكونوا قد غرستم فى ( التورته ) أربعاً وخمسين شمعة .

- لا تخف ، وضعنا شمعة واحدة رمزية .

غنا معاً أغنية عيد الميلاد وأطلقاً مختار الشمعة بنفخة واحدة ، ولاحظت مريم أن بعض الدموع تفرقت فى عينيه .

## - ٨١ -

فى ذلك اليوم ، أول أيام الدراسة ، امتلأ فناء الكلية بالطلبة . كان الإنسان بنظرة عابرة يمكنه تمييز الطلبة والطالبات الجدد ، فالتالبات يقفن فى مجموعات منفصلين عن الطلبة الذين تبدو عليهم الرهبة للانتقال من المدرسة الثانوية إلى الجامعة التى تبدو لهم كمعبد ذى طقوس غريبة لا يعلمون عنها شيئاً . علم مختار أن محاضرتَه ستبدأ فى الثامنة صباحاً مع طلبة السنة الأولى بمدرج « على إبراهيم » ، وأن عدد الطلبة نحو مائة منهم نحو عشرين من البنات والباقي من البنين .

حضر إلى الكلية فى نحو السابعة والنصف صباحاً وكان حريصاً ، كمعادته ، على بدء المحاضرة فى موعدها ، إذ فى الثامنة تماماً كان واقفاً على المنصة وخلفه السبورة المستطيلة وأمامه المنضدة الممتدة بطول المنصة . ألقى نظرة سريعة على الطلبة والطالبات ، ولم يكن يراهم كأفراد بل كمجموعة ، لو رأى طالباً

أو طالبة منهم خارج المدرج لما عرفها. كان معتادا إلقاء محاضراته من الذاكرة دون الاستعانة بأية مذكرات أمامه ، وبدأ محاضراته قائلا :

- يمكن تقسيم المملكة الحيوانية إلى مجموعتين رئيسيتين : المجموعة الأولى تضم الحيوانات وحيدة الخلية « بروتوزوا » ، والمجموعة الثانية تضم الحيوانات عديدة الخلايا « مياتازوا » . وتنقسم الحيوانات وحيدة الخلية إلى أربع طوائف ...

غير معقول . أشعر بدوار . لا بد أنني في حلم .

- تنقسم الحيوانات وحيدة الخلية ، كما قلت ، إلى أربع طوائف : طائفة السوطيات الهدبيات ، وطائفة اللحيمات ، وطائفة البوئيات ...

لا يمكن أن يكون هذا حلما . هذه البنت الجالسة في الصف الأول هي بعينها ، إنها درية ، أجل ، هي درية ، لكن هنا مستحيل ، لا بد أن درية أصبحت الآن سيدة كبيرة السن ، ودرية هذه التي أمامي صغيرة ، لا يزيد سنها على سبعة عشر عاما ، كأنني عدت إلى الماضي ورجعت درية فتاة صغيرة كما رأيته أول مرة ...

- وهذا التقسيم للحيوانات الأولية مبنى على طريقة الحركة .

هي درية بجميع ملامحها وشعرها وعينيها وابتسامتها ونظراتها . هل أعاد الله لي درية كما رأيته أول يوم في حديقة الأندلس مكافأة لي على صبري وعدائي طوال هذه السنين ؟ لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ، أجل ، لا بد أنني في حلم ، أو قد أكون مريضا أرى أشياء لا وجود لها ....

- أنا متأسف . شعرت بتعب مفاجئ ولن أستطيع إتمام المحاضرة ، سألقيا عليكم في وقت آخر إضافي .

حدثت هممة تحولت إلى ضجة بين الطلبة ، وتمكنت أذن مختار من التقاط بعض كلمات مثل :

« سلامتك يا دكتور » و « لا بأس عليك » ، وغادر المدرج مطرقا للأرض .

قال شريف وقد بدأ يقلق على مختار :

- درية !؟ ما هذا الذي تقوله ؟ لقد حصلت درية على بكالوريوس العلوم منذ سنوات عديدة ، فما الذي يجعلها تعيد الدراسة الآن وهي في هذه السن ؟.

- درية التي رأيته لاتزيد سنها على سبعة عشر عاما . إنها هي بعينها لم تتغير عما كانت عليه يوم رأيته أول مرة .

- هذا غير معقول :

- لست أدرى ، قد أكون مريضا يا شريف وما رأيته مجرد هلاوس لا وجود لها . إذا كان الأمر كذلك فلا بد من عرض نفسي على أحد الأطباء .

- على أية حال من الممكن التأكد من هذا الأمر .

- كيف ؟.

- طلبة السنة الأولى عندهم الآن حيوان عملي . نذهب معا لأرى ما إذا كانت هذه البنت حقيقة أم خيالاً .

- لا مانع لديّ ، هيا إلى المعمل .  
كان الطلبة والطالبات منمكين في رسم الشكل الخارجى للصفحة أخذ شريف يسمح بعينه جموع الطالبات باحثا عن تلك الفتاة . وجدها جالسة تبرى القلم الرصاص فغمغم قائلا بدهشة :  
- هذا غير معقول ! إنها بالفعل صورة طبق الأصل من درية في صباحها ، شىء غريب يصعب تصديقه .

- إذا كان الأمر كذلك ، فلست مريضا ولم أكن أحلم .  
قال شريف بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه :  
- كأنها درية بُعثت من جديد ! هل تحب أن تكلمها ؟  
قال مختار بفرع :

- لا ، لا أريد التحدث معها . كلما أوشتكت على نسيان الماضى يحدث ما يذكّرني به ، حتى صورة درية التي ظننتها ضاعت عثرت عليها منذ أسبوع بين صفحات أحد الكتب . أصبح الأمر فوق احتمالى . أنا تعبٌ يا شريف ، هل من الممكن توصيلى إلى منزلى بسيارتك ؟ أشعر بدوار .  
- حاضر ، لحظة واحدة ، سأحضر حقيبتى .  
صعد شريف مع مختار إلى شقته للاطمئنان عليه ، وبمركبة تلقائية شبه انعكاسية نظر إلى المكتبة ، قال :

- أين صورة درية ؟ أنا لا أراها فوق المكتبة .  
- كنت أبعدها عن عيني لأنساها ، فجاءت هذه الفتاة لتذكّرني بالماضى كله .  
- أحسنت صنعا بإخفاء صورة درية ، إذ لو رآها أحدٌ فسيعتقد أنها صورة هذه البنت التي رأيتها اليوم والتي لا أعرف اسمها حتى الآن .  
- تكون مصيبة لو كان اسمها درية ! .  
- كنت تتمنى رؤية درية وكنت تراها في أحلامك ، ها هي ذى قد أعادها الله إليك صغيرة ناضرة كالوردة كما كانت منذ سنوات عديدة .

- عندما رأيت هذه البنت خيل إلى أن الزمن رجع بي إلى الماضى وأنى ما زلت صغير السن كما كنت عندما رأيت درية أول مرّة ، وبمجرد خروجى من المدرّج رأيت وجهى في المرآة ...  
ثم تهدج صوته وهو يكمل حديثه قائلا :  
- فأدرت أن سنين عديدة مرت من عمرى .  
ولم يستطع السيطرة على قطرات الدموع التي طفرت من عينيه . قال شريف :



- ماذا جرى لك يا مختار؟ كنت صغيرا وأصبحت الآن رجلا عظيما شهيرا يقدرك ويحترمك الجميع ،  
ألا تشعر بذلك؟

مسح مختار دموعه بطرف إصبعه وقال :

- لا أشعر إلا بالحزن والألم .

## - ٨٢ -

بعد نحو أسبوعين ، عقب انتهاء محاضرة السنة الأولى في علم الحيوان ، زار شريف مختارا في غرفته  
بالكلية وسأله :

- أما زلت تعاني من الاضطراب في أثناء القاء محاضرات السنة الأولى؟

- اعتدت الموقف .. إنني أتحاشى النظر إلى هذه البنت . عندما تلتقي عيناي بعينيها ينتابني شعور غريب .

شعور يزعجني .

- بماذا تشعر؟

- المكان الذي شغلته درية في قلبي طوال هذه السنين بدأت تحتله هذه الفتاة .

قال شريف وقد شعر بقلق شديد :

- لا يا مختار ، احترس . لا بد من مقاومة هذا الشعور بكل قوتك وإرادتك . هذه الفتاة صغيرة

السن ، وأنت الآن رجل كبير السن والمقام ، كل كلمة وأية حركة محسوبة عليك

- أجل ، لا بد أن أقاوم . لا أريد أن تبعث درية لتعذبي من جديد . لن أسمح بذلك أبدا .

قال شريف :

- هل عرفت اسمها؟

- أجل ، اسمها ياسمين .

## - ٨٣ -

كان شريف جالسا في غرفة مكتبه بالمنزل مستغرقا في قراءة إحدى رسائل الدكتوراه التي يشرف عليها  
عندما دخلت مريم تحمل له فنجان قهوة ، قال دون أن ينظر إليها :

- شكرا .

قالت :

- أريد التحدث معك في أمر هام لن يستغرق أكثر من دقيقة في أثناء تناولك فنجان القهوة .

- تفضلي ، لقد تبعت من القراءة وأريد الاستراحة بعض الوقت .

- أما زالوا يعذبون الدكتور مختار حتى الآن ويماطلون في ترقيته للأستاذية؟

- العميد ورئيس القسم متعاطفان معه ويرغبان في ترقية ، ولكن أحد زملائنا ورفيق دفتنا ، رشاد زهدى ، الذى عاش معنا فى بيت واحد فى فترة الدراسة ، تقدم هو أيضا لشغل كرسى الأستاذية الذى تقدم مختار لشغله ، وذلك قبل انتهاء الموعد المحدد فى الإعلان بيوم واحد ، فوضع الكلية فى موقف حرج .

- ألا تعرف عنوان رشاد زهدى هذا ؟ .  
 - لا ، لا أعرف عنوانه ولا أريد رؤية خلقته .  
 - معرفة عنوانه ليس أمرا مستحيلا . أنا أقترح أن تذهب إليه فى بيته وترى خلقته من أجل صديقك مختار .

- وماذا أقول له ؟ .  
 - ناقشه فى الموضوع وحاول إقناعه بسحب أوراقه لثلا ينافس مختارا فى الأستاذية .  
 - لا أظن أن مقابلتي له ستكون مجدية ، إنه شديد العناد .  
 - على أية حال إن لم تكن مقابلتك له ستفيد فإنها لن تضر .  
 - أحاول .

سافر شريف إلى القاهرة لهذه المهمة . كان يشعر وهو فى طريقه إلى منزل رشاد بقلق وانقباض وكأنه ذاهب إلى مأمورية الضرائب . أسرعت دقائق قلبه وهو يضغط على زر جرس الباب . بدأ السرور على وجه رشاد بشكل لم يكن شريف يتوقعه . عائق شريفا بحجارة وقبله قائلا :  
 - أهلا وسهلا بالصديق العزيز . منذ سنين عديدة وأنا أتمنى رؤياك . كيف حال مختار ؟ أنا مشتاق لرؤياه هو أيضا .

- مختار بخير والحمد لله ويهديك سلامه .  
 كان رشاد يرتدى جلبابا ناصع البياض ويمسك فى يده مسبحة صفراء قال شريف بسخرية :  
 - لم أكن أتخيل رؤية مسبحة بيدك ، هل تحملها للتسلية ؟ .  
 - لا ، بل للعبادة .

بدت الدهشة على وجه شريف وقال :  
 - ماذا حدث للنديا ؟ يبدو أنك تَحَيْرْت كثيرا .  
 أطرق رشاد نحو الأرض فترة ثم رفع رأسه وفى عينيه دموع تترقق وقال :  
 - غيرتني الليالى والأيام . لقد زهدت فى الحياة . إننى الآن أصلى جميع الصلوات فى مواعيدها وأصوم رمضان ، وذهبت مرتين لأداء فريضة الحج .  
 غمغم شريف قائلا وكأنه يحدث نفسه :  
 - كيف حدث هذا ؟ .

- منذ وفاة ابنتى .  
 قال شريف بحزن :

- لم أكن أعلم ذلك . لو علمنا أنا ومختار لحضرنا خصيصا للعزاء .  
أطرق رشاد للأرض قائلا :
- أنا متأكد من ذلك .  
ثم رفع رأسه ونظر إلى شريف وقال :
- أشعر بأنك حضرت اليوم لأمر معين ، فهل يصدق حلتسى ؟ .  
- أجل ، حضرت لأمر هام يتعلق بصديقنا مختار .  
نظر رشاد بعينين مستطلعتين وقال :
- ماذا أستطيع أن أفعله من أجل مختار ؟ .  
- أنت تعلم أن مختارنا تقدم لشغل كرسى الأستاذية بكلية علوم الإسكندرية التى يعمل بها ، وأنت نافسته فى شغل هذا الكرسى .  
شحب وجه رشاد وقال :
- أقسم برحمة ابنتى أننى لو علمت أن مختارنا تقدم لشغل هذا الكرسى لما تقدمت .  
- أنا أصدقك . ولكن ما العمل الآن ؟ .  
- لا بد أن أسحب أوراقى على الفور . أنا لا أسمح لنفسى بمنافسة شخص أكن له الحب والاحترام .  
غدا سأذهب إلى جامعة الإسكندرية وأسحب أوراقى .

## - ٨٤ -

- كان مختار جالسا فى غرفته بالكلية يقرأ كتابا عندما دخل الفراش وقال له :
- إحدى الطالبات تود الاستفسار من حضرتك عن شىء .  
- فلتفضل .  
قالت الفتاة :
- صباح الخير .  
دهش مختار عند رؤيتها وقال :
- صباح الخير .  
شىء عجيب ، إنها ياسمين ! ما الذى دفعها للمجئى إلى غرفتى ؟ .  
- ما الشىء الذى تودين الاستفسار عنه ؟  
قالت بنجمل وإرتباك وقد توردت وجنتاها :
- أخشى أن أكون سأعطل حضرتك عن عملك .  
- لا ، لن تعطينى عن أى شىء . تفضلى اجلسى يا ياسمين ، أليس اسمك ياسمين ؟ .  
- أجل ، اسمى ياسمين ، ولن آخذ من وقت حضرتك سوى دقيقة واحدة ، هل تسمح بكتابة أى شىء فى (الأوتوجراف) ؟ .

- ماذا أكتب ؟.

- أى شيء تكتبه حضرتك ، ولو كلمة واحدة ، سيكون ذا تأثير كبير فى نفسى وعظيم القيمة فى نظرى .

أخذ منها الأوتوجراف وكتب بعض أبيات من شعر إيليا أبو ماضي التى تقول :  
لتكن حياتك كلها أملاً جميلاً طيباً  
ولتلاً الأحلام نفسك فى الكهولة والصبا  
مثل الكواكب فى السماء وكالأزاهر فى الربى

وناولها الأوتوجراف . قرأت الكلمات التى كتبها وقد بدت الفرحة فى ملامح وجهها وقالت بلهفة :  
- أنا مشكورة ، مشكورة جداً . أنا أسمع عن حضرتك من قبل مجئى إلى الكلية . كل الناس تعرف حضرتك ، وكانت أمنيتى فى الحياة أن أرى حضرتك وأتحدث مع حضرتك . حضرتك مؤلف عظيم . قرأت كل كتبك وسمعت جميع إذاعاتك وقرأت جميع مقالاتك وشاهدت جميع مسرحياتك وأفلامك ، ومحفظة بقصصك ومقالاتك التى نشرتها فى الصحف حضرتك فى نظرى أعظم إنسان فى العالم .

غمغم مختار قائلاً بسخرية وعلى شفثيه ابتسامة زائفة :

- أعظم إنسان فى العالم ١٩ وهل هذا معقول ؟.

- هذا هو شعورى . لا يمكن أن تتصور حضرتك مقدار السعادة التى أنا شاعرة بها الآن وأنا جالسة معك أكلمك . كان حلمى الذى تمنيت تحقيقه .

تفاعلت فى ذهن مختار ذكريات وأفكار عديدة جعلته يقاوم رغبة فى البكاء اجتاحتته . ذعرت ياسمين عندما لاحظت ذلك فقالت بلهفة :

- ما بك يا دكتور مختار ؟ هل تشعر بتعب ؟.

قال وهو يحفف دموعه بمنديله :

- لا ، لا شيء . عيناي ملتبتان قليلاً منذ الصباح فظفرت منها بعض الدموع .

- سلامتك . لا بد أن تهتم بصحتك . حضرتك ثروة للبلد . لا يوجد كثيرون مثلك . لا يمكننى وصف السعادة التى شعرت بها عندما شاهدت حضرتك داخلاً المدرج فى أول محاضرة . لقد عرفتك على الفور من الصور التى تنشرها لك الصحف . كنت أتمنى أن أراك مذ كنت فى المدرسة الثانوية ، وفكرت فى إرسال خطاب لحضرتك ولكننى خفت ألا يفهم الناس المشاعر الحقيقية ويقدرُونها . تفكير الناس فى بعض الأحيان بشع ، رهيب ، يفسد المعنى الحقيقى للمشاعر الجميلة .

- وماذا كنت ستكتبين فى الخطاب ؟.

- لست أدرى . فكرت فى إرسال الخطاب لحضرتك قبل أن أفكر فيما سأكتبه فيه . ينجل إلى أننى كنت سأكتب فيه أننى .. أننى معجبة بك إعجاباً شديداً مهما وصفته لا يمكننى التعبير عن حقيقته ،

والذى أتعبنى هو عدم استطاعتي إطلاع أى إنسان على شعورى هذا الذى أخفيته فى أعماق نفسى حتى لا يراه أحد .

- أشكرك من كل قلبى على هذه المشاعر الجميلة وأتمنى أن أكون جديرا بها .

- يبدو أن حضرتك لا تعرف قيمة نفسك . ألم يقل لك أحد غيرى هذا الكلام ؟ لا بد أن كثيرين قالوه لك .

- أنت أول من أسمع منه هذا الكلام .

قالت بدهشة :

- هل هذا معقول ؟

ثم نجهم وجهها فجأة وهى تنظر إلى الدكتور مختار عندما رأت دموعه تسيل على خديه محاولا مسحها وقد أدار وجهه لئلا تراها فقالت بلهفة :

- هل أسأت لحضرتك بكلامى هذا ؟ .

- لا ، بل على العكس ، أنت تبالغين فى إطرائى . ولكننى كما قلت لك أشعر اليوم بالتهاب فى عينيّ ولذا فالدموع تتساقط منها .

قالت باللهفة نفسها :

- لا بد من الاهتمام بعينيك . أنا أعرف طبيب عيون ممتاز اسمه رشوان فهمى . عيادته فى محطة الرمل ، لا بد أن تذهب إليه .

ثم أدركت أن المسألة ليست تعباً فى العينين ، فلقد بدا لها بوضوح أنه يبكى . انتفضت واقفة وقالت بصوت متهدج :

- غير معقول ، حضرتك تبكى ، لا يمكننى احتمال شىء كهذا . لا أستطيع رؤية دموع رجل عظيم . وانخرطت فى بكاء عنيف .

## - ٨٥ -

دق جرس التليفون فى منزل شريف فالتقط الساعة وسمع مختارا يطلب منه الحضور بأقصى سرعة . لم يسأل شريف عن السبب بل أسرع واستقل السيارة وانطلق بها نحو بيت مختار . فتح الخادم الباب وقال لشريف :

- الدكتور فى غرفة النوم .

كان مختار نائما فى سريره وعلامات الألم بادية على وجهه . سأله شريف :

- ما بك ؟ .

- لست على مايرام .

- كنت فى أحسن صحة عندما رأيتك فى الكلية ، ماذا حدث ؟ .

- أشعر بمغص غير مريح من نوع غريب لم أشعر بمثله من قبل .  
- سأحضر لك الطبيب .  
عندما فحص الطبيب مختاراً اكتشف التهاباً في الزائدة الدودية ، فأسرع إلى تليفون مختار وحجز مكاناً بمستشفى المواساة .  
في اليوم التالي لإجراء العملية ذهب شريف ومرم لزيارة مختار في المستشفى . في أثناء وجودهما بغرفته دخلت إحدى الممرضات وقالت لمختار الراقدة على السرير :  
- بنت واقفة عند الباب منذ فترة طويلة تريد زيارتك يا دكتور مختار .  
قال مختار :  
- ولماذا لم تدخل ؟ فلتفضل .  
- فوجئ مختار بدخول ياسمين وفي يدها باقة ضخمة من الأزهار تضمها لصدرها . قالت وقد بدا عليها نخجل شديد :  
- مساء الخير .  
قال مختار :  
- مساء النور .  
همست مريم في أذن مختار قائلة :  
- لا بد أنها ياسمين .  
قال شريف :  
- أجل ، إنها هي . وكيف عرفت ؟  
- إنها صورة طبق الأصل من درية .  
قالت ياسمين وهي مطرقة للأرض في نخجل :  
- أخشى أن أكون قد ضايقت حضرتك لمجيئي هنا لزيارتك .  
- على العكس ، أنا أشكرك جداً على هذه الزيارة .  
- ألم تغضب مني لمجيئي ؟  
- وهل من المعقول أن أغضب منك لزيارتي بالمستشفى ؟ أزهارك جميلة جداً .  
- متشكراً .  
- كيف حال الكاوية ؟  
- ستكون الكلية على مايرام عندما تشفى وتعود إليها .  
دخلت ممرضة وأعطت مختاراً ترمومتراً ، فوضعه في فمه وخرجت الممرضة . في أثناء ذلك قال شريف لياسمين :  
- وكيف حالك في الدراسة يا ياسمين ؟ هل تذاكرين دروسك جيداً ؟  
- أذاكر جيداً ، ولكن أكثر علم أهم بمذاكرته هو علم الحيوان .

- قال شريف مبتسما :
- ولماذا علم الحيوان بالذات ؟ .
- توردت وجتهاها وقالت :
- لست أدري .
- دخلت الممرضة وأخذت الترمومتر ونظرت إليه لمعرفة درجة الحرارة . قالت ياسمين بلهفة :
- كم الحرارة ؟ .
- قالت الممرضة :
- مرتفعة قليلا .
- قالت ياسمين باللهفة نفسها :
- ولماذا ترتفع ؟ لا بد من استدعاء الطبيب لفحصه .
- قالت مريم وعلى فيها ابتسامة ماكرة :
- أخائفة أنت على الدكتور مختار يا ياسمين ؟ .
- بكل تأكيد . كيف لا أخاف عليه ؟ إننى طوال النهار أصلى وأدعوه بالشفاء .
- قال مختار :
- أشكرك يا ياسمين على هذا الشعور النبيل .
- اتسعت عيناها دهشة وقالت :
- علام تشكرنى ؟ أنا لم أعمل ما أستحق عليه الشكر . لينى أستطيع عمل أى شىء .
- قالت مريم والابتسامة مازالت على شفتيها :
- لماذا لم تلتحق بكلية الطب يا ياسمين ؟ شخصية رقيقة مثلك تصلح لأن تكون طبيبة مثالية .
- انتفضت ياسمين قائلة :
- لا ، لا يمكنى الالتحاق بكلية الطب . لا أستطيع رؤية الجثث وهى تُشرَّح . ولا رؤية الناس وهم يتعذبون .
- ثم وقفت قائلة :
- عن إذنكم ، لا أحب أن أضايق الدكتور مختار .
- وغادرت الغرفة مسرعة الخطى . غمغمت مريم قائلة وكأنها تحدث نفسها :
- هذا أعظم حب رأيت فى حياتى .
- نظر إليها مختار وبدا كما لو أنه يود أن يقول شيئا ، ولكنه آثر السكوت .

## - ٨٦ -

سافر مختار إلى القاهرة لمشاهدة مسرحيته التي تعرض في أحد المسارح ونزل ضيفا على أخيه حلمي . وفرح عندما رأى شقيقته فاطمة التي كانت في زيارة لحلمى في ذلك الوقت . عندما سمعت أريخة صوت مختار أسرع بالحضور وصافحته بحرارة .

طلب مختار من حلمى أن يقيس له ضغط الدم ، فلقد بدأ يشعر منذ نحو شهر بصداع مستمر . وأصبح دائم التوتر بسبب متاعب الترقية إلى الأستاذية والأحزان التي ماكادت تهدأ حتى اندلعت من جديد بظهور ياسمين . وجد حلمى ارتفاعا في الضغط لم يصل إلى درجة الخطورة . وطلب من مختار ألا يرتفع ، فهذا الارتفاع مؤقت وسوف يزول بمجرد زوال أسباب الحزن والتوتر . قالت فاطمة لحلمى :

- ليتك تقيس لي الضغط أنا أيضا . أنا لم أقس ضغط دمي من قبل .

قاس حلمى ضغط دم فاطمة ، فلاحظ مختار شحوب وجه حلمى . سألته فاطمة :

- ماذا وجدت .

- ضغطك معتدل جدا .

قالت فاطمة :

- الحمد لله .

ثم قالت لمختار :

- لماذا لم تنزل في ضيافتنا يا مختار ؟ بيتنا والحمد لله واسع وبه غرف عديدة . وزوجى وولداى يرحبون

بك ويحبونك .

- سأزورك بكل تأكيد .

عندما اختلى مختار بحلمى قال :

- لاحظت شحوب وجهك عند قياسك لضغط دم فاطمة ، فما هى حقيقة ضغطها ؟ .

- شىء غير معقول إطلاقا ، ضغطها مرتفع بشكل مرعب . مائتان وثلاثون على مائة وعشرين !

إننى أتعجب لبقائها على قيد الحياة .

قال مختار وقد شعر بحزن جديد يضاف إلى أحزانه :

- هذه مسألة خطيرة .

- منذ عرفت ضغطها وأنا فى غاية النكد . حياتها معرضة للخطر فى أية لحظة وهى لاتدرى شيئا عن

ذلك ولاتناول أى علاج .

غمغم مختار قائلا بحزن :

- لآحول ولاقوة إلا بالله .

لاحظ مختار قدوم فاطمة مبتسمة بصحبة أريخة فهمس لحلمى قائلا :

- صه ، فاطمة قادمة لاداعى للحديث الآن فى هذا الموضوع .



قال حلمى مغتيراً مجرى الحديث :

- لقد شاهدنا مسرحيتك الجديدة . وشاهدتها معنا فاطمة .

قال مختار :

- هل أعجبتك المسرحية يا فاطمة ؟

- حلوة جدا ، ولكننى حزنّت من أجل البطلة . لماذا جعلتها تموت ؟ لقد ظلت أبكى من أجلها حتى

أحمرّت عيناى .

قال مختار :

- وهل أعجبتك يا أريجة ؟

- إنها رائعة ، ربما تكون أجمل مسرحية رأيتها فى حياتى .

- وروايتى الجديدة ، ما رأيك فيها ؟

- جميلة جدا ، قرأتها مرتين .

- لهذه الدرجة ؟

قال حلمى :

- إنها رائعة حقيقةً .

قالت أريجة .

- كيف تكتب هذه الأشياء الحلوة ومتى تكتبها ؟

- أكتبها فى الوقت الذى من المفروض أن أستريح فيه ، إذ أن راحتى فى هذه الكتابة .

قالت أريجة :

- أنا أتعجب ، من أين تحصل على هذه الأفكار ؟

ضحك مختار وأشار إلى رأسه قائلاً :

- من هذا الوعاء .

قالت فاطمة :

- ورأينا أيضا فيلمك الذى كان فى السينما .

قال مختار :

- ترى ، هل أعجبكم ؟

قالت فاطمة :

- ما تكتبه يعجب كل الناس .

قالت أريجة :

- هل تُدرّ عليك هذه المؤلفات أموالاً كثيرة ؟

- كل ما يخرج من الذهن لاقيمة له فى بلادنا . هل تعرفين ، مثلاً ، كم تقاضيت ثمناً لقصة هذا

الفيلم الذى شاهدتموه ؟

- عدة آلاف من الجنيهات .

ضحك مختار وقال :

- كل ما أخذته مائة جنيه لاغير .

شهقت أريجة وقالت :

- غير معقول ، مائة جنيه فقط ؟ .

قال حلمى :

- مختار خجول ، وهم يستغلون خجوله هذا شر استغلال .

قال مختار مبتسما بمرارة :

- هل تعلمون كم تكلف مشهد انقلاب عربة القطار الذى لم يستغرق عرضه على الشاشة أكثر من دقيقة ؟ تكلف مائة جنيه ، أى مايساوى أجر تأليف قصة الفيلم .  
جلس مختار بين الجماهير لمشاهدة مسرحيته ، وعاد إلى الإسكندرية راضيا كل الرضا عن مستوى إخراجها فى حين أن الفيلم لم يعجبه ، والسبب فى ذلك هو أن المسرحية عرضت كما كتبها تماما ، بينما جرت تغييرات وإضافات وحذف فى قصة الفيلم شوهدت فكرتها الأساسية .

## - ٨٧ -

كان مختار جالسا فى غرفته بالكلية يراجع المحاضرة التى سيلقيها على طلبة السنة الثالثة عندما دخل الفراش وأخبره أن إحدى الطالبات تريد الاستفسار عن مسألة علمية فأذن لها بالدخول . دخلت ياسمين مبتسمة وقالت بصوت خافت :

- صباح الخير .

- صباح الخير يا ياسمين ، تفضلى اجلسى .

جلست ونظر إليها مختار فى انتظار ماترغب فى الاستفسار عنه . قالت بعد أن أطرقت للأرض نحو عشر ثوان :

- لم أستطع فهم مرض النوم ، هل هو موجود هنا فى مصر ؟ .

- لا ، هذا المرض فى أواسط أفريقيا ولا يوجد فى مصر ، ويسببه حيوان أولى صغير الحجم يسمى

« تريبانوسوما » ، وتنقل المرض إلى الإنسان ذبابة تسمى « تسي تسي » ، ويعيش الميكروب فى دم الإنسان ، وعندما يصل إلى المخ . يسبب مرض النوم .

أطرقت ياسمين وقالت دون أن تنظر إلى مختار :

- هل من الممكن أن تكتب لى حضرتك كلمة فى أونوجرافى ؟ .

- ألم أكتب لك منذ أسبوعين ؟ .

- هل من الممكن أن تكتب لى مرّة أخرى ؟ لقد اشترت الأوتوجراف خصيصا من أجل حضرتك ولن أسمح لأى إنسان آخر بالكتابة فيه .  
قال مختار بدهشة :

- خصيصا من أجلى أنا ؟ أين هو ؟.

كان الأوتوجراف فى يد ياسمين فقدمته على الفور قائلة :  
- تفضل .

كتب لها جملة فى الأوتوجراف وسلمه لها فأخذته مبتسمة وطوته ووضعته فى حقيبتها دون أن تقرأ ما فيه وشكرت الدكتور مختار وغادرت الغرفة .

كان باب حجرة مختار مفتوحا كالعادة عند وجود أية طالبة معه . فاستطاعت طالبتان رؤية ياسمين ومختار فى أثناء حديثهما . كانت الطالبتان مرتكزتين على الدرابزين المحيط بالمتور الكائن وسط الصالة المطلة عليها أبواب حجرات بعض أعضاء هيئة التدريس . قالت إحداهن للأخرى :

- رأيت ؟ ياسمين كانت فى غرفة الدكتور مختار .

- لا بد أنها كانت تستفسر منه عن شىء لم تستطع فهمه فى أثناء المحاضرة .

- رأيتة وهو يكتب لها فى الأوتوجراف .

- عديد من الطالبات يفعلن ذلك للذكرى .

- أنت لاتريدين أن تصدقى .

- أصدق ماذا ؟.

- ياسمين تحب الدكتور مختار حبا جنونيا ، وهو أيضا يبادلها الحب هل تتصورين أنها عرفت مواعيد محاضراته فى جميع السنوات وتحرص على الذهاب لرؤيته فى أثناء المحاضرة من خلال نافذة المدرج ؟ ومنذ يومين ظلت واقفة أمام باب الكلية أكثر من ساعتين لمجرد رؤيته عند خروجه .

- هذا غير معقول . إنه فى سن أبيها .

- سوف ترين كل شىء بعينيك ، قريبا .

وحان موعد الدرس العملى فذهبتا إلى مكانيهما بالمعمل .

- ٨٨ -

من الأمراض النفسية المعروفة : الخوف من الماء والخوف من الأماكن الضيقة والأماكن الواسعة والأماكن المرتفعة والظلام وبعض الحيوانات ، وغيرها من أنواع الخوف النفسى ، ولكن الشىء الذى لم يكن يعرفه مختار أو يخاطر على باله هو ذلك النوع العجيب من الخوف المصاب به خادمه عطية . إنه يخاف من رنين التليفون . إذا سمع ذلك الرنين وهو وحده فى الشقة أصابه الهلع وأسرع بفتح باب الشقة وكأنه يستنجد بالناس لينقذوه من هذه الكارثة .

ولذا ، فعندما دخل مختار منزله عقب عودته من الكلية في ذلك اليوم المشئوم بادره عطية قائلاً :  
- سيدى مختار .

- نعم باعطية . ماذا تريد ؟  
- ليلة أمس ، وانت خارج البيت ، رن جرس التليفون ونسيت أن أقول لك .  
- إياك أن تكون تركته يرن دون أن ترد عليه في هذه المرة أيضا .  
- أجل ، تركته يرن ولم أرد عليه .  
- ولم تعرف إذن الذى طلبنى فى التليفون .  
- لا ، لم أقترب من التليفون ، فكيف أعرف الذى طلبك ؟ .  
- يالختيتك ، سنظل خاتبا طوال حياتك .  
وضع عطية يده فى جيبه وأخرج نقودا أعطاها لمختار فى صمت . عد مختار النقود ثم قال :

- ما هذه ؟ .  
- هذا ماتبقى من الفلوس التى أعطيتها لى أمس .  
قال مختار بدهشة :

- لم يبق سوى هذا المبلغ ؟ لماذا ، بكم اشترت اللحم ؟ .  
- الأفة بخمسة وأربعين قرشا .  
- هذا غير معقول ، وبكم اشترت البيض ؟ .  
- البيضة بقرش صاغ .  
- البيضة الواحدة بقرش صاغ ؟ هل هى بيضة نعامة ؟ يبدو أنك تمد يدك للفلوس .  
صاح عطية بانفعال :  
- يارب أموت أو يفرمنى ترام أو أصاب بالعمى لو كنت مددت يدى لأى شىء .  
- لاداعى لهذا ، انتهينا ، اسكت .  
تذكر عطية شيئا فقال :

- سيدى .  
- ماذا تريد ؟ .  
- منذ ساعة ، قبل حضورك ، وصل تلغراف .  
قال مختار بلهفة وغضب :  
- كان من الواجب تسليمى هذا التلغراف بمجرد دخولى البيت ، أين هو ؟ .  
وضع عطية يده فى جيبه وأخرج التلغراف وناوله لمختار قائلاً :  
- ها هو .

فض مختار مطروفاً التلغراف بسرعة ، وماكاد يقرأ السطر الوحيد المكتوب فيه حتى انسابت دموعه على خديه . سأله عطية وقد اصفرَّ وجهه خوفاً وقلقا :

- ماذا في التلغراف ياسيدى مختار؟.

قال مختار بصوت مختق بالبكاء :

- فاطمة أختى توفيت .

تفجرت الدموع من عيني عطية وتكثور على الأرض يبكي ويمسح دموعه بكم جلبابه . ثم دفن رأسه في حجره وأحاطه بذراعيه وأخذ جسمه يهتز . تمت مختار قائلا :

- إنها مازالت صغيرة يارب .

عندما سافر مختار كانت الجنازة قد شيعت قبل وصوله واستقرت شقيقته الجميلة في مئواها الأخير ، وعلم من حلمي أنهم حاولوا الاتصال به تلفونيا مساء يوم الوفاة . ولكن جرس التليفون كان يرن ولا أحد يجيب فاضطروا لإرسال التلغراف .

قال مختار بصوت متهدج وكأنه يحدث نفسه :

- كانت طيبة ورقيقة كالنسيم ، تحملت عذابا وأحزانا كثيرة .

عند عودة مختار إلى الإسكندرية ظل شريف ملازما له عدة أيام فلم يكن يتركه إلا وقت النوم . كان مختار كلما رأى أية فتاة يتذكر فاطمة وتدور في رأسه أفكار غريبة قائلا لنفسه : « لماذا تموت أختى ويبقى هؤلاء ؟ » ، ولكن مرور الزمن أفضل علاج للهموم .

بعد نحو أسبوعين استدعى عميد الكلية الدكتور مختار وقال :

- لقد اخترناك بادكتور مختار لتكون رائد اللجنة الاجتماعية في اتحاد الطلبة بالكلية ، فأنت محبوب من

الطلبة ويحبل إليّ أنك أقدر الأساتذة على حل مشكلاتهم ، فما رأيك ؟ .

- لا مانع لديّ ، وأرجو من الله أن يعينى على تحمل هذه المسئولية .

تقع غرفة مختار بقسم علم الحيوان بالقرب من غرفة شريف ، وإذا ترك شريف باب غرفته مفتوحا فإنه يستطيع بسهولة رؤية مختار وهو في طريقه إلى حجرته . في ذلك اليوم ظل شريف ناظرا من باب غرفته منتظرا قدوم مختار ، وعندما رآه أسرع إليه وقال مشيرا نحو طالب واقف بالقرب من باب غرفة مختار :

- هذا الطالب في انتظارك منذ الصباح الباكر . إنه في إعدادى الطب .

قال مختار للطالب :

- خيرا يا ابني ، هيا معي إلى الغرفة .

واتجهها معا نحو غرفة مختار . ذهب معها شريف الذي همس في إذن مختار قائلا :

- هنا الطالب في حالة غير طبيعية ، من الممكن أن يرتكب جريمة . سأحضر معكما أنا أيضا .

- تفضل .

جلس مختار خلف مكتبه وجلس شريف على كرسى أمام المكتب ، وطلب مختار من الطالب الجلوس

فجلس على كرسى مقابل لكرسى شريف . قال الدكتور مختار :

- ماهى مشكلتك يا ابني ؟ .

قال الطالب بصوت مرتجف :

- أشكرك على المجهود الذى بذلته معنا هذا العام .  
- هل ذاكرت علم الحيوان جيدا ؟  
قال الطالب بسخرية :  
- أذاكر؟! كيف أذاكر وحضرتك سبب المصيبة التى حلت بى .  
قال مختار وقد أذهلته المفاجأة :  
- مصيبة!؟ هل أنا السبب فى مصيبة حدثت لك ؟ ماهى هذه المصيبة ؟  
- أجل ، أنت السبب فى كل ماجرى لى .  
قال مختار بانفعال :  
- ماهذا الذى جرى لك ؟ أنا لا أفهم شيئا .  
- إنك تتظاهر بعدم الفهم ، ألا تعلم ماجرى لى ؟ ألسنت أنت السبب فى كل هذا ؟  
قال مختار وقد بدأ صبره ينفد :  
- ماهو هذا الذى جرى لك ؟ تكلم  
- أنت عملت لى عملاً فى منديل . عملته فى غرفتك هذه واشتركت معك كل المعيدى ، لقد رأيتهم بعينى فى ذلك اليوم يدخلون غرفتك ويخرجون منها مرارا .  
قال مختار وقد بدأ يدرك أن الطالب الذى أمامه مسكين :  
- أنا عملت لك عملاً فى منديل ؟  
- أجل ، أنت الذى أضعت مستقبلى . أنت آذيتى . كل الناس يؤذونى . إننى أرى الناس سائرين خلئى ، وعندما أنظر إليهم يتفكرون فى صورة أشخاص آخرين . أجدهم تنكروا على هيئة سائقى تاكسيات وعلى هيئة بائعين على الرصيف ، وعلى هيئة طلبة يحملون كتبهم . كلهم يريدون إيدالى . يريدون قتلى .  
ثم أردف قائلاً وهو يبكى :  
- لست أدرى لماذا يريدون إيدالى .  
قال مختار وقد شعر بحزن عميق :  
- لاحول ولا قوة إلا بالله ، أظن يا شريف أنها شيزوفرينيا ، انفصام الشخصية .  
قال شريف :  
- هذا الطالب حاصل على مجموع قدره ثمانية وثمانون فى المائة فى الثانوية العامة .  
- شىء محزن .  
قال الطالب :  
- أنت أستاذى يادكتور مختار وبذلت من أجلنا مجهودا هائلا ، وكلنا نحبك .  
ثم أردف قائلاً وهو يبكى :  
- لكن ربنا أمرنى أن أقتلك ، وهذا أمر الله .  
قال مختار بهدوء :

- رينا أمرك أن تقتلني ؟ وماهي جرمي التي أستحق عليها القتل ؟ وهل يأمر الله بشيء قبيح كهذا ؟  
قال الطالب بصوت متهدج :  
- لا بد من تنفيذ أمر رينا . وهل من المعقول أن أخالف أمر رينا ؟  
همس شريف في أذن مختار قائلا :  
- احذر ، فمن الممكن أن يفعلها .  
قال مختار بصوت خافت :  
- لا بد من علاجه في أحد المستشفيات . إنه سيئ الحظ . أصيب في أهم وأعز شيء في الإنسان .  
قال الطالب :  
- أنا عطشان ، أريد أن أشرب .  
قال مختار :  
- سأحضر لك ماء على الفور .  
وبينا يمد مختار يده ليضغط على زر الجرس لاستدعاء الفراش . قال الطالب بلهفة ونخوف :  
- عرفت لماذا تريد إحضار الماء لي على الفور ، لكي تضع لي فيه سمًّا لا . لا أريد أن أشرب . لا  
أريد أن أشرب .  
همس شريف في أذن مختار قائلا :  
- سأذهب لاستدعاء حرس الكلية ، سأطلبهم بالتليفون الذي في غرفتي ليعالج في أحد المستشفيات .  
إنه في حاجة لعلاج سريع .  
عندما وصل الحرس حاول الطالب المقاومة وقد أطل من عينيه رعب شديد . ولكنهم أخرجوه من  
الغرفة بالقوة ونقلوه إلى المستشفى .

## - ٨٩ -

- كان اختيار مختار رائدا للجنة الاجتماعية سببا في تدفق طوفان من الطلبة والطالبات إلى غرفته يستشيرونه ويستشيرون برأيه ويطلبون منه حل مشكلات غريبة لم تكن تُحظر له على بال ، وانكشفت له خفايا في المجتمع لم يكن يعرف عنها شيئا .  
ذات صباح طرقت باب غرفته طالبة أنيقة المظهر ، ولكن الحزن كان باديا في ملامح وجهها . طلب منها مختار الجلوس ، فجلست ثم قالت :  
- هل تأذن لي قبل أن أتكلم بإقتال باب الغرفة ؟  
سمح لها بذلك ، فقامت وأقفلت الباب وجلست ، قالت :  
- لا أحب أن يسمعي أحد سواك . لدى مشكلة تحيرني ، هل من الممكن أن أحكيها لحضرتك ؟  
- ماهي مشكلتك ؟

- أبي يرتشى . وعندما ألومه على ذلك يقول لى إن الأثواب التى ارتديها . من الرشوة . والبديل التى يرتديها إخوتى . من الرشوة . والطعام الذى نأكله . من الرشوة . وأنه لامنع لديه من التوبة عن الرشوة إذا أردنا أن نعيش عرايا وبلا طعام . والمعجيب أن والدتى وإخوتى مرتاحون لهذا الوضع . أنا الوحيدة غير الراضية عن هذه الجريمة . فلا أريد أن أعيش تحت سقف هذا البيت . ولا مكان لى غيره . ولا أدرى أين أذهب .

ثم أردفت قائلة وهى مختنقة بالبكاء :

- اللقمة التى آكلها تلسخنى فى حلقى . والملابس التى ارتديها تكونى . لست أدرى ماذا أفعل . وعلم مختار أن للفتاة ثلاثة إخوه . أحدهم طالب بكلية الزراعة ، والثانى بكلية الآداب والثالث فى كلية الصيدلة . وأن مرتب أبيها فى الشهر سبعة وثلاثون جنيها وخمسة عشر مليما ! استمرت المناقشة نحو ساعة ولم يستطع مختار التوصل لأى حل . لأن الحل ليس فى يده . بل فى يد المسئولين .

فى اليوم التالى . حضر إليه طالب يتعثر فى خطاه ، لم يستطع مختار معرفة ما إذا كان ذلك من فرط الحرجل أم من سوء التغذية . كان شاحب الوجه غائر العينين يبدو رأسه وكأنه جمجمة . طلب منه مختار الجلوس فجلس وظل صامتا مطرقا للأرض فترة طويلة فاضطر مختار أن يسأله عن السبب الذى جاء من أجله فقال :

- والدى موظف فى الحكومة ولى سبعة أخوة وأخوات جميعهم فى المدارس . أحضر إلى الكلية بهذا الحذاء الممزق وهذا السروال المرقع . هذا القميص الأزرق ارتديه صيفا وشتاء بدون فائنة تحته ، ولقد عجزت عن شراء كراسة ، أو حتى مجرد قلم رصاص . ومرتب والدى يُستنفد عن آخره فى الطعام الذى لا يتعدى حد الكفاف . أنا فى شدة الحرجل من زملاى وأفكر فى ترك الجامعة .

قال مختار :

- ستقرر لك الكلية منحة شهرية من صندوق خدمات الطلبة .

حاول الطالب أن يتشم ولكن الابتسامة بدت وكأنها بكاء غمغم شاكر الدكتور مختار وغادر الغرفة مطرقا للأرض .

- ٩٥ -

كانت من عادة مختار ألا يزور شريفا إلا بعد الاتصال به تليفونيا ، ولكنه فى هذه المرة ذهب إليه مباشرة بلا سابق اتصال .

- حاولت الاتصال بكم تليفونيا ولكن تليفونكم ظل مشغولا بشكل مستمر فلم أطق صبرا وحضرت بدون إنذار ! .

قال شريف :

- وهل أنت فى حاجة إلى إخطار قبل حضورك ؟ هل أنت ذاهب لمقابلة رئيس الوزراء ؟ .

قالت مريم :



- نخيل إلى أن أمرا مها يشغل بالك .
- أجل ، أمر عجيب لم يكن يخطر على بالي . اتصل بي وكيل الجامعة بالتليفون في منزل وسألني إذا كنت أرغب في السفر إلى أمريكا .
- قالت مريم :
- وماذا قلت له ؟ .
- قلت إنني لا أستطيع رفض عرض كهذا . وقال إن الجامعات رشحت نحو خمسين أستاذا ولم ترشح جامعة الإسكندرية سوى ، وسوف تحضر من الولايات المتحدة لجنة من اثني عشر أستاذا من أعظم أساتذة أمريكا لاختيار أستاذ واحد من جميع المرشحين ، وميسافر الأستاذ الذي يقع عليه الاختيار إلى الولايات المتحدة الأمريكية للقيام بالتدريس والبحث العلمي في جامعاتها ويحل محله أستاذ أمريكي تنفيذيا لمشروع يطلقون عليه « مشروع تبادل الأساتذة » .
- قالت مريم :
- ليس هذا شيئا غريبا ، إنه شيء يدعو للفخر والفرحة ، وهذا يدل على أنهم يفكرون فيك بأدكتور مختار ويريدون مساعدتك وذلك لعدم سفرك إلى الخارج منذ مدة طويلة .
- قال شريف :
- إنها فرصة ذهبية لتنسى أحزانك وتبتعد عن كل ما يثيرها ، وربما قصد العميد ورئيس القسم أن يبعثك بعض الوقت عن مصدر الأحران ، فها على علم بتابعك في الترقية .
- وهل من المعقول أن أختار أنا من بين جميع الأساتذة المرشحين ؟
- قالت مريم :
- ربما ، من يدري ؟ .
- قال شريف :
- وهل حددوا الجامعة التي سيذهب إليها من يقع عليه الاختيار من الأساتذة ؟ .
- يمضي نصف المدة في جامعة الينوى والنصف الثاني في جامعة كاليفورنيا .
- إن مجرد اختيار الجامعة لك أنت وحدك شيء مشرف .
- قالت مريم :
- ومتى ستسافر ؟ .
- قال لي وكيل الجامعة إنني ، لو وقع على الاختيار ، يتحتم أن أكون هناك بعد شهر على الأكثر .

فى ركن منزل من أركان حديقة قسم النبات بالكلية جلست ياسمين على دكة خشبية وبجوارها إحدى الطالبات . كانتا تراجعان محاضرة علم الحيوان وتحاولان استكمال الأجزاء الناقصة . بغتة ، انهمرت الدموع من عيني ياسمين . قالت لها زميلتها سلوى :

- ما بك يا ياسمين ؟ ماذا جرى ؟ .

قالت ياسمين وهي تجفف دموعها :

- لاشىء .

- لماذا تبكين ؟ .

- سمعت من أحد المعيدين بقسم علم الحيوان خبراً أزعجنى .

- ماذا قال ؟ .

- قال إن الدكتور مختار سيسافر إلى أمريكا .

- وهل يجزئك سفر الدكتور مختار لهذه الدرجة ؟ قولى لى بالصراحة ، ماذا تريدن بالضبط من الدكتور مختار ؟ .

- لست أدرى .

- الكلية كلها تتحدث عنكما .

- لا أنا ولا الدكتور مختار اقترفنا أى ذنب ، فإذا يقولون عنا ؟ .

- يقولون إنك ملهوقة عليه . ويقولون إنه هو أيضاً يجبك .

تمتت ياسمين قائلة :

- هو أيضاً يجبنى ؟ هنا هو مالا أعلمه .

- ألم تلاحظى مايدل على وجود أية عاطفة منه نحوك ؟

- لا ، لم ألاحظ شيئاً من ذلك . أنا التى ..

لم تكمل الجملة . أخرجت من حقيبتها ورقة وقالت :

- هل ترين هذه الورقة ؟ كنت طلبت منه أن يشرح لى شيئاً ادعيت أننى لم أفهمه مع أننى أفهمه جيداً ،

فرسم لى هذا الرسم . هذه الورقة مازلت محتفظة بها منذ أكثر من شهر .

ثم أخرجت من حقيبتها علبة صغيرة من الورق المقوى فتحتها وقالت :

- وهذه الطباشيرة ، كان ممسكا بها ثم ألقاها على الأرض ، فأسرعت بالتقاطها دون أن يراى أحد

ومازلت محتفظة بها داخل هذه العلبة .

- لكن اسمحى لى يا ياسمين أن أقول لك إن هذا زائد عن الحد .

- هل تصدقين أننى أمكث فى بيتنا ساعات أفكر فيه والقلق يكاد يقتلنى . أشعر بالخوف عليه عندما يعبر

الشوارع أو عندما يركب قطارا ، فكيف يمكنى احتمال سفره إلى أمريكا وركوبه طائرة ؟ .

- وكيف عرفت أنه سيركب طائرة؟ قد يركب سفينة .  
- سأفلق عليه في هذه الحالة أيضا . لن أستطيع الحياة لو حدث له أى حادث .  
- أمرك غريب يا ياسمين ، أريد أن أعرف ماتريدته بالضبط من الدكتور مختار .  
- لا أريد منه أى شيء على الإطلاق . كل ما أريده هو مجرد رؤيته . لا أريد أن يمرض أو يتعب أو يتعرض لأى خطر . أريد أن يكون سعيدا فرحانا . يعتريني الدوار عندما أتصور أنني سأظل طوال هذه المدة لا أراه .

- هل لديك فكرة عن المدة التي سيقضيها في أمريكا؟  
- لست أدري . لا يمكنني أن أمكث شهرا واحدا دون أن أراه . لكنني أعتقد أنه سيمكث أكثر من شهر . لقد رأيت ليلة أمس في الحلم .

قالت سلوى بسخرية :

- هل تحملين به أيضا؟

- أنا أراه كثيرا في أحلامي .

- وماذا حلمتِ أمس ياترى؟

- حلمت أنني واقفة على رصيف محطة سيدى جابر . ولكن المحطة في الحلم كانت أكبر من حجمها الحالى ، وسمعت صفيح قطارات . رأيت قطارا مقبلا بسرعة ثم وقف في المحطة ونزل منه الدكتور مختار واضعا يده على صدره ، فاندفعت نحوه بلهفة وقلت له : « مابك يا دكتور مختار؟ » قال : « بنت طعنتني في قأبي في محطة القاهرة » ثم رأيت عربة إسعاف واقفة وسمعت جرسها . فأخذته داخل السيارة . ووجدت نفسى مرتدية زى المرضات ومنهمكة في تضميد جرحه .

كانت سلوى مصغية باهتمام لحديث ياسمين ، ثم قالت :

- حلم عجيب . هل تحملين أحلاما كثيرة من هذا النوع؟

- أجل ، حلمت أحلاما كثيرة رأيت فيها مصابا . أنا خائفة عليه .

- ٩٢ -

كان شريف يقود سيارته عائدا من الكلية ويجواره مختار لتوصيله إلى منزله . قال شريف :

- هل أنهيت إجراءات السفر؟

- أتممت جميع الإجراءات واستلمت تذكرة السفر .

- متى ستسافر؟

- يوم الخميس القادم .

- سأسافر معك لتوديعك في المطار .

- لاداعى لهذا التعب .

- لن يتعبنى وداعك .  
قال مختار بعد فترة تردد :  
- توجد مسألة تضايقتني .  
- أعرفها ، لا بد أنها ذات صلة بياسمين .  
- أجل ، سأسافر وأنا حزين . هل من المعقول أن تعودى لى درية فى صورة ياسمين فأتركها وأسافر إلى أمريكا ؟ هذه المسألة تسبب لى تعباً نفسياً شديداً .  
- لقد حذرتك يا مختار ونصحتك بمقاومة العاطفة التى نشأت بينك وبين ياسمين . ولذا فإننى أعتقد أن سفرك لأمريكا جاء فى الوقت المناسب . هل سيسافر معك أحد من الأساتذة الذين أعرفهم ؟  
- سيسافر معى أستاذ مساعد بكلية الزراعة اسمه محمود داود حصل على منحة لإجراء بعض البحوث العلمية وسيكون معى فى الجامعة نفسها . وسأجد هناك أيضا ابنة عمى سهير وهى فى بعثة من جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراه فى علم الحشرات يرافقها زوجها .  
- ستجد إذن من يؤنس وحدتك . أتعشم أن تنسبك هذه الرحلة ياسمين ودرية .  
غمغم مختار قائلاً وكأنه يحدث نفسه :  
- لا أظن أننى سانسئ .  
وصلت السيارة إلى منزل مختار ، فغادرها واتجه نحو منزله وواصل شريف سيره .  
عندما وصل شريف ومختار إلى مطار القاهرة كان محمود داود فى انتظار مختار . قدّم مختار كلا منهما للآخر فتصافحا .  
لم يصدق شريف عينيه وتمتم قائلاً :  
- هذا غير معقول إطلاقاً .  
قال مختار :  
- ماهو غير المعقول هذا ؟  
- أليست هذه ياسمين ؟!  
أقبلت ياسمين تلهث من أثر الجرى وقالت بصوت متقطع :  
- ضاع منى وقت طويل فى البحث عن تاكسى . كدت أبأس من الحضور قبل إقلاع الطائرة .  
كانت ماتزال تلهث عندما قال مختار :  
- ما الذى أتى بك إلى المطار يا ياسمين ؟ هل ستسافرين للخارج ؟  
- لا ، حضرتك الذى ستسافر . لقد حضرت لأقول ل حضرتك : مع السلامة .  
قال مختار بدهشة :  
- تحضرين من الإسكندرية إلى القاهرة خصيصاً لذلك ؟  
- لو كان الأمر بيدى لسافرت مع حضرتك إلى أمريكا . متى ستعود إلينا ؟  
- بعد سنة واحدة .

قالت بجزن ويأس :

- سنة بأكملها ؟

- الأيام تمر بسرعة .

قالت بصوت منهدج وهى تقاوم البكاء :

- ليس فى كل الأحيان بعض الناس تمر عليهم الدقيقة وكأنها سنة .

ولم تستطع الاستمرار فى المقاومة فانخرطت فى البكاء .

## - ٩٣ -

تعجب مختار من وجود جامعة كبيرة مثل جامعة كاليفورنيا فى قرية صغيرة تسمى « بيركلى » . ولكنه اكتشف فيها بعد أن معظم جامعات أمريكا لا توجد فى المدن الكبرى . بل فى قرى يستطيع الإنسان أن يحول فى جميع أنحاءها دون حاجة إلى مواصلات .

قال مختار لداود :

- أنا أحب الجمبرى . ويقولون إن كاليفورنيا تشتهر بأجود أنواعه . فما رأيك ؟

- عرفت مطعما هنا متخصصا فى الحيوانات البحرية . هيا بنا .

تأثرت فى أنحاء المطعم فتيات جميلات يرتدين أردية زرق ومراول ناصعة البياض وعلى رهوسهن أغطية تشبه إلى حد كبير يضعه المرضيات على رهوسهن فى المستشفيات . نادى داود إحداهن فأقبلت بسرعة ، طلب جمبريا . بعد نحو خمس دقائق أقبلت الفتاة وفى كل يد من يديها صينية من الفضة عليها غطاء ووضعت أمام كل واحد منها صينية . عندما كشفا الغطاء وجدا فى كل صينية كمية كبيرة من الجمبرى والأرز ، وبعد قليل عادت الفتاة ومعها سلة بها خبز وطبق ضخيم يشبه القارب ملئ بجمبرى كبير الحجم بدون أرز .

هس مختار لداود قائلا وهو يلتهم الجمبرى :

- لانهرف حتى الآن ثمن هذه الوجبة ، أخشى ألا يكون معنا من المال مايكفى .

- استمتع الآن بالأكل ولا تنكأ على نفسك بمثل هذه الأفكار السود .

ثم أردف داود هامسا لمختار :

- انظر إلى الركن فى أقصى اليمين ، هل ترى الرجل الجالس هناك ؟

التفت مختار باحثا عن الرجل وقال :

- أين هو ؟

- الرجل ذو الوجه المنتفخ والعينين الحمراء .

- ما به ؟

- لاحظت أنه كان يسير خلفنا وكأنه يتعقبنا . وعندما دخلنا المطعم دخل خلفنا . ومنذ جلسنا وهو لا يرفع بصره عنك ! .

قال مختار بدهشة :

- لم يرفع بصره عنى أنا؟ ولم لا يكون ناظرا إليك أنت؟ .  
- لا ، إنه لم يتوقف عن النظر إليك أنت بالذات ، هاهوذا قد انتقل من مكانه ليجلس بالقرب منا ، وما زال ناظرا إليك وفي عينيه الشر هل تعرف هذا الرجل ! .  
- لا أعرفه ولم تسبق لى رؤية خلقته

- شيء عجيب . إذن ماذا يريد منك؟ .

قال مختار وقد بدا مضطربا :

- لست أدري ، هيا ندفع الحساب ونغادر هذا المكان .  
تعجب مختار عندما علم أن ثمن هذه الوجبة الهائلة أربعة دولارات فقط .  
دفع الحساب وقال وقد أسرع دقات قلبه :  
- هيا نغادر هذا المطعم بأسرع ما يمكن .

قاما واتجها مسرعين نحو باب الخروج ، فإذا بذلك الرجل البدين يقوم هو أيضا ويسير خلفهما . تمت مختار قائلا :

- يبدو أنه مجرم . أدعو الله أن يرجعنا من هذه البلاد سالمين .

كان بيت محمود داود أقرب إلى المطعم من منزل مختار ، فاقترح داود أن يذهبا معا إلى منزله لاختصار الطريق خوفا من هذا الرجل الغريب الذى يتعقبها ، ولكن الرجل مدهلوظ وأمسك بذراع مختار بقوة قائلا :

- أخيرا عثرت عليك . منذ أسبوعين وأنا أبحث عنك فى كل مكان .

استجمع داود كل قوته وسدد إليه ضربة قوية ألقتة على الأرض وانطلق هو ومختار يعدوان فى الشارع الذى بدا شبه خال حتى وصلا إلى بيت داود .

- ٩٤ -

جلست ياسمين مع صديقتها سلوى فى فترة الغداء فى نادى الكلية لتناول بعض الشطائر . كانت تنبث من راديو النادى أغنية أم كلثوم « بعيد عنك حياى عذاب » بدت ياسمين منصتة للأغنية بكل جوارحها وقد غفلت عن الشطيرة الموضوعة أمامها منذ نحو نصف ساعة ، وعندما وصلت الأغنية إلى الفقرة التى تقول : « كنت باشتاق لك وأنا وأنت هنا بينى وبينك خطوتين ، شوف بقينا ازاى أنا فىن يا حبيبى وأنت فىن » ترقرقت الدموع فى عيني ياسمين . قالت لها سلوى :

- كل شطيرتك بسرعة يا ياسمين للتحق حصص العمل .  
قالت ياسمين وذهنها شارد في الأغنية :  
- لا أشعر برغبة في الأكل  
ثم أردفت قائلة :  
- طالت مدة غياب الدكتور مختار في أمريكا وأنا قلقة من أجله .  
- ولماذا تقلقين من أجله ؟ هل هو طفل صغير؟  
- أحلم في هذه الأيام أحلاما مزعجة .  
في هذه اللحظة دخل شريف النادي لتناول شطيرة . قالت ياسمين :  
- ها هوذا الدكتور شريف ، سأسأله عن عنوان الدكتور مختار .  
أسرعت ياسمين إلى الدكتور شريف تاركة زميلتها ناظرة إليها في ذهول . قالت للدكتور شريف :  
- ألا تعرف حضرتك متى سيعود الدكتور من أمريكا؟  
- كل ما أعرفه أن المدة كلها سنة ، مضى منها الآن نحو ستة شهور .  
قالت ياسمين بحزن :  
- هذا يعني أنه لن يحضر قبل ستة شهور .  
- اعتقد ذلك .  
- هل تعرف حضرتك عنوانه في أمريكا؟  
- ولماذا تطلبين عنوانه؟  
- أريد أن أرسل إليه خطابا .  
- ولماذا تفكرين في إرسال هذا الخطاب؟  
- لأطمئن عليه .  
- إذا كان هدفك الاطمئنان عليه فأنا أطمئنك ، فلقد وصلني منه خطاب منذ أسبوع واحد ، وهو على ما يرام وفي صحة جيدة والحمد لله .  
قالت ياسمين وقد حسدت شريفا على الخطاب الذي تلقاه من مختار :  
- أرسل لحضرتك خطابا ؟ هل من الممكن أن تخبرني عن عنوانه؟  
- ألم تقولي إن هدفك الاطمئنان عليه ؟ لقد طمأنتك فما الداعي إذن لإرسال الخطاب؟  
- لا أدري ، ولكنني أرغب في إرسال خطاب إليه .  
- لا يا ياسمين ، لا داعي لذلك ، لا يليق أن ترسلي أية خطابات إليه .  
قالت بصوت مهتدج :  
- إذا لم تخبرني حضرتك عن عنوانه فسأسافر إليه في أمريكا وأبحث عنه في كل مكان ! ضحك  
الدكتور مختار وقال بسخرية :  
- تسافرين إلى أمريكا وتبحثين عنه هناك ، هل لديك فكرة عن مساحة أمريكا؟

– أنا أعلم أنه في ولاية كاليفورنيا . سأذهب إلى جامعة كاليفورنيا وأسأل عنه . لقد رأيت حلما مزعجا أقلقني عليه .

ظن داود أن مطاردة الرجل البدين له عقب خروجه هو وداود من المطعم لم تكن سوى حادثة عابر ، ولكن عند مغادرتها إحدى دور السينما بعد ثلاثة أيام فوجئا بذلك الرجل في انتظار مختار بالقرب من باب السينما محتببا خلف لوحة عليها إعلان عن الفيلم الذي يعرض بالدار مرفوعة على حامل . ضرب داود بقدمه بكل قوته تلك اللوحة فانقلبت على الرجل ووقع على ظهره وأسرع بالابتعاد عن المكان . ذهب الدكتور داود إلى البوليس وشكا من ذلك الرجل الغامض الذي يطارده .

قال رجل البوليس :

– هل تعرف اسم هذا الرجل ؟ .

– لا ، لا أعرف عنه شيئا .

– هذه مسألة خاصة ينبغي أن نتدخل فيها ، وعليك أنت حل تلك المشكلة بالتراضي والتصالح مع هذا الشخص .

خرج مختار من مكتب البوليس يائسا قرر العودة إلى مصر . بعد نحو أسبوع . وصله خطاب غريب قرأه عدة مرات وقرز أن يعرف رأى الدكتور داود في هذا الموضوع . قال داود :

– من مرسل هذا الخطاب ؟ .

– إحدى طالباتي في الكلية ، تلك التي رأيتها في المطار عندما جاءت تودعني .

– ماذا تقول في خطابها ؟ .

– تقول : « أستاذي العزيز الدكتور مختار . ترددت كثيرا قبل أن أرسل لحضرتك هذا الخطاب ، ولقد عرفت عنوانك من الدكتور شريف بعد عناء شديد وعدة محاولات ، ولا أدري لماذا لم يعطني العنوان بسهولة ، والذي دفعني لكتابة هذا الخطاب أنني منذ أيام أحلم أحلاما مزعجة جعلتني أقلق من أجلك وأخاف عليك من الخطر الذي يهددك في هذه الأحلام ، فأرجو أن تحتاط لنفسك جيدا ، أنا مشتاقة إليك شوق تلميذة لأستاذها الذي تحمل له كل حب وإجلال واحترام . لانسخر مني إذا أخبرتك أنني في حالة عدم التمكن من معرفة عنوانك كنت عازمة على السفر إلى أمريكا للاطمئنان عليك . أنا أصلى وأدعو لك . تلميذتك المخلصه ياسمين » . ما رأيك في هذا الخطاب ؟ .

قال الدكتور داود بدهشة :

– خطاب عجيب .

– أنا قررت العودة لمصر .

حاول داود إقناع مختار بعدم السفر ولكن مختارا كان قد اتخذ قرارا لا رجعة فيه . فذلك الرجل المجنون الغامض يهدده هنا بلا سبب ، وترقيته إلى الأستاذية ما زالت معلقة وتحتاج للمتابعة واهتمام ، وفي أعماقه شوق جارف لرؤية ياسمين .

جلس في استراحة المطار مع داود . وبينما هما يجتسيان القهوة في انتظار موعد ركوب الطائرة ،



وقفت رشفة القهوة في حلق مختار عندما رأى على بُعد أمتار ذلك الرجل الغامض واقفا ينظر إليه بعينين مفترستين ، ثم أقبل نحوهما بخطوات سريعة . قال داود :

– هذا الرجل أمره غريب ، إنه كاللعنة التي تطاردك .

قال مختار شاعرا بحزن ويأس قائل :

– لقد تعبت من لعبة الاستغماء هذه . سأواجهه مواجهة حاسمة ، إما أن أقتله أو يقتلني وأستريح .

وقفا أمام بعضهما لا يفصل أحدهما عن الآخر سوى بضعة سنتيمترات . قال الرجل لمختار :

– هل نويت السفر لتهرب مني ؟ لن تفلت من يدي . سأقتلك قبل أن تسافر .

– قال مختار بهدوء :

– اسمع ، لم يعد لى مانع من أن أموت فلقد قرفتني ومررت حياتي ، ولكن قبل أن تقتلني أريد أن أعرف السبب الذي استقتلني من أجله ، فأنا لا أعرفك ولم تسبق لي رؤيتك قبل ذلك اليوم الذي رأيتك فيه في المطعم .

قال الرجل ناظرا إلى مختار بطرف عينه نظرة ساخرة :

– ألا تعرف السبب ؟

ظل مختار يفتش في ثنايا عقله عن سبب لهذا الغضب فلم يهتد إلى أي سبب ، فقال للرجل :

– أقسم لك أنني لم تسبق لي معرفتك ولا أعرف عنك شيئا ولم أسيء إليك في حياتي .

ظل الرجل ناظرا بضع ثوان بعينه الحمراء إلى عيني مختار وكأنه يتوهم مغناطيسيا ، ثم قال وكأنه أحد رجال النيابة يواجه متبها بتهمة خطيرة :

– منذ نحو شهرين وقفت تشرب كوكاكولا الساعة السابعة مساء في محل معين ، هل تذكر الفتاة التي ناولتك الكوكاكولا ؟

– لا ، لا أتذكر أية فتاة ، ولا أذكر أنني شربت كوكاكولا في أي محل من المحلات .

– هذه الفتاة التي ناولتك الكوكاكولا هي فتاتي ، صديقتي ، لقد رأيتها تبسم لك وأنت ابتسمت لها ، وتحديثا معا ، ولكنني لم أستطع سماع حديثكما ، فلقد كنت أراقبكما من بعيد دون أن يشعر أحد منكما بوجودي ، وفي اليوم التالي هجرني ، كنت قد اتفقت معها موعد فلم تحضر ، ومن المؤكد أنها تركتني من أجلك ، فلقد كانت ابتسامتها لك تحمل معنى الحب . لا بد أنك كونت معها علاقة وأصبحت صديقتك .

ثم أردف قائلا بصوت متهدج على وشك البكاء :

– من أجل هذا أهملتي ولم تعد تهتم بي . أنت سبب تعاسي .

قال مختار بدهول وقد بدأ يتذكر شيئا كان مغلفا بضباب النسيان :

– فتاة ؟ كوكاكولا ؟ أقسم لك أنني لا أذكر أي شيء عن ملامح الفتاة التي أخذت منها الكوكاكولا ، ولم أرها بعد ذلك على الإطلاق ، ولو رأيتها لما عرفتها . أنت تعلم أن البائعات عندكم يتسمن لجميع الزبائن ابتسامات زائفة لا تدل على شيء .

- هل أنت متأكد من هذا الذى تقوله؟  
- أقسم لك أننى لم أقل سوى الحقيقة . إننى أحب فتاة فى مصر ، ولا علاقة لى هنا بأية أنثى ، ولا صديقات لى فى بلادكم .  
لأول مرة منذ رآه مختار وجد الرجل يتسم ابتسامة عريضة وقد بدت علامات الراحة النفسية فى ملامح وجهه ، ثم ضحكك وقال :  
- أنا متأسف ، متأسف جدا . فلنكن أصدقاء ، أنا اسمى جون .  
قال مختار :  
- لم تعد هناك فرصة للصدقة فلقد وصلت الطائرة وهامهم ينادون على ركابها ولن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى ، وداعا .  
ودّع داودا واتجه نحو الطائرة وظل يلوح له بيده وداود يلوح له ، وأخرج جون هو أيضا منديله وأخذ يلوح به لمختار حتى ركب الطائرة . وبمجرد جلوس مختار على مقعد الطائرة قفزت فى ذهنه صورة ياسمين ، فأخرج خطابها من جيبه ، كما أخرج صورة درية ، وأخذ يعيد قراءة الخطاب ناظرا من آن لآخر إلى صورة درية .

## - ٩٥ -

كانت مفاجأة لشريف مشوية بالدهشة عندما فتح الباب ووجد أمامه مختارا ، فصاح قائلا :  
- مَنْ ! مختار؟ غير معقول ، أهلا وسهلا .  
أهلا بك .  
- لماذا لم تخبرنى بموعد وصولك لأستقبلك فى المطار؟ متى وصلت؟  
- منذ يومين ، زرت جميع أفراد العائلة واطمأنت عليهم ووصلت إلى الإسكندرية أمس قرب منتصف الليل ، ولم أشأ أن أخبر أحد بموعد وصولى .  
بعد خمس دقائق من جلوسهم فى بهو المنزل أقبلت مريم التى رحبت بمختار ، ثم أقبلت سامية بصحبة فريدة ، صافحتا مختارا وجلستا بالقرب من والدتها . شعر مختار بمرور الزمن عندما رآهما ، لقد تخرجت سامية فى كلية التجارة وأصبحت فريدة فى الرابعة عشرة من عمرها . كانتا تتمنيان دائما زيارة مختار لمتزلفا لاشتيافهما لسماع حديثه واستمتاعهما بالقصص التى يرويها لهما . فتح حقيبة كانت معه وأخرج منها هدايا لجميع أفراد الأسرة . قالت مريم :  
- نتعشم أن نهنتك قريبا بالأستاذية .  
قال مختار بحزن :  
- تعبت من التفكير فى هذا الموضوع .

قال شريف :

- اتركها على الله ولا تشغل بالك .

دعا شريف مختارا للعشاء مع العائلة وظلوا يتحدثون معا حتى منتصف الليل . علم مختار أن سامية تمت خطبتها لأحد المعيدين بكلية العلوم . عندما عاد إلى بيته في تلك الليلة أحسَّ بقسوة الوحدة . وعندما وضع رأسه على الوسادة استعدادا للنوم طفرت من عينه دمعة .

## - ٩٦ -

بعد نحو أسبوع دق جرس التليفون في بيت شريف . سمع مختارا يقول بصوت ضعيف :

- لست أدري ماذا جرى لي يا شريف ، أنا في منتهى التعب . لا رغبة لي في الحركة أو المشي وفقدت شهيتي للطعام . يتأبني شعور غريب لم أشعر بمثله من قبل .

- سأحضر فوراً وأنقلك إلى مستشفى الجامعة في الشاطي .

قال شريف للطبيب بعد أن انتهى من فحص مختار وغادر الغرفة :

- ماذا به يا دكتور؟

- إنها حالة اكتئاب ، وهو مرض نفسي شديد القسوة .

- وما سبب إصابته بهذا المرض؟

- يحدث المرض من تراكم الأحزان ، ويصيب في الغالب المثقفين الأذكياء ذوي الشعور المرفه . بعد يومين ، بينما كان مختار وحده في غرفته بالمستشفى ، سمع طرقاً خفيفاً على الباب ، قال :

- ادخل .

فتحت ياسمين الباب وأطلت برأسها ، ثم دخلت وفي يدها باقة من الأزهار . قالت بلهفة لمختار :

- عرفت أن حضرتك هنا في المستشفى فجئت لأطمئن عليك .

- أشكرك يا ياسمين على هذا الشعور الجميل . تفضلني اجلسي .

وضعت الأزهار على المنضدة وجلست على حافة الكرسي متوترة الأعصاب . قالت :

- كيف حال صحة حضرتك الآن؟

- الحقيقة ، أنا أشعر بتعب .

- يبدو أن حضرتك ترهق نفسك . ينبغي أن تهتم براحتك وبصحتك . حضرتك ثروة للبلد . ثروة للمجتمع البشري كله .

قال مختار محاولاً الابتسام :

- أنت تبالغين في مدحك لي يا ياسمين حتى أو شكيت أن أصدق كلامك .

قالت بجاس : .

- تأكد حضرتك أنني لا أبالغ . إنني أقول الحقيقة التي أؤمن بها . لا تظن حضرتك أنني لا أفهم

لأننى مازلت صغيرة ، لا . أنا أعرف قيمة الناس وأعرف كيف أقيمهم تقييما سليما . أى إنسان لديه قدر من الإدراك لابد أن يعرف قدرك . أنا رأيت حضرتك فى الحلم أمس .

قال مختار بدهشة :

- رأيتنى فى الحلم ؟

- أجل ، إننى أراك كثيرا فى أحلامي .

- وماذا رأيت هذه المرّة ؟

ضحكت وقالت :

- رأيت شيئا غريبا .

- ما هو ؟

قالت وهى مطرقة للأرض :

- حلم عجيب ، رأيت نفسى وسط حفل ضخم فى غرفة فسيحة ، وهذا الحفل مقام لشيء غريب

لا يخطر على البال .

ثم ضحكت وقالت وهى ما زالت مطرقة للأرض :

- إنهم يحتفلون بتربىي ملكة . ورأيت حضرتك واقفا فى يدك تاج ، ثم ركعتُ أمامك ، وحضرتك

وضعت التاج فوق رأسى والموسيقى تعزف ألحانا جميلة لم يسبق لى سماعها .

ثم قالت وهى تضحك :

- أول مرّة أحلم فيها أننى أصبحت ملكة ! ثم وجدت والدنى قادمة نحوى ورفعت التاج من فوق

رأسى ولا أدرى لماذا فَعَلْتُ ذلك . أردت أن أسألها عن السبب فلم أستطع .

- ولماذا لم تستطعي سؤالها ؟

- لأننى صحت من النوم .

خرجت باسمين ، وبعد فترة قصيرة دخلت إحدى المرضات وقالت :

- الآنسة التى كانت عندك الآن ، هل هى أختك ؟

- لا ، إنها طالبة فى الكلية .

- شيء غريب .

- وما وجه الغرابة فى ذلك ؟

- أوصتنى بالاهتمام بك ، وقالت إنها كانت تتمنى أن تكون ممرضة فى هذا المستشفى بدلا منى لكى

تعنى بك . يبدو أنها لا تثق فىنا . هل شكوت لها من شيء ؟

- لا ، لا يوجد هنا ما أشكو منه .

- ٩٧ -

تم شفاء مختار وعاد إلى منزله وذهب شريف لزيارته . استلقت نظره وجود صورة درية فوق المكتبة . فقال :

- ألم أوصيك يا مختار بعدم وضع صورة درية فوق المكتبة أو في أى مكان ظاهر؟ من يرى هذه الصورة سيعتقد أنها صورة ياسمين

- ياسمين رقيقة كالملاك ، كانت تزورنى فى المستشفى . وفى كل مرة تحضر لى معى أزهارا . كان مرضى فى منتهى القسوة ، ولكن يجيل إلى أن زيارة ياسمين أسهمت فى علاجى .

- لقد حذرتك يا مختار . أريد أن أسألك سؤالاً وتُجيب عنه بكل صراحة : هل توجد عاطفة بينك وبين هذه البنت ؟.

- ماذا تقصد بالضبط ؟.

- أقصد : هل تحب ياسمين ؟.

- سأجيب عن سؤالك بكل صراحة : أحبها من كل قلبى حبا عنيفا .

- هل صارحتها بحبك ؟.

- لا يمكنى بطبيعة الحال مصارحتها بشيء كهذا . لقد بُعِثُتْ درية من جديد فى صورة أروع من الصورة القديمة .

ثم أردف قائلاً بحزن :

- لكن بعد فوات الأوان . عندما رأيت درية كنت فى عفوان الشباب ولم تكن تشعر بأية عاطفة نحوى ، ولما جاءت ياسمين بعاطفتها القوية كنت قد أصبحت عجوزاً مخطئاً . فى كل مرة أجد أمامى حاجزاً مرتفعاً لا أستطيع تحطيه .

- وهل طغى حبك لياسمين على حبك لدرية ؟.

- درية وياسمين فى نظرى نسختان لصورة واحدة .

- أنصحك يا مختار ، ولك الخيار فى قبول نصيحتى أو رفضها ، وأنت تعلم مقدار حبى وإعزازى لك .

- ما هى هذه النصيحة ؟.

- ابعد بقدر الإمكان وفى أسرع وقت عن ياسمين . لقد أفسدت درية حياتك ، وستكون ياسمين سبباً فى تلوّث سمعتك التى ظلت على مدى السنين والأعوام كالبلور الخالى من أى خدش .

- وستظل سمعتى كالبلور الخالى من الخدش إلى أن أموت يا شريف . وإذا أحببت فحسبى ظاهر نقى .

- يا مختار لقد تجاوزت الخمسين ، وياسمين لا تريد سنّها على ثمانى عشرة سنة ، وعلى الرغم مما رأيته وسمعتة منها ومنك لا يمكنى تصديق حبا لك كما تتصور .

قالت ياسمين لسوى :

- أحبه من كل قلبي .  
 - وما ثمرة هذا الحب ؟ هل ستزوجينه ؟ ليس من المعقول يا ياسمين أن تتزوج بنت في سنك رجلاً كبير السن مثل الدكتور مختار . كم عام ستعيشين معه قبل موة ؟ .  
 قالت ياسمين بانفعال غاضب :  
 - يموت ؟ ! ما هذا الكلام الفظيخ الذى تقولينه ؟ كيف تفكرين فى موت الدكتور مختار ؟ .  
 - كلنا ستموت . كل الناس سيموتون . ولا بد أن الدكتور مختار سيموت فى يوم من الأيام ويتركك أرملة فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين على الأكثر .  
 - أليس من المحتمل أن أموت أنا قبله ؟ وعلى أية حال فإننى أفضل الحياة مع الدكتور مختار خمس سنوات على الحياة مائة عام مع شاب نافه . أريد أن أكون جنبه فى السنوات الحرجة من حياته . السنوات التى يكون الإنسان فيها محتاجاً لقلب يعطف عليه . إذا سهر أكثر من اللازم أنهه لينا ، وإذا مرض أكون أنا ممرضته . أراه وهو يكتب ، أراه وهو يقرأ ، أراه وهو يفكر ، هل توجد فى الدنيا متعة أكثر من تلك ؟ مثلك يا سلوى لا يستطيع إدراك قيمة شخص مثل الدكتور مختار .  
 - وماذا يقول الناس عنه عندما يمدونه قد تزوج من بنت هو فى سن أبيها ؟ هل تحبين له أن يصبح أضحوكة بين الناس ؟ .  
 - لن أعبأ بما يقولون ما داموا أغبياء لا يفهمون . يخيل إلى أن الدنيا لا يوجد بها سوانا نحن الاثنين .  
 - فلتتخلى ما تريدن . ولكن الحقيقة هى أن الدنيا مليئة بالناس ، وكل واحد من هؤلاء الناس له عينان مفتوحتان ولسان طويل يتكلم .  
 حدث ما كان يخشاه شريف وما توقعته سلوى . لقد انتشر الخبر فى الكلية . بدأ همسا بين الطالبات والطلبة . ثم أخذ يعلو كما يرتفع صفير قطار يقترب بأقصى سرعته .

## - ٩٨ -

بعد ثلاثة أيام ، عندما عاد شريف من الكلية فى نحو الثامنة مساء ، كانت مريم فى انتظاره بهو المنزل مشغولة بعمل (بلوفر) له وقد استبد بها القلق لتأخره عن مواعده المعتاد .  
 اطمأنت عندما سمعت حركة المفتاح فى قفل الباب . قالت :  
 - لماذا تأخرت ؟ .  
 تجاهل سؤالها وقال :  
 - عندى لك خبران ، أحدهما مفرح والآخر محزن .  
 - قل الخبر المفرح أولاً .  
 - مختار حصل على كرسى الأستاذية .  
 فرحت مريم ولكن فرحتها كانت مشوية بالقلق فى انتظار الخبر المحزن . قالت :

- هذا أحسن خبر سمعته في حياتي ، ولكن ما هو الخبر المخزن ياترى ؟ .
- قرر أن يتزوج من ياسمين .
- قالت وقد طغى حزنها على فرحتها :
- غير معقول ، كيف يتصرف كهذا ؟ ماذا تقول الناس عنه ؟ إنها كارثة . ألم تستطع منعه من ارتكاب هذه الحماقة ؟ .
- هذا هو سبب تأخيري حتى الآن . مكثت معه في بيته أكثر من ساعتين محاولا إقناعه بالعدول عن قراره هذا ، فإذا بدموعه تسيل على خده ويقول : « هل يرضيك أن أظل طوال حياتي وحيدا بانسا ؟ لماذا تستكثرون عليّ هذه السعادة ؟ ليس ذنبي أنّ درية عادت إليّ في صورة ياسمين بعد بلوغى هذه السن » .
- إنها أصغر من ابنتنا سامية .
- أجل ، بكل أسف . العجيب في الموضوع أن البنت تحبه حباً أسطورياً لم يرد له مثيل . تكاد تعبه .

- ٩٩ -

- في الصباح الباكر وقف مختار في غرفته ينظر من خلال النافذة المطلة على فناء الكلية . رأى ياسمين منهمكة في القراءة في إحدى كراسياتها تحت إحدى الأشجار الضخمة . هبط إليها واقترّب منها وقال :
- ياسمين .
- فوجئت بسماع صوته ، فنظرت إليه بعينين مبسمتين وقالت :
- أفندم .
- أريد التحدث معك في أمر هام .
- قالت وقد سرت في جسدها فرحة غامضة :
- تفضل .
- ما هو عنوان متزلّكم ؟ .
- أسرعت دقات قلبها وهي تقول :
- سبعة وثلاثون شارع كفر عبده بجى رشدى في فيلا من دورين ، لونها أبيض .
- ولم تستطع إخفاء فرحتها عندما قالت :
- هل ستورونا حضرتك في البيت ؟ .
- أجل ، سأحضر لمقابلة والدك .
- والدى متوفى .
- أنا متأسف . مع من تعيشين ؟ .

- مع والدتي .
- سأحضر اليوم لزيارتكم الساعة السابعة مساء
- قالت بلهفة وفرحة :
- حضرتك تزورنا؟ أهلا وسهلا .
- ثم صعد إلى غرفته وتركها تحت الشجرة تحلم بهذه الزيارة .

## - ١٠٠ -

- عندما ضغط على الجرس ، فتحت ياسمين الباب على الفور وكأنها كانت واقفة خلفه في انتظار قدوم مختار . صاحت عندما رأته قائلة :
- أهلا وسهلا ، تفضل .
  - قادته إلى غرفة الجلوس وقالت :
  - والدتي ستحضر حالا .
  - بعد بضع ثوان أقبلت والدتها . قالت ياسمين مقدمة كلاً منها للآخر :
  - والدتي . الدكتور مختار أستاذي .
  - غمغم مختار قائلاً بدهشة :
  - درية!؟ .
- تصافحا وجلسا وجلست ياسمين بالقرب من باب الغرفة . أطرق مختار للأرض وساد الصمت لحظات . ثم قالت درية :
- ألم تكن تعلم أن ياسمين ابنتي يا دكتور مختار؟ .
  - قال مختار وهو لا يزال مطرقاً للأرض :
  - لا . لم أكن أعرف ذلك ، ولكنني أدركت الآن سبب التشابه الشديد بينكما .
  - ياسمين جاءت صورة طبق الأصل مني . منذ سنوات لم أرك يا دكتور مختار .
  - قال مختار بصوت خافت :
  - سنين عديدة ، طويلة .
  - خطوة عزيزة .
- قالت ياسمين للدكتور مختار وقد وجدت نفسها في مواجهة لغز يصعب حلُّه :
- حضرتك كنت تعرف والدتي؟ .
  - ظل مختار مطرقاً للأرض ، فقالت درية :
  - أنا كنت تلميذته في الكلية كما أنت تلميذته الآن . أينا كان أكثر تفوقاً في الدراسة يا دكتور مختار ، أنا أم ياسمين؟ .



- قال مختار وقد جرفته أمواج الذكريات :
- أفندم ؟ نعم ؟ .
- قالت درية مبتسمة :
- فيم كنت تفكر ؟ .
- في أشياء كثيرة ، ذكريات بعيدة .
- قالت درية :
- اذهبي يا ياسمين احضري لنا الشاي .
- حاضر يا ماما .
- واختفت ياسمين داخل البيت . قالت درية :
- عندما رأيته يا دكتور أدركت أنني أنا أيضا لا بد أن أكون تغيرت . قد لا يشعر الإنسان بأنه تغيرَ إلا عندما يرى إنسانا آخر لم يره من مدة طويلة . الزمن يغير كل شيء .
- قال مختار ناظرا نحو باب الغرفة وكأنه ينتظر عودة ياسمين :
- هناك أشياء لا تتغير .
- مثل ماذا ؟ .
- قال مختار بعد فترة تردد :
- بعض الأشياء ، مثل الحزن .
- ألم تكن سعيدا طوال هذه الفترة يا دكتور مختار ؟ .
- مرضت بالاكتئاب فترة من الزمن ، ولا أعتقد أن الإنسان يصاب بالاكتئاب من فرط السعادة .
- الشيء الوحيد الذى أعيش من أجله الآن ، هو ياسمين . لقد قاسيت وتعذبت كثيرا . لم أشأ أن أتزوج بعد وفاة زوجي لأكرس حياتي لها .
- قال مختار وكأنه يتحدث نفسه :
- كنا إذن نتعذب نحن الاثنين طوال هذه السنين .
- ثم أردف قائلا بصوت متهدج :
- لماذا ياربي تركتنا نتعذب كل هذا العذاب ؟ .
- قالت درية وقد ومضت في ذهنها ذكريات عديدة .
- قد يرتكب الإنسان خطأ واحدا في حياته يظل يكفر عنه طوال عمره . لقد اعتزلت الدنيا وعشت مع ابنتي ياسمين لا تزور ولا نزار . لقد أخطأت عندما رفضت إنسانا رقيقا أحبني كل هذا الحب الكبير . ومن التي تزوجتها ؟ .
- ترقرقت في عيني مختار بعض دموع وقال وهو مطرق للأرض :
- لم أتزوج .
- قالت درية بدهشة ممزوجة بالحزن والندم .

- لم تتزوج حتى الآن؟  
 - لم أثنأ أن أرتكب خطأً أندم عليه . ولكنني أخيرا قررت الزواج .  
 - ومن سعيدة اللحظة التي اخترتها هذه المرة؟  
 قال وهو مطرق للأرض وقد احمرَّ وجهه :  
 - أنا في الحقيقة ... حضرت لأخطب ياسمين .  
 صاحت درية بدهشة :  
 - غير معقول . ياسمين الصغيرة هذه ؟ إنها ما زالت طفلة .  
 أقبلت ياسمين في هذه اللحظة تدفع أمامها عربة الشاي فتوقفا عن الحديث حتى صبَّت الشاي لختار ولوالدتها وقدمت الفطائر وذهبت إلى غرفتها وانفجرت تبكي . فلقد سمعت آخر جملة قالتها والدتها وهي «ياسمين الصغيرة هذه ؟ إنها ما زالت طفلة» .  
 قال مختار :  
 - عندما رأيته خييل إلى أن الزمن رجع بي أكثر من ربع قرن وعادت لي درية .  
 قالت درية :  
 - هل تحبها ؟  
 - أحبها بكل قلبي . بكل خلية في جسدي .  
 - يجيل إليك .  
 - يجيل إلى ؟ كيف يتخيّل الإنسان أنه يجب ؟  
 أطرقت درية بضع لحظات ثم نظرت للدكتور مختار وقالت :  
 - تقول إنك عندما رأيت ياسمين شعرت كأنك تراهي عندما كنت في سنّها . لأنها صورة طبق الأصل  
 مني .  
 - أجل . هذا ما شعرت به بالضبط .  
 - إذن أنت لم تحب ياسمين :  
 - لم أحب ياسمين ؟! كيف ؟  
 - أجل ، لقد أحببته أنا . للمرة الثانية . رأيتني مرة أخرى في صورة ياسمين فأحببته لثاني مرة . لقد أحببت ياسمين لأنها تشبهني . وحرام أن يتزوج واحد في سنك فتاة صغيرة مثل ياسمين . من المفروض أن تكون أباه ، لا زوجها .  
 قال مختار وقد ملأ الحزن قلبه :  
 - هذا صحيح . أنا الآن لست مختارا المعيد الصغير السن الذي كان . سنوات عديدة مرّت .  
 - وياسمين ما زالت في ربيع عمرها ، فهل من الممكن أن يلتقي الربيع بالخريف ؟  
 قال بصوت متهدج :  
 - لا لوم على إنسان في خريف عمره إذا أحب زهرة سبق له أن حاول قطفها في ربيع عمره و...

قاطعته درية قائلة وقد لمعت الدموع في عينيها :  
- أرجوك يا دكتور مختار لاداعى لهذه الذكريات . يكنى أن هذه الزهرة ظلت طوال هذه المدة تكفّر عن  
ذنبها حتى ذبلت ، ولا نريد للزهرة الأخرى أن تذبل قبل ملأوان  
قال مختار وهو مطرق للأرض :  
- كل ما يهمنى الآن هو سعادة ياسمين . أتمنى لها شابا في ربيع عمره يحبها وتحبه .  
ثم أردف قائلا باذلا بجهودا كبيرا لتلا بيكى .  
- وعلى الأخص بعد أن عرفتُ أنها ابتكتك عن إذتك .  
قام ومد يده إليها مودعا . فأبقت يده في يدها وقالت :  
دكتور مختار ، كنت أتمنى أن أعوضك عن كل ما قاسيته من أحزان ، ولكن الوردة ذبلت .  
سحب يده من يدها ببطء ، وإثبه نحو باب البيت . فتحت له درية الباب . وسار متوجها نحو منزله  
دون أن ينظر خلفه . وأخرج مندبلا مسح به دموعا طفرت من عينيه ليستطيع رؤية الطريق .  
(تمت)

الإسكندرية عام ١٩٧٢

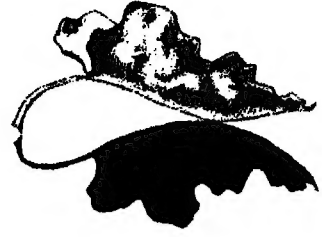


رقم الإيداع : ١٧٩١ / ١٩٨٩  
التقييم الدولي : ٨ - ٢٩٩ - ١٤٨ - ٩٧٧

## مطابع الشارقة

التمامة. ١٦ شارع حراد حسي. هاتف ٣٩٢٤٥٧٨ - ٣٩٢٤٨١٤  
بيروت. ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣





## لاتلوموا الخريف

كانت أسراب العصفير ترتفع تم نبط  
على الأشجار وكأها العاب نارية . والأحبة  
يهدون وبينامسون في نشوة وقد تشابكت  
أيديهم . والأشجار التي جردها الخريف من  
أوراقها بدأت تدب فيها الحياة . كان كل  
شئ في حديقة الأندلس على شاطئ النيل  
في ذلك اليوم من عام ١٩٣٨ يحتفل بمقدم  
الربيع . وانطلق طفل يعدو في إحدى يديه  
قوس وفي الأخرى سهم .

في مهرجان الربيع هذا بدأ مختار بدر  
الدين الطالب بكلية العلوم وكأنه نغمة  
نشاز . فهو جالس بمفرده متزويا في ركن  
منعزل من أركان الحديقة على مقعد خشبي  
تظله شجرة عجوز مخفور على جذعها قلب  
مخزوق سهم وقد أدار ظهره للربيع كما أدارت  
له ظهرها زهرة كبيرة صفراء وانجهدت نحو  
قرص الشمس . وفي يده كتاب « علم  
الحيوان » يحاول أن ينقل إلى مخزن ذاكرته  
كل ما هو مدون في صفحاته . فهو لم يحضر  
للحديقة للترهة وطلب المتعة كغيره من خلق  
الله . ولكنه اعتاد زيارتها من ان لآخر  
ليذاكر دروسه . كان هو الإنسان الوحيد في  
الحديقة الذي لا يشعر بمتعة الربيع . الحياة  
في نظره معمل ومحاضرة وكتاب .

### c دار الشروق

العنوان : شارع محمد حسين ، القاهرة ١١  
تليفون : ٢٣٢٤٥٧٨ - ٣٢٢٤٤٤٤  
بريد إلكتروني : ٨٠٦٤ - ٢٣٥٨٨٩٩ - ٤١٧٧١٥ - ٤١٧٢١٣